

رواية السبعين

نادية



الجزء الثاني

علاء الدين



يوسف البتاي

ناروتاي

الجزء الثاني

(٢٩)

دعوة فى الأوهام !

- رفعت « نادية » رأسها ونظرت إلى « منى » وتساءلت فى صوت حزين :
- ولماذا أفكر فى النهاية منذ الآن ؟
- لأنها آتية .. آتية .
- وهل تفكرين أنت فى نهاية حياتك ؟
- نهاية حياى أحس بها بعيدة .. وقد أفكر فيها عندما تقترب .
- وأنا أيضاً .. أحسن بالنهاية بعيدة .. إننى ما زلت فى بداية أمتع مراحل عمرى ، لم أتصور قط ، أنه يمكن أن يكتب إلى .. يكتب إلى وحدى .. ويسألنى صورتنى .
- وهل تنوين أن ترسلنى له صورتك ؟
- وخيم على « نادية » سحابة غم ومدت يدها بلا إرادة تتحسس عنقها وتشدد لإيشارب عليه وقالت هامسة :
- أرسلنى صورتنى ؟ .. لم لا ؟ .. إن عندى صوراً قديمة قبل الحادث ، والصورة التى صورتها عند « أرماني » .
- ذات الضفيرة المدلاة على كتفك ؟
- أجل .
- التى تبدين فيها كطفلة صغيرة ؟
- ألا تعجبك ؟!
- بالعكس . إنها تعجبنى جداً .
- ومدت « نادية » يدها إلى أحد أذراجها وأخرجت ظرفاً أخذت تقلب ما به

— ٣٥٢ —

حتى أخرجت منه صورة في مساحة « الكارث بوستال » .

ونظرت إليها « منى » وهى تقول :

— جميلة جداً .. ولكنه لن يرد عليك بعد ذلك .. لأنه لا يمكن أن يتوقع أنه يرسل طفلة بصفائر .

— ولكنى سأوضح له أنها صورتي منذ بضع سنوات .

وهزت « منى » رأسها ، ثم تناولت رسالة صبرى .. وألقت نظرة على صفحاتها المكتظة بالكتابة وتساءلت :

— ماذا يريد أن يقول بكل هذا اللت ؟!

— اقريها .. ستفيدك جداً .

— من أى ناحية ؟!

— ستضيف إلى معلوماتك أشياء كثيرة .

— ليس لدى وقت لهذه المعلومات .. لقد انتهيت من الدراسة .. هل قال إنه يجبك ؟

وضحكت « نادية » قائلة :

— ليس بعد .. ولكنه يتمنى أن أكون بجواره في مصر لأرقب الأحداث الضخمة التى تمر بها مصر .

— مثل ؟!

— إعلان الدستور .

وتناولت « نادية » رسالة صبرى وأخذت تقرأ لها :

« لو سمعت جمال عبد الناصر وهو يقف بين الشعب ليعلن سيادة الشعب لا سيادة الأمراء .. ولا سيادة الحكام .. ويعلن أن الثورة ثورة بناء وثورة تعمير .. لأحسست فى نفسك بمثل ما أحسست ، ولأفعم صدرك يا « نادية » ما أفعم صدرى من أمل فى أننا عن قريب سنصبح شعباً عظيماً .. » .

وهزت « منى » رأسها وقالت جادة :

— ٣٥٣ —

— اسمعى .. عندما تكتسبن الرد .. وجهيه مباشرة إلى « جمال عبد
الناصر » .. لأن نصف رسالته من خطابه .. وأعتقد أن « جمال » أولى بالرد ،
وردت « نادية » قائلة :
— إن « جمال » هو الذى يتحدث بلسان الشعب ولهذا يحس كل فرد بأنه هو
المتحدث .

— اسمعى .. اسأليه .. باختصار .. متى ينوى أن يقول إنه يحبك ؟
— لا تسخرى منه يا منى .. إن لديه آمالا كباراً .. وبه وبغيره ممن تمتلئ
قلوبهم بهذه الآمال ، سيتحدد مصير مصر ، وتحقق حريتها .
وهزت « منى » رأسها وقالت :
— ربما .

ثم أردفت وهى تغادر الحجرة :
— أستحضرين حفلة مدام كلود ؟
وأجابت نادية :
— طبعاً .

— إذن اعتذرى لها عنى .. لأنى أكره هذه الحفلات الجنائزية .
— لا تكونى سخيقة .. إنها سيدة رقيقة وهى تجاملنا فى كل مناسبة .
— لو ذهبت فسأقلب لها حفلها المحترم .. إلى حفل راقص .
— أو كد لك أنها لن تتضايق .
— سأذهب على أن تذهبنى معى للعب « تنس » .
— أنا متعبة يا منى .
— سأسمح لك بأن تصحبى معك شريكاً .
— من سيرضى أن يلعب معنا الآن ؟!
— صاحبك .. الذى قررت أن تدعيه إلى كل رحلاتك ونزهاتك . ألم
تسأليه أن يدعوك إلى لعب الكروكيه ؟!

— ٣٥٤ —

وضحكت « نادية » قائلة :

— ولكن لم يدعنى بعد .

— ادعيه أنت إلى « ماتش تنس » .. وسيستحي هو ويدعوك إلى الكروكيه .

وضحكت « نادية » .. ودب النشاط في جسدها ، وهى تتخيل مدحت
يسير بجوارها وقد أمسك بمضرب التنس .

وقالت وهى تنهض :

— معك حق .. سأريه كيف تكون الدعوة .. فى الأوهام ، بين السطور
والكلمات ، حتى يتعلم كيف يدعونى .

وتناولت الفتاتان قطعتين من « الساندويتش » ثم انطلقتا إلى النادى القائم عند
المنحدر .

وفى المساء كانت « نادية » قد خلت إلى نفسها فى حجرتها ، وقد ساد
السكون إلا من نباح متقطع للكلب الرابض بجوار حجرة « بول » .. وصفير
الريح ، تقطعه طرقات شباك لم يحكم غلقه .

وجلست « نادية » أمام منضدتها الصغيرة التى تستعملها للكتابة ، وأزاحت
الزهريه التى وضعت بها ثلاث قرفلات جانباً ، حتى تفسح مجالاً للكراسة
الزرقاء وأعدت تلاوة رسالة مدحت .. وأخذت تزن فى رأسها كل كلمة منها .
ثم بدأت تكتب وب نفسها شعور الرهبة الذى يملكها كلها همت بالكتابة
إليه .. والذى يدفعه فى نفسها إحساسها بأن على كل رسالة تكتبها يتوقف مصير
هذا الأمل الذى شع فى حياتها .

ونظرت إلى كلمة « عزيزتى » التى بدأ بها رسالته .

إن لها وقعاً حالمأ فى سمعها .. إنها تشعر بالآثر الذى تركته فى نفسه .. والمدى
الذى قطعتة علاقتهما معاً ، فى تلك الرسائل الأربع ... ولكن هل تستطيع هى أن
تناديه .. كما ناداها ؟!

بوّدها لو استطاعت أن تفعل ، ولكنها لا تجرؤ .
إنها تحس بأنها تتجاوز حدودها لو فعلت .
تحس بأنها .. قد طمعت .. وتخشى أن يفقدها الطمع ما جمعت . كما يقول
المثل .

وبلا إرادة .. خط قلمها « سيدى العزيز » .
وأحست للنداء .. بشيء من ارتياح .
أجل !. إن فى هذا الكفاية على الأقل هذه المرة .
وتبهرت لحظة ، ثم اندفع قلمها على الورق محدثاً صاحب الرسالة :
« كيف حالك .. وحال مرضاك .. وعملياتك وطلبتك ؟
« أسمح لى أن أنتشلك من بين هذا كله .. لأصحبك فى جولة سريعة فى
بلدنا الصغير .. لا تقل ليس لديك وقت فأنا أعرف أنك تستطيع اختطاف
بعضه .. للنادى .. وللكروكيه .
« دعنا اليوم من النادى ، وهيا بنا نطلق بين المزارع ، ثم ننحدر على السفح
وندق نفسينا ببعض ضربات «قنس» ، ثم نذهب إلى منزل مدام كلود .
« من هى مدام كلود .. ألم أحدثك عنها أبداً ؟
« لا بأس .. إنى لم أحدثك عن شيء بعد .. لم أحدثك إلا عن نفسى ،
وحتى حديثى عن نفسى لم يتعد لجلجة الخائف الوجل .. وارتباك المشتحي
المعتذر .

« سأحدثك عن أشياء كثيرة فيما بعد .
« ليس الآن ، لأنه لم يعد لدينا وقت .. إن « منى » تستعثننا وتصيح بصوتها
الصاخب من أسفل السلم .
« منى .. من ؟ حتى هذه لم أذكرها لك .. عجيبة !! إنها أختى التزومة
الملاصقة لى .. منذ أن رأينا النور سوياً حتى الآن
« كان يجب أن أقدم لك نفسى بطريقة خير من هذه وأن أعرفك على الأقل

بهؤلاء الملاصقين لى : أمى الخنون الصامته ، وجدنى الطيبة .. المترثرة ، وجانيت قرية أمى .. التى تعيش معنا .. وبول العجوز .

« كان يجب أن أعرفك بكل هؤلاء .. وأن أعرفك كيف أعيش ، وأن أصف لك « جاب » التى أعيش فيها .. وأصف لك القمم البيض .. والمياه المنحدرة والأشجار المتكاثفة على سفح الجبل ، والبحيرة المنبسطة أعلى القمة ، والشمس المشرقة على المنحدر .

« أشياء كثيرة كان يجب أن أحدثك عنها ، قبل أن أندفع فى دعوتك معى كالبلهاء ، ولكنتى لم أفعل .. قد يكون عذرى اعتقادى أنك تعرف كل هذا ، لأننى أعرف كل شئ عنك. أعرف هؤلاء المحيطين بك .. أعرف هؤلاء الذين يلعبون معك الكروكيه .. أعرف صديقك « جاد الله » الذى أرجح أنه هو بعينه صاحبك الذى قلت عنه فى رسالتك : إنه يحتفظ بصورتك .. حتى « ميرفت » خطيبتك أعرفها .

« أعرف كل هذا ، لأنى كنت أجلس أرقبك فى صمت من بعيد .. وأنت لا تشعر بوجودى ، وقد توهمت أنك تعرف عني ما أعرف ، واندفعت أدعوك لصحبتى ، ناسية أنك لا تعرف عني إلا بضعة الأسطر الوجلة التى بعثت بها إليك فى رسالتى .

« عذراً .. سأعرفك بكل هذا ، إذا أردت أن تعرفه طبعاً . .. وإذا لم أثقل عليك به .. أما الآن .. فليس لدينا وقت .. هيا بنا .. إن « منى » قد بدأت تسب .. وهى إن لم تكن تعلم .. وقحة .. قليلة الأدب .. لا تحتفظ كثيراً فى ألفاظ سبابها ، وأخشى أن يصيبك منها ، ما يغضبك .. هيا بنا .

« هل المعطف معك .. إن الدنيا برد ، برد أكثر مما تتصوره . ارتده ، فأمى لن تسمح لك بالخروج ، دون أن ترتديه ، ستلقاها فى القاعة أمام المدفأة ، هى وجدنى ، وجانيت وسيحاولن استبقاءك بالطبع للجلوس معهن أمام النيران ، ولكن دعهن وانطلقى بسرعة من الباب .

« لا نخش من بول .. إنه لطيف .. ولن يعضك .
 « أنا أعني « بول » الكلب طبعاً ، وليس « بول » الخادم ، وإن كنت لن
 تستطيع أن أن تفرّق بينهما كثيراً .. لا شكلاً ولا موضوعاً ..
 « هل تعجبك هذه القرنفلة البيضاء التي تترنخ على عودها ؟ سأقطفها لك ..
 إنني أحب القرنفل جداً .

« أنت لا تهتم كثيراً بالزهور .
 « أكاد أعرف عنك هذا .. ليس لديك وقت لتأملها والتفكير فيها !!
 « إني لا أفرّك على هذا .. إن في حياتنا أشياء كثيرة ، صغيرة .. تستحق أن
 نتوقف أمامها ونأملها .. لا يجب أن نركز حياتنا في عمل معين ، نرى كل شيء
 تافهاً بجواره ، لأن حياتنا هي في ذاتها ، مجموعة تفاهات .
 « هل أتفلسف عليك ؟!

« أنت بالطبع تكره الفلسفة .
 « أنا أيضاً لأحبها ، ولكنني في بعض الأحيان ، أحب أن أفكر ، ثم أعبر عن
 تفكيري .

« هيا بنا .
 « مارأيك في « مني » ؟
 « إنها لطيفة جداً .. ومضحكة جداً . وهابفة جداً .
 « لا تأخذ على كلامها كثيراً .. وإذا شمتك .. فصهين .
 « إن البرد شديد القسوة .. أتحب أن نعدو ؟
 « هيا بنا .

« قف .. هذا هو النادي .. ليس كبيراً بالطبع كنادي مصر الجديدة ..
 ولكنه لطيف جداً .. وبه مدفأة تشبه مدفأة نادينا .. أعني المدفأة الكبيرة التي
 تتوسط القاعة القديمة ، وبه نافذة زجاجية عريضة كنوافذ الشرفة المطلة على
 النافورة .

« ولكن المنظر الذى نطل عليه .. أجمل كثيراً من النافورة .. سترى منها منظر الجبال تمتد أمامك بسفحها الأخضر وقممها البيض .. وسترى منها من الجانب الآخر أسقف المدينة بمداخنها وشريط سكة الحديد يمتد أمامك .
« ستبصر منها المدرسة التى أعمل بها أيضاً .. والسنديانة الضخمة القائمة بجوار المحطة .

« أتريد أن تبذل ملابسك .. هذه حجرة الرجال .
« لن أغيب عنك أكثر من بضع دقائق .. حتى أبذل ملابسى .
« سنلعب أنا وأنت فى جانب .. و « منى » والممرن فى جانب آخر
« خذ بالك .. لا تعتمد على كثير .. أنا لا أجيد اللعب . لا تترك لى إلا الكرات السهلة وإلا أضعت عليك المباراة .

« أجاهز أنت ؟ هيا بنا . إن البرد يكاد يجمد الأطراف . ولكن اللعب سيدفئنا وسنشرب الشاي أمام المدفأة بجوار النافذة الزجاجية التى حدثتك عنها ..
أو إذا شئت نتجه رأساً ، إلى منزل مدام كلود .
« أتدرى .. أى سعادة أحس بها لصحبتك .

« لم يخطر على بالى قط .. أن لعب التنس يمكن أن يكون ممتعاً بهذا القدر ..
لماذا تقطب وجهك هكذا ! أهى تقطية العادة .. لا .. لا فك عقدة وجهك ..
يجب أن نضحك نحن الاثنين مادنا معاً .. أجل .. هكذا .

« هل تدرى أن هذه أول مرة أراك تضحك ؟

« ارم أنت السيف .

« خذ بالك لا تتكل على .

« لقد بدأنا نحس بالدفء .

« لقد تعبت .. بدأت ألث .. هذا الممرن الماكر .. يأبى إلا أن يقذف كراته

عندى .

« إنى لا أكاد .. أصددها . »

— ٣٥٩ —

وأتكأت « نادية » بظهرها على المقعد ، ورفعت رأسها وحركت ذراعها ،
وهي تحس كأن اللعب قد أجهدا
وفجأة فتح الباب وبدت « منى » على الباب بالبيجامة وهي تشاءب
متسائلة :

— أما زلت مستيقظة ؟

ثم نظرت إلى الكراسة ، وإلى صفحاتها المليئة وتساءلت في دهشة :

— أكتب كل هذا ؟ أوجدت كلاماً تقولينه !؟

وأسندت يديها على كتفي « نادية » وانحنت فوقها محاولة أن تقرأ ما كتبت ،
وهي تقول محذرة :

— إياك أن تكوني قد كتبت له عن الدستور

وضحك « نادية » قائلة :

— لا تخافي . إني لأحسن الظن به بهذا القدر

— ماذا كتبت له إذن ؟

— عباطات .

— كيف ؟

— لقد دعوته لمرافقتنا إلى نزهة .

وضحك « منى » قائلة :

— ما شاء الله .. ثم تهجينني بعد ذلك بالهيافة .. أرى ما كتبت .

وهبت بتناول الكراسة ، ولكن نادية أقبلت عليها قائلة :

— عندما أنتهى منها .

وكانت « منى » تجرى بعينيها بين السطور واستطاعت أن تلتقط اسمها ..

فهتفت قائلة :

— ماذا قلت له عنى !؟

ثم أخذت تقرأ :

— ٣٦٠ —

« ما رأيك في « منى » ؟ إنها لطيفة جداً .. ومضحكة جداً .. وهائفة جداً ».

وصاحت « منى » وهى تمسك نادية من عنقها :

— أنا .. أنا الهائفة ؟. أنا التى أدعو الناس فى القاهرة ؛ كى يلعبوا

معنا « تنس » فى « جاب » !

ثم عادت تنظر إلى الكراسى لتقرأ :

« لا تأخذ على كلامها كثيراً .. وإذا شتمتك فصهين ».

وصاحت ضاحكة فى دهشة :

— ما هذا !! أجننت ؟

— ألم تشتميه ؟!

— وماذا قلت عنى أيضاً ؟

— لقد لعبنا « تنس » .. أنا وهو ، وأنت مع المدرب .

— وغلبنا ؟!

— طبعاً .

وضحكت « منى » قائلة :

— ولماذا لا تفعلين .. تستطيعين أنت وصاحبك الغشيم أن تغلبا على أبطال

العالم جميعاً .. ما دمنا تلعبان على الورق .

وربت « منى » ظهر نادية وأردفت قائلة :

— عن إذنك . لا أريد أن أوقفك عن تكملة « الماتش » تفضلى .

وأجابت « نادية » ضاحكة :

— لقد انتهينا من الماتش .. ونفكر الآن فى الذهاب إلى مدام « كلود » أو فى

تناول الشاى فى النادى .

وردت « منى » فى لهجة جادة :

— مدام كلود أرخص .. النادى سيكلفنا كثيراً .. وسيطير المبلغ الذى

ادخرته للراديو .

وضحكت نادية وهى تقول :

— معك حق .. ليس لدينا وقت .. يادوبك .. مدام كلود .

وغادرت « منى » الحجرة وهى تهز رأسها قائلة :

— أخشى عليك أن تُجتنى من هذه الدعوات الوهمية .. فقد تكفين عن الذهاب إلى المدرسة .. وتكتفين بدعوة المدرسة إليك .

وأغلقت « منى » الباب .. وعادت « نادية » تسترسل فى الكتابة .

وفى الصباح قبل أن تهبط للإفطار أعادت قراءة الرسالة .

وأحست بعد قراءتها أنها اندفعت ، فى كتابتها ، بطريقة حمقاء بلهاء ، وأمسكت بها بين أصابعها برهة وهى تهيم بتمزيقها .

ولكنها .. بدل أن تمرقها .. طوتها .. ثم وضعتها فى الظرف .. ووضعت معها الصورة ذات الضفيرة .

ماذا تخشى .. بعد أن اندفعت كل هذا الاندفاع ؟!

إن المسألة برمتها ، حماقة كبرى .. فلم هذا التردد ؟!

إن الحماقات كلها تتساوى .

وخير لها أن تكون حمقاء شجاعة .. من أن تكون حمقاء مترددة .

وقبل أن تصل إلى المدرسة اتجهت إلى المحطة ومدت يدها بشجاعة ..

ووضعت الرسالة فى صندوق البريد .. كأنها تقطع كل خيط للتردد والحيرة .

وبعد أربعة أيام .. كان الخطاب الأحمق ، قد انتقل من الصندوق المعلق فى

محطة « جاب » .. ليستقر فى يد « زكية » الممرضة .. وقد سارت تحمله إلى

مكتب مدحت .. وقبل أن تصل إلى المكتب رآها « جاد الله » وهو يسير فى الممر

ولمح فى يدها الظرف ذا الخطوط الحمر والزرق ، فصاح بها :

— لمن هذا يا زكية ؟!

— للدكتور مدحت .

وأمسك « جاد الله » الرسالة ووزنها في يده ، ثم تحسسها بأصبعه .. وأحس بصلابة الصورة في داخلها .. فاندفع إلى حجرة مدحت وهو يهتف به ضاحكاً :
— خذ .. أرني شكلها بسرعة ، حتى أرى إن كانت تستحق كل هذه الهبصة .

ونظر إليه مدحت متسائلاً في دهشة :

— من هي !؟

— صاحبك .. ساكنة الألب .. افتح الرسالة بسرعة وأرني شكلها

— وماذا يهمك من شكلها ؟

— لو كانت قبيحة . فسأخرب بيتها . لن أجعلك ترد عليها .

وضحك مدحت قائلاً :

— ومن أدراك أن بها صورة !؟

— افتح . وسترى .

وفتح مدحت الرسالة ، ومد أصابعه فسنحب الصورة .. ونظر إليها .. وبدأت على ملاحظة علامات الدهشة ، ومضت لحظة ، وهو يحملق فيها دون أن يتكلم ، ولم يطبق « جاد الله » فمده وخطف الصورة قائلاً :
— يا أخي هات . مالك تنظر إليها كالأبله .

ونظر « جاد الله » إلى الصورة في ذهول ، ثم هتف قائلاً :

— يا اينت الإيه .

ثم صمت لحظة ، وهو يتأمل الصورة قائلاً :

— جميلة جداً .. ولكنها صغيرة جداً .. غير معقول أن تكون هذه هي التي كتبت كل تلك الرسائل . إنها من كتابتها تبدو ذكية .. عاقلة .

وقلب « جاد الله » الصورة وقرأ التاريخ المكتوب عليها — نوفمبر ١٩٥٢ — وهز رأسه وعاد يتأمل الصورة قائلاً :

— هكذا معقول .. إنها صورتها منذ ست سنوات ، لا بد أنها الآن نمت

واكتملت .

ثم سلم الصورة لمدحت ، وهو يردف قائلاً :

— حلال عليك يا عم . كنت ستضيعها بوجهك المعقد . عسى أن يثمر فيك .. خسارة في جنتك .

ونظر إليه مدحت زاجراً ، وهو يقول :

— ما هذا السخف !! ما هذه التي هي خسارة في جنتي ؟!

— بنت كاللوز .. إن لها عيين هائلتين ؟!

— ماذا تظنني فاعلا بعينها يا غبي ! إلى أكتب إليها مجرد عطف .

— مفهوم .. مفهوم .. إنه أحياناً ، يبدأ عطفاً .

— ما هو هذا الذي يبدأ عطفاً ؟!

— الحب يا أستاذ .

— حب .. أنت مجنون .. أنا أحب .. فتاة تسكن قمم الألب ؟!

— ولم لا ؟! البعيد يقرب .

ونظر إليه مدحت في غيظ وقال له :

— اسمع يا « جاد الله » ، أنت تعرف أنك أنت الذي دفعتني إلى الرد عليها ..

فإذا أصررت على هذه السخافات التي تقولها بأمزق الرسالة والصورة ..

مفهوم ؟

وضحك جاد الله واختطف الصورة والرسالة من يده قائلاً :

— أنت مجنون .. إلى أمزح . ما ذنب البنت المسكينة . أما مغفل صحيح

وأخذ جاد الله يقرأ الرسالة بصوت عال ، ولكن مدحت خطفها من يده

ناهراً :

— ما هذا أيها الغبي ! أتريد أن تلم علينا الممرضات ، ماذا يقلن ؟!

— لا مؤاخذه .. نسيت أنك راجل حشمة ووقور ومحترم .

وأخذ في القراءة ، ومدحت ينظر إليه في غير اكتراث وكأن الرسالة لا تهمه

— ٣٦٤ —

حتى انتهى من قراءتها وسلمها إليه قائلاً في تأثر :
 — بنت هائلة .. تصوّر .. إنها تعرفنى ، وتعرف ميرفت . إنها لطيفة جداً
 وفي منتهى الذكاء .. وإن كانت أختها تبدو قليلة الأدب .
 — أختها ؟
 — أجل .. إنها دعتك إلى النادى وعرفتك بجميع أفراد العائلة . حلال
 عليك .

وتناول مدحت الرسالة وأخذ يقلبها بلا اهتمام وهو يقول :
 — كلام فارغ ولعب عيال ، لن أجب عليها الآن .
 — أيها الغبي إن الرسالة في منتهى اللطف ، والله لا تستحقها .
 — إذا كنت تريد فخذها .. اشبع بها .
 — لو كانت ترضى أن أكتب إليها .. لفعلت .
 — لماذا لا تجرّب ؟!
 ونظر « جاد الله » إليه وقال له في غيظ :
 — اسمع .. اقرأ الرسالة أولاً ولا تكن مغروراً . إن الغرور سيقنتك .. السلام
 عليكم .

وقبل أن يترك « جاد الله » الغرفة قال له :
 — اسمع .. إنها تريد منك صورة كبيرة ، تضعها أمامها في إطار .. وأنصحك
 أن تذهب من الآن لتصوّر صورة محترمة غير صورة المشردين التى أرسلتها إليها ،
 حتى لا تؤذى عيني البنت الرقيقة !! مفهوم ؟.

— — —

(٣٠)

رد على دعوة !

عندما غادر مدحت المستشفى ظهر اليوم كانت رسالة « نادية » ما زالت عالقة بذهنه .

لقد استطاعت الرسالة ، رغم تظاهره بالا ستخفاف بها وادعائه بأنها عبط ولعب عيال .. أن تتسلل إلى نفسه .

لقد أحس بحرارتها ، وبساطتها وصدقها .

أحس بأنه يسك يد صاحبتها ويعدو بها على المنحدر وسط البرد المتساقط ، وبأنه يصد عنها كرات « التنس » وبأنه يجلس بجوارها أمام المدفأة يحتسى الشاي .. وينصت إلى أصابع مدام « كلود » وهى تعزف البيانو فى دقات بطيئة متقطعة .. تنساب إلى النفس .

إنها حملته إلى جوروائى عجيب .. كذلك الذى كان يعيش فيه ، وهو يقرأ قصص « شارلس جارفيس » فى صباه .

وأحس بأنه يتوق إلى أن يسمع أنغام « الفالس داديه » الذى ينساب إلى أعماق الفتاة الشقراء ذات العينين الواسعتين والصفيرة المدلاة من وراء كتفها .

إنها تبدو صغيرة جداً فى صورتها تلك .

لماذا لم ترسل له صورة حديثة ليعرف كيف تبدو ؟ ولكن ما له بها !

لماذا يفكر فيها كل هذا التفكير .

لتبد كما تبدو !!

يجب أن يكف عن منحها مثل هذا الاهتمام ، وألا ينزلق معها إلى « عبطها » .. إنه لا يستطيع أن يكتب إليها بالطريقة التى كتبت بها .. إنه سيكون مضحكا جداً .. لو حاول أن يبادلها بدعوة .

ماذا يمكن أن يقول لها ؟ وإلى أى مكان يدعوها ؟
هل يستطيع أن يدعوها بنفس البساطة التى دعت به ؟
يدعوها مثلاً إلى « ماتش » سكواش .. ثم إلى الغداء فى النادى كما ينوى أن
يفعل الآن ؟
هل يستطيع أن يقول لها .. لا تقلقى .. سأمر عليك بعد دقائق لأصطحبك
معى إلى النادى .. ولا تتناولى الغداء فستناولوه معاً بعد الماتش .
لا .. لا .. لن ننتظر .. دعى « منى » تتناوله وحدها .
لنشتم وتنفلق .. إنى أعرف كيف أريها ، عندما أراها .
وكان مدحت قد هبط إلى فناء المستشفى واتخذ مجلسه أمام عجلة قيادة
السيارة وذهنه قد شرد فى دعوته الوهمية . وما يمكن أن يقول فيها .
هل يستطيع أن يصف لها الطريق ؟
لِمَ لا ؟
إنه حقاً .. لا يبدو رائعاً .. كالطريق الجبلى المنحدر . ولكن له خصائصه ،
ومعالمه .
لِمَ إذاً لا يصفه لها .. بنفس الدقة التى وصفت بها طريقها ؟ لِمَ لا يعبر بها بوابة
المستشفى وينحدر بها يساراً عند عسكرى المرور ؟
إن الجو ليس بارداً جداً .. لا يمكن بالطبع أن يصل للدرجة التى وصفت بها
قمم الألب ، ولكنه مع ذلك بارد ، وكتل الغيوم السود تتزاحم لتقطع الطريق
على أشعة الشمس .
هل تذكرين معالم الطريق .. أم أذكرك به ؟
هذا ضريح « أحمد ماهر » بقبته الضخمة المرتفعة ، والبناء العالى وراءه هو دار
الشفاء ، وحول الضريح ينبسط المنتزه الصغير ذو الرقعة النجيلية الخضراء ،
ازدحم بها أطفال ونساء العباسية .. واختلط النجيل الأخضر من حولهم بقشر
« اليوسف أفندى » و « مصاصة القصب » .

أتجبن عصير القصب ؟!
إني أحبه جداً .. وخصوصاً في الشتاء .
سأتوقف بك عند أول بائع عصير . كوبتين من فضلك . ما رأيك في لونه
الكهرماني ، وفي الرغاوى البيض التي تعلوه .. كأنها « الشمبانيا » ؟
لا تجبن الشامبانيا ؟! ولا أنا .. لا .. لا .. ولا أحب أى شيء به كحول ..
أحب البرتقال والمنجة . والقصب ؛ والطماطم أحياناً .
أترين بائع « البطاطا » الذي يقف بعربته على الرصيف المقابل .. جلس على
ذراع عربته والتف بالمعطف الكاكي ولف رأسه « بالتلفيعة » .. أترين الدخان
المتصاعد من مدخنة الفرن ؟!
ما رأيك ؟
أتجبن منظره ؟. حقاً ؟!
وتجبن « البطاطا » أيضاً ؟
ولكن ليس هذا وقتها يا ناذية لا داعي لأن تتخمي نفسك « بالبطاطا » قبل
اللعب ، وقبل الغداء .
سأبتاع لك منها وقتاً آخر .. أى وقت .. لا داعي للهفة الآن .. لا بد أن
نسرع إلى النادي .. حتى لا نجد الملاعب قد ازدحمت .
ما رأيك في ميدان العباسية ؟! لقد تغير كثيراً .
هل مررت بالنفق ؟!
إنه في نظري خير ما قامت به الثورة .. لي شخصياً .. لقد وفر على ثلاثة
أرباع وقتي وثلاثة أرباع أعصابي .
هل تصدقن أني ما مررت بالزلقان .. إلا وجدته مغلقاً !!
لقد ضربت خفير الزلقان ذات مرة
كنت على وشك أن أعبر الزلقان بالعربة عندما رن جرس الزلقان مندرأً
بمجيء القطار .

— ٣٦٨ —

ولم يكن هناك أثر للقطار .. وكنت واثقا أنه لن يمر بالمزلقان قبل بضع دقائق ، فضربت « الكلاكس » للخفير علّه « يستذوق » ويتمهل في إغلاق المزلقان حتى أمر ، ولكن الخفير نظر إلّى باحتقار واستمر في سحب المزلقان .
وصحت به أرجو :

— وحياة أبوك .. ثانية واحدة حتى أمر .

ونظر إلّى الخفير ، ثم أشاح يده بمنتهى الاحتقار قائلا :

— يعني وراك إيه !! مجلس الثورة يا خي ؟!

ولم أطق صبراً ، وهبطت من العربة وأنا أغلى . ورفعت يدي وصفعته قلماً رن في جميع أرجاء المزلقان . وقلت له نائراً :

— ورايا .. أرواح الناس .. ورايا عملية .

ونظر إلّى الرجل ، ولم ينبس ببنت شفة ، ووجدت عينيه تدمعان .. وبعد لحظة صمت قال لي :

— ما انا يا بني كمان ورايا أرواح ناس .. لو تركتك تمر .. لأضعتك وأضعت الأرواح التي تتعجل المرور من أجلها .

وهز رأسه وتتم في أسف :

— الله يسامحك .

وأحسست أن الرجل ردّ لي اللطمة مضاعفة ، وتملكني ندم شديد على ثورقي وتسرعني ، ولم أعرف كيف أكفر عن ذنبي ، ومددت يدي في جيبي فأخرجت خمسين قرشاً .. دسستها في يد الرجل وأنا أقول :

— متأسف يا حاج .. متأسف جداً .

وانفجرت أسارير الرجل وقال وهو يتسم :

— كتر خيرك يا بني .. أنا خايف على أرواحكم .

وفي كل مرة كنت أمر بالمزلقان .. كنت أفقد ثلاثة أرباع وقتي .. أو ثلاثة أرباع أعصابي .. أو الاثنين معاً .

هل علمت سر إعجابى بنفق العباسية ؟!

هل أنا ثرثار ؟

الثروة ليست طبيعتى ، ولكنى أجد فى نفسى ميلا إلى الثروة معك .

هل ترين جامعة « عين شمس » لقد كانت قصر « الزعفران » فيما مضى .

ماذا ؟! تعرفين كل هذا ؟

ظننتك لا تعرفين .

لا .. لا .. العفو .. لم أظنك سائحة أبداً ، إنما هى مجرد ثروة كما قلت .

وهذا بناء الأرصاد الجوية .. لقد قال إن الشمس اليوم مشرقة .. ويبدو أن

بينه وبين الشمس ثارا .. لأنها ترفض الشروق منذ علمت أن الأرصاد قد أرغمتها

فى نشرتها على الشروق .

يبدو لى أن الأرصاد عندنا كقراءة الفنجان تتحدث عن الماضى .. أما

المستقبل فهو فى علم الله .

على يمينك وشمالك .. كلها أبنية عسكرية .

أظن هذا هو سلاح الفرسان .. أما بقية الأبنية فلا أعرف عنها شيئا .. اللهم

إلا المستشفى العسكرى .

فى هذا الشارع المتجه إلى المطار .. يوجد بيت الرئيس « جمال عبد

الناصر » .

لا شك أنك تعرفين كل هذه المنطقة .. وتعرفين أيضاً الطريق إلى النادى .

ها قد وصلنا .

ما رأيك فى النادى ؟!

هل أصفه لك .. أم أنك تعرفينه خيراً منى ؟!

هيا بنا إلى الملاعب .

وكان « مدحت » قد وصل إلى الملاعب فعلا ، ووقف أمام منضدة الحجز

وعندما سأله « بكر » :

— ٣٧٠ —

— ستلعب مع من ؟

كاد يقول له :

— مع نادبة .

من فرط ما شرد ذهنه طوال الطريق في دعوته الموهومة .. ولكنه تدارك نفسه

قائلا :

— معك .. هل أنت فاضى ؟

— فاضى يا دكتور .

وأبدل « مدخت » ملابسه .. واتجه إلى ملعب رقم واحد حيث وقف

المدرّب في انتظاره ، وضمته جدران الملعب .. وهو مستمر في تصوّراته ، يردد

في نفسه :

ماذا يمكن أن يقول في دعوته لها للعب والغداء ؟

واتضح له أن هناك أشياء كثيرة .. يستطيع أن يقولها ، واتضح له أيضاً أنه

لعب هذه المرة بطريقة أمتع .. وأنه ضحك كثيراً مع « بكر » .. وأنه لم يدخل

الملعب بالكثيرة إياها ، ولم يقض المباراة في صمت ولم يغادر الملعب في تجهّم .

وانتهى من المباراة ، وهو يتصبّ عرقاً فأسرع إلى الحمام ووقف تحت « الدش

الساخن » يدلك جسده بيديه وهو يحس نشاطاً وسعادة .

يجب أن ينتهى بسرعة حتى لا يتركها تنتظر .. سيأخذها بعد الحمام .. إلى

الشرقة الزجاجية .

كان يجب أن يوصى « الرئيس » بإعداد طعام فاخر شهى .

حقيقة إن معدته لم تعد تحمل الطعام الشهى الدسم . فهي تكاد تهضم قطعة

من اللحم المشوى مع الخضار المسلوق .

ولكنه اليوم يحس بشبهة مفتوحة ، وهو يستطيع أن يهضم الزلط .. بدون

رنى ، وبدون سترات .

أجل .. أجل .. يجب أن يتناسى معدته الثالفة ويأمر « الرئيس » بأن يعد له

— ٣٧١ —

سمكة « بالمليونيز » ومكرونة بالفرن .. و « جنبرى » و « طبق فته » بالكوارع
والخل والثوم ، ويعدله طبق « كريم كرامل » .
هل تحمين الكريم كرامل ؟!
أنا أحبها جداً .

وأحب أيضاً الكميك قطايف بالقشدة ، رغم ما تفعله بمعدي .
هل تصدقين أنى أكلت أنا وجادالله ذات مرة بستين قرشاً كميك قطايف ؟
كنا نسير فى شارع قصر النيل .. ومررنا بالحلوانى عطبة .. قرب شارع
شريف .. هل تعرفينه ؟

واقترح على « جاد الله » أن أعزمه على « كميك قطايف » ولم أتردد .
ودخلنا المحل ، وطلب كل منا طلباً .. ونظر جادالله إلى طلبه وصاح بالبائع :
— القشدة مالها قليلة ؟

وانحنى البائع فى أدب وتساءل بابتسامة رقيقة :
— قشدة المحل كلها تحت أمرك يا سعادة البيه .. أتريد مزيداً من القشدة ؟!
— طبعاً .

وأخرج الرجل طبقاً من القشدة ووضع لى قطعة وجادالله قطعة .
والتهم « جادالله » القشدة .
فعاد الرجل يتساءل بأدب :
— كان يا سعادة البيه ؟
وأجاب جادالله وهو يتلمظ :
— كان .

وظل الرجل يضع القشدة ويتساءل : كان ؟ .. وجادالله يلتهم ويقول :
كان .

وكلنا يعتقد .. أن القشدة ملحقة بالكميك قطايف .. وأنها جزء من الطلب
الذى تناولناه ، والذى لا يزيد ثمنه بأى حال عن خمسة قروش .

— ٣٧٢ —

وأخيراً غسلنا أيدينا ، وتناول كل منا كوباً من الماء المثلج ، وختم الرجل المهذب حوارته بيتنا بالدعاء لنا « بالهناء والشفاء » . ثم قدّم لنا .. تذكرة الحساب بستين قرشاً .

ومن يومها .. وأنا أصغر عندما أصبح جاداً لله معي ، أن أعرف بالضبط ثمن ما سيأكله قبل أن يفعل .

وبدا « مدحت » يتناول طعامه .

طعام النادي العادي ، وحيداً في الشرفة .

ونظر من النافذة الزجاجية إلى النافورة ، وإلى شجرة الكافور ، وسرعان ما حل أمامه منظر آخر .. جبال تمتد في الأفق .. ذات سفوح خضراء وقمم بيضاء ، وأسقف الدور الحمر المنحدرات ذوات المداخل .

و .. وماذا أيضاً ؟

ماذا .. بعد كل هذه البلاء والعبط ؟

منذ أن غادر المستشفى وهو يفكر في الرسالة البلاء ، وفي صاحبها الطفلة الشقراء .. ذات الضفيرة .

أهناك جنون أكثر من هذا ؟

ماذا ينوي ؟ وفيّ يفكر ؟

إنه يفكر في أن يكتب إليها ، ويرد على دعوتها الوهمية . بدعوة مماثلة . بل لقد تصور ماذا يمكن أن تكون عليه الدعوة . بكل تفاصيلها وحذافيرها ! بل لقد دعاها فعلاً .

إنه حتى الآن .. لم يفعل شيئاً بمفرده ، لقد صاحبها في كل ما فعل في الطريق . وفي ملعب الاسكواش .

وفي الغداء .

وأكثر من هذا .. قص عليها حوادثه ونوادره .

صنع خفير الزلقان قلماً ، وكيف أكل « كميك قطايف » هو وزميله

« الحيوان » بستين قرشاً .

أهذه أخبار تروى ، وحوادث تقص ؟

ماذا تقول عنه ، وهو يحكى لها كيف صفع خفير المزلقان قلماً ؟

متوحش .. أم همجى ؟

ثم ، يخبرها بعد ذلك أنه أكل بستين قرشاً « كميك قطايف » .

يعنى .. حيوان نهم .

لماذا لا يبحث عن شئ آخر فى ذهنه يمكن التفاخر به .. غير الخفير ، والتهام

القشدة !

يحدثها مثلاً عن عملية .. المعدة ، التى قطع ثلاثة أرباعها ؟ أهذا كلام ؟

إن الصبية ، سيغنى عليها قبل أن تكمل الرسالة .

أليس عنده أخبار .. ألطف من هذا ؟!

ماذا ؟! أيخبرها عن نواتره مع الممرضات ؟!

لقد ضرب إحدى الممرضات بالأمس .. علقه ساخنة . عندما وجدها

تسرق نصف اللبن ، وتخلط النصف الآخر بالماء ، ولما سأها أجابت عليه

بيجاجة ، أنها قصدت أن تخففه ، لكى يسهل على المرضى هضمه

لا .. لا .. هذه فضائح لا ينبغي أن تروى ، ثم إنها تنتهى بأنه ضرب الممرضة

علقة ، وهذا يؤكد وحشيته .

يجب أن يبحث عن شئ آخر .

ولكن لماذا يبحث .. إنه لن يكتب إليها شيئاً مما فكر فيه من سخافات .

سيكتب إليها رسالة مختصرة .. يشكرها على دعوتها . ويرجو لها الصحة ،

ويعتني لها أطيب التمنيات ، ويرجوها أن تبلغ سلامه إلى « منى » .

هذا أقصى ما يمكن أن يكتبه

أجل .. أجل

لن ينزلق .. إلى مثل هذا النزق ، والطيش .. عليه أن يكون متزناً .

ولن يرسل إليها صورة أخرى .
تكفيها جداً .. الصورة التي أرسلها إليها .
ليس لديه خير منها ، إنه ليس ممثل سينا .. حتى يجلس أمام المصور .. يلوى عنقه ويرفع وجهه ، ويفرج شفثيه ، في ضحكة سخيفة بلهاء .
وغادر مدحت النادي ، وقد أقنع نفسه بكل ما قال . وفي طريقه إلى المستشفى قبيل الغروب .. لم يتجه إلى المستشفى رأساً بل استمر في طريقة إلى المحطة .. ثم إلى ميدان مصطفى كامل .
وأوقف العربى . ثم هبط إلى الميدان ثم سار متلکماً ، كأنه لا يرغب قصداً معيناً .. حتى وقف أمام باب علق على يمينه بعض صور فوتوغرافية وكتب فوقها .. « أرمان » .
ونظر إلى الصور نظرة فاحصة .
ثم انثنى راجعاً إلى العربى ، وهو ينهر نفسه :
كفى سخافة .
وقبل أن يصل إلى العربى كان قد عاد إلى الباب مرة أخرى : سخافة .. له ؟
هل التصوير سخافة ؟
إنه سيصوّر .. لأنه لا بد له من ذلك .. لقد طلب النادي منه ثلاث صور .
فلم يجد غير هذه الصورة السخيفة التى تشبه الصور المعلقة فى قسم عابدين .
هل التصوير عيب ؟ أم حرام !
إنه لن يصوّر من أجلها !
أجل .. أجل .. لن يفكر أبداً فى أن يرسل إليها صورة .. إنه لم يبلغ من الحمق حد أن يصوّر من أجلها . كما طلب منه المغفل « جاد الله »
سيصوّر من أجل نفسه .
إن أمه ، وأقرباءه ، يريدون أن يحتفظوا بصورة له .. و « ميرفت » أيضاً قد طلبت منه صورة .

دلف « مدحت » من الباب ، وقفز درجات السلم .
وبعد برهة . كان قد جلس أمام « الكاميرا » ، وقد أدار عنقه ورفع رأسه .
وفتح فمه راسماً على شفتيه تلك الابتسامة البلهاء .. التى أصر عليها المسيو
« أرمان » ، والتى يصير عليها كل مصوّر غيره .
وبعد بضعة أيام .. كانت الصورة .. تتخذ طريقها بالطائرة إلى « جاب »
داخل ظرف حوى رسالة طويلة .. كتبها « مدحت » فى ليلة .. خالية ساكنة .
وجلست نادية .. تمسك بالرسالة ، وتحنس صلابة الصورة ، وتزن ثقل
الأوراق التى بها .

وأحست بسعادة شديدة .. وهى تغلق باب مكتبها بالمدرسة ، ثم تلتفت
حولها فى حذر خشية أن يكون هناك من يرقبها .. ثم رفعت الرسالة ، ومسحتها
بشفتيها فى تبتل وعبادة ، كما تمس شفتا العابد أضرحة الرسل والأنبياء .
وفتحت الظرف ، وأخرجت الصورة بأصابع مرتجفة .. من فرط الفرحه .
ونظرت إلى الصورة ، وأجابت على ابتسامتها بابتسامة عريضة .
ومرة أخرى عادت تلتفت فى حذر وخشية .
ثم رفعت الصورة إلى شفتيها .. وقلبها يدق فى عتف ، ومضت فترة وهى
تأمل الصورة ، ثم تشرذ بيصرها من النافذة .
وبعد أن تماثلت نفسها .. أخرجت الرسالة ، وبدأت فى القراءة ،
وانهمكت فى القراءة .

والابتسامة تعلو شفتيها .
ابتسامة .. لا تلبث حتى تنقلب إلى قهقهة
لشد ما أحبت دعوته إلى الاسكواش ، وإلى الغداء .. ولشد ما أحبت وصفه
للطريق .

ولشد ما استمتعت .. بكوب العصير الذى سقاها إياه .. إنها تحس
« برغاويه » على شفتيها .

— ٣٧٦ —

والبطاطا ! لماذا لم يشتري لها « بطاطا »
في المرة القادمة ستصير على أن يشتري لها . إنها تحبها جداً ، ويمكن أن تؤجل
تناولها إلى ما بعد اللعب ..
بل كان يمكن أن تأكلها قبل اللعب .
إنها على أية حال لن تفعل بها ما فعله به « الكميك قطايف » الذي أكله بستين
قرشاً .

مرة أخرى .. وجدت نفسها تقهقه .
ولكنها قطعت القهقهة عندما أحست بالباب يفتح . وسمعت صوت مدام
« كلود » يقول لها في رقة :
— ألا تنوين الرحيل يا نادية !! لقد مضى على وقت الرحيل نصف ساعة .
ودهشت « نادية » .. فقد سرقها الوقت ، وهى منهمكة في الصورة
والرسالة .

لقد قرأت الرسالة .. أكثر من خمس مرات .
وعندما هبطت إلى الفناء ، وجدت « منى » تهم بالصعود إليها قائلة :
— ماذا أخرك إلى الآن ؟
وأجابت نادية في عجلة :
— شغل .. كان عندى شغل كثير .
وضحكت « منى » قائلة :
— يا كذابة .. إن فى وجهك .. أنباء مثيرة لطيفة .. قولى الحق .. شغل ..
أم رسالة حلوة ؟!

وأخرجت « نادية » الرسالة من جيبها قائلة ، وهى تضحك :
— رسالة حلوة جداً .. جداً
واختطففت « منى » الرسالة ، ثم أخرجت الصورة ونظرت إليها قائلة في
دهشة :

— ٣٧٧ —

— ما شاء الله .. أخيراً ، بدا كالبنى آدم .

— وماذا كان يبدو من قبل ؟!

— كالثيران التى تتأهب للمصارع .

— مجرمة .

وعادت « منى » تتأمل الصورة ضاحكة ، وهى تقول :

— وما له يتسم هكذا !. مبسوط !!

ثم فتحت الرسالة ، وهالتها الصفحات المزدهجة بالسطور . فتساءلت فى دهشة :

— كل ذا كلام ؟! لقد « تدرّج » جداً .. ماذا يقول لك ؟

وألقت على الصفحة الأولى نظرة عابرة .. فاصطدمت عيناها بكلمة « البطاطا » فصاحت فى دهشة :

— « بطاطا » .. يخرب بيته .. أصبح أن يذكر سيرة البطاطا ، فى رسالة غرام ؟!

وخطفت « نادية » الرسالة من يدها قائلة فى نهر :

— من قال إنها رسالة غرام ؟!

— أمال رسالة إيه ؟! رسالة ، فى « شوى البطاطا » ؟!

وهزت « منى » رأسها مستمرة فى سخريتها الضاحكة وقالت :

— الله يكون فى عونك .. واحد يتحدثك عن الدستور .. والثانى عن

البطاطا .. من صبرى لمدحت يا قلبى لا تحزن

وقالت نادية غاضبة :

— الحق على أنا التى أريتكم الرسالة .. آخر مرة أطلعك على شىء .

ومدّت « منى » يدها فلفتها حول كتفى نادية وضمتها إليها قائلة :

— أغضبت ؟! إني أضحكك يا عبيطة .. هاى الجواب .

وأخذت الرسالة وقبلتها قائلة :

— ٣٧٨ —

— أموت في البطاطا ، وبياعين البطاطا !
ثم وضعت كفيها على خدها مثل بائع البطاطة ، وهو يهتف :
— معسله قوى يا بطاطا .
وصاحت بها نادبة :
— كفى عن هذا .. ماذا يقول الناس عنك في الطريق .
— الذين سيفهمون العربى .. سيعرفون أنى أناذى على البطاطا ، والذين لا
يعرفون .. سيظنوننى أغنى .
وألقت « منى » نظرة على نهاية الرسالة فإذا بها ملحوظة يقول فيها مدحت :
« أرسل إليك صورة أخرى لى ، كما طلبت .
« ولا شك أنه يسعدنى .. أن أتلقى منك .. صورة أخرى » .
وهزت « منى » رأسها ، وهى تقول :
— مشكلة .. هل لديك صورة أخرى ؟!
— لددى « ألبوم » صورنا القديم .. أستطيع أن أرسل إليه ما شاء من الصور .
ونظرت « منى » إلى وجه « نادبة » ، وإلى الإشارب المحيط به ، وتملكها
إحساس بالعطف عليها والقلق من أجلها ،
ولكنها أخفت مشاعرها بضحكة مرحة وجملة مازحة هاذرة

(٣١)

لن يراها ..

استمرت الرسائل بين « نادية » و « مدحت » .. تحمل دعوتها الوهمية ..
 وصورهما المتبادلة ، وحاول « مدحت » في أول الأمر أن يوهم نفسه ، أنه يياثر
 عملية .. إحسان ، وشفقة .. دفعته فيها الظروف
 ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه قط من شعور المتعة الذى يغمره كلما تسلم
 رسالة من « جاب » .. أو كلما جلس ليكتب إليها رسالة .
 وكانت العملية — عملية تبادل الرسائل — من أنسب عمليات المتع الحسية
 لطبيعة مدحت .. فهو مخلوق رقيق فى باطنه .. وإن كان يكسو رفته بمظهر
 عبوس متجهم يحاول أن يكتسب به هبة فى عمله ، واحتراماً من حوله .
 كان مظهره الجاد يقف حائلاً أمام مشاعره الرقيقة .. وكان يكره أن يبدو محباً
 ودوداً .. إلا فى ضيق الدوائر المحيطة به ، والتى لا تتعدى .. صاحبه « جاد الله » .
 ومنحته الرسائل .: دائرة أضيق .. ينفس فيها عن طبيعته المرفهة المحبة ..
 دائرة لا يكاد يكشفها فيها أحد .. سوى نفسه .. ومخلوقة مجهولة .. شبه
 وهمية .. تسكن فى أعالي جبال الألب .. كأنها إحدى أميرات الأساطير .
 ومع ذلك فقد كان يصيبه أحياناً نوع من الحذر فى كتابته ، عندما ما يتذكر
 نفسه ، ومظهره .. وجده .. ويتذكر العملية العجيبة التى ينغمر فيها ، والكائنة
 — غير الكائنة — التى يصادقها ويمزح معها ، ويدعوها لمرافقته .. فى ثلاث
 أرباع نزهاته ، والتى يطلبها ببساطة على خبايا نفسه .
 لقد استطاعت « نادية » .. أن تكتسب ثقة المخلوق الحذر المنطوى .. بصدق
 مشاعرها ، وإخلاص دعوتها .. وبساطة حديثها ، وأكثر من هذا .. بمقرها

النأى ، وعواقبها المأمونة ، وخطرهما البعيد غير المحتمل .
وبمر الأيام .. أصبحت رسائلها .. شيئاً حيوياً ، فى حياة « مدحت » ،
واحتلت قراءتها .. والرد عليها .. مكاناً من وقته .. يتساوى فى الأهمية .. مع
عملياته ، ومحاضراته ، وبقية الأعمال الرئيسية التى تتركب منها حياته .
ورغم محاولاته المتعالية المترفعة فى صد مشاعر الحب من التسرب إلى تفكيره
وبالتالى إلى كتابته ، ورغم تأكيده لنفسه ، المرة .. تلو المرة .. أن العملية كلها
لا تعدو .. عطفاً على غريبة نائية .. لا يحس لها بأكثر من إحساس الأخت
الصغرى .

ورغم كل هذا .. لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يؤكد لها ذات مرة ، وكأنه لا
يقصد شيئاً .. أن « ميرفت » ليست خطيبته ، وأنه لم يكن بينهما أكثر من
صدقة عابرة .

ولم يستطع كذلك أن يمنع إصراره على وقف تلك العلاقة المعلقة بينه وبين
« ميرفت » ، وعائلتها ، وأن يفهم جاد الله .. باختصار .. أنه لا يفكر فى الزواج أبداً
وأنه فى غنى عن خدمات أبيها سواء أكان عميداً للكلية .. أم مديراً للجامعة ، أو
حتى رئيساً للوزراء .

وأكثر من هذا .. لم يستطع أبداً ، أن يمنع نفسه من التفكير فيها ككائن
حقيقى .. موجود .. لا يمنع بعد مقرأها من احتمال لقائها .

ولم يستطع أيضاً .. أن يمنع لهفته على صورها ، وضيقة عندما يحس من خفة
الظرف .. خلوه منها .

وأخيراً لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يكتب إليها .. فى نهاية إحدى رسائله ..
بعد أن انتهى من دعوته لها إلى جزيرة الشاى بحديقة الحيوانات :

« نادية .. أرسل لك مع رسالتى هذه صورة التقطتها لى — وكنت أود أن
أقول لنا — ولكن الظاهر .. أن الكاميرا لاتتسع عدستها .. لتصوراتنا ،
ورغباتنا — التقطتها لى مصوّر من مصورى الطريق .. أتعرفينهم ؟ هؤلاء الذين

يلتقطون لك الصورة ثم يقذفون لك بالتذكرة .. ويفرون هارين
« لقد التقطها لى وأنا أجلس فى الجزيرة .. فى نفس المكان الذى دعوتك
إليه ، والذى تناولنا الغداء فيه .

« ما رأيك فى الأشجار المحيطة بنا ؟ وفى البط السابح فى البحيرة !!

« ترى .. البحيرة .. هنا .. تشبه بحيرتكم ؟!

« لماذا لا ترسلين إلى صورة لك ، وأنت فى إحدى نزهاتك .. أعنى فى
إحدى نزهاتنا ، على الأقل ، حتى آخذ فكرة عن هذه الأماكن التى تصحييننى
فيها .

« ترى .. « جاب » قد خلت من المصورين الخطافين ؟!

« وإذا كانت قد خلت .. أليس عندكم مصوّر . فى محل .. يستطيع أن يلتقط

لك صورة حديثة !

« ألم تلاحظى أن كل صورك التى أرسلتها لى . قد مضى على أحدث صورة
منها مالا يقل عن ست سنوات !

« هل من ذلك .. أن « موضة » التصوير قد بطلت ؟

« أم أن التصوير قد أضحى .. مسألة .. عيب ؟

« أم أفهم أن بلدكم قد خلا من المصورين !

« أم مفروض على .. ألا أعرفك .. وألا أعرف شيئاً عن ملاحك بعد الثانية
عشرة ، وأنت قد أخفيت نفسك بعد هذه السن تحت « التزيرة » وخلف
« البرقع » .. فلم يعد يرى لك وجه أو تبصر لك صورة !
« أيتها . المتمنعة المحجبة .

« أيها الشبح المختفى .. منذ الثانية عشرة .. اظهر وبان عليك الأمان »

اختشنى ، وأرسلى صورة حديثة ، لأعرف على الأقل كيف تبدين الآن .

« وحتى أحس وأنا أخطبك فى دعوائى أنى لأمسك فى يدى صبية صغيرة

ليست فقط لم تعد الثانية عشرة .. بل تأتى أن تتخذاها .

« إني في انتظار الصورة .

« صورة .. بلا ضفائر ، ولا « فيونكات » .

« صورة .. أستطيع أن أدعو صاحبها .. إلى الأوبرا ، دون أن أخشى من نومها وسط السهرة ، ودون أن أعود بها محمولة على يدي .. أو على كتفي » .
وهكذا لم يستطع « مدحت » .. رغم ما به من تودة ، واتزان ، وعقل .. أن يمنع لهفته .. على أن يعرفها كما يجب أن تعرف ، وأن يقربها إلى ذهنه كواقع .. كشيء يعرف سماته وملامحه كما هو كائن .. لا كما يتوهم أن يكون .
ووصلت الرسالة إلى « نادية » .

حملتها إليها « منى » في يوم من أيام أبريل ، وقد استلقت « نادية » في فراشها تستريح من وعكة برد أصابتها ، ومنعتها من الذهاب إلى المدرسة .
وكان الربيع قد بدت طلائعه والثلوج قد أخذت في الذوبان وانحدرت مياهها من أعالي الجبال .. متدفقة في أخاديد السفوح .. وبراعم الأوراق الخضراء قد كست الأغصان التي عراها الشتاء ، وزهور أشجار الفاكهة قد كللت فروعها بألوانها البديعة ، و « نادية » تجلس على فراشها ، وقد أطلقت بصرها متنقلا بين قمم الجبال في أقصى الأفق والسحب المتابعة على قرص الشمس تحجبه تارة وتخفيه تارة .. وهي تنصت في لهفة إلى وقع أقدام « منى » تجتاز الممر الخارجي ، وتسمع صوتها طالبة الطعام .

ولم تطق « نادية » صبراً .. فنهضت من فراشها وأطلت من أعلى السلم صائحة :

— منى .

كان موعد الرسالة قد حل ، وكانت تعد ثمانية أيام من إرسال رسالتها ، ثم تبدأ لطفة الانتظار ، وقد حاولت اليوم الذهاب إلى المدرسة للتبكير في تسليم الرسالة المنتظرة ، ولكن أمها أصرت على منعها ، ولم تستطع « نادية » الإصرار على الذهاب .. لا سيما ، وهي تعلم أن حرارتها ما زالت مرتفعة ، وجسدها ما زال

مجهداً .

ورفعت إليها « منى » وجهها من أسفل السلم ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامتها
المرحة وتساءلت فى سخرية :

— مالك مسروعة هكذا ؟

— أريد أن أسألك .

— عن ماذا ؟ .

— عن المدرسة .

— مدام كلود تهديك أزكى السلام .

— أهذا كل ما فى الأمر ؟

— وجاى تسأل عن صحتك .

— ويتر . ؟

— يسأل أيضاً عن صحتك .

— فقط . ؟

— وعن صحة جدتى .

وبدا الضيق على « نادية » وتساءلت فى صوت حزين :

— ألم .. ألم .. يرسل لك شيئاً ؟

وهزت « منى » رأسها فى استخفاف متسائلة :

— شىء .. ؟ شىء مثل ماذا ؟

وهتفت بها « نادية » فى غيظ :

— اسمعى .. كفى استعباطاً .. لماذا لا تصعدين إلى .. بدل هذا الصراخ من

أسفل السلم !

وضحكت « منى » قائلة :

— لا تشخطى هكذا .

ثم قفزت السلم صاعدة ، وهى تقول :

— ٣٨٤ —

— لو صبرت لحظة لصعدت إليك .
 ولم تكذبصل إلى آخر السلم حتى مدت يدها في جيبيها وأخرجت الرسالة ،
 وهي تقول ضاحكة :
 — هاتني شلن أولا .
 واختطفقت « نادية » منها الرسالة ، وهي تقول مؤنبة « منى » وقد غمرتها
 الفرحة :
 — يا كلبة .
 — ومالك فرحة هكذا !! كأنك قد سلمت ألف جنيه . ترى أين دعاك هذه
 المرة ؟..
 ولم تجب نادية فقد انطلقت عائدة إلى حجرتها .. لتنفرد بالرسالة ، وهبطت
 « منى » لتناول طعامها .
 وبعد برهة عادت إليها .. لتجدها قابعة في الفراش والرسالة ملقاة في
 حجرها ، وقد بدا عليها شroud حزين .
 وهزت « منى » رأسها متسائلة ، وهي تقضم تفاحة في يدها :
 — ماذا حدث !! كفى الله الشر ؟!
 ولم تجب « نادية » ، ومدت « منى » يدها لتناول الرسالة ، وهي تردف قائلة :
 — لعل الدعوة هذه المرة ليست على ما يرام .. أين ذهبتما ؟ إلى الأراجوز ..؟
 لا بأس يا نادية .. نحن في آخر الشهر ، وموسم العمليات قد كسد .. و..
 ورفعت « نادية » رأسها وقاطعتها قائلة :
 — اسمعى يا « منى » .. إن مدحت يريد منى صورة حديثة
 — صورة حديثة ؟!
 — أجل .. لقد لاحظ أن كل صوري قديمة ، وتساءل : لماذا أصر على إخفاء
 وجهي بعد الثانية عشرة ؟
 وبدأت الدهشة على وجه « منى » وتساءلت :

— ٣٨٥ —

- إخفاء وجهك .. هل .. تظنين ...
- لا .. لا .. إنه فقط يتساءل .. وهو يريد صورة بلا ضفائر ، ولا فيونكات .»
- وضحكت « منى » قائلة :
- معه حق .
- وأطرقت « نادية » وتساءلت في صوت خفيض يائس :
- وما العمل ؟
- ورفعت « منى » كنفها ببساطة :
- ولا شيء ! أهى معضلة ! تصوّرين .
- وتساءلت « نادية » في فزع :
- كيف .. ؟
- وردت « منى » بنفس البساطة التي تتحدث بها :
- تذهبين معى غداً .. إلى المصوّر على الناصية أمام « الكوافير » .. ثم تسألينه أن يصوّر .. وتقعدين أمام الكاميرا ، وتتركين الباقي عليه .
- وصمتت « نادية » ، وقد بدا عليها الوجوم واليأس .. ثم مدت يدها لتحسس الإشارب الذى لا يفارق رأسها وعنقها وتمتت كأنها تتحدث نفسها :
- كيف أقف أمام المصوّر ؟
- كما تقفين أمامى .. وأمام أى مخلوق آخر .
- وأظهر فى الصورة بالإشارب ؟
- ولم لا ؟ إننا هنا فى عز البرد .
- ثم صمتت برهة ، واستدركت قائلة :
- وإذا لم تعجبك الصورة بالإشارب ، فاخلعيه .
- وأبدو فى الصورة كما أنا ؟!
- لن يظهر شيء فى الصورة ، وإذا ظهر .. فستضيئه الرتوش .

— ٣٨٦ —

— وكيف أقف أمام المصوّر .. بشكلى هذا ؟!

— وماذا يهمك من المصوّر .. إنه لن يخطبك .

وارتسمت على وجهه « نادية » أمارات حزن عميق وقالت لمنى عاتبة :

— هل تظنين أننى أستطيع حقاً أن أخدعه بالرتوش الذى يصنعه المصوّر ؟!

— إنك لا تخدعينه يا حبيبتى .. إن هذا عمل المصور .. إن الندبة التى فى جبينى .. لا يتركها المصورون تظهر فى الصورة أبداً .. فهل تظنين هذه خدعة ؟!

— هل ندبة جبينك .. مثل حرق وجهى ؟!

— إذن تصوّرين بالإيشارب .. لن يكون به ما يدعو للعجب أبداً .. إنه إيشارب وليس « ملاءة لف » .

وهزت « نادية » رأسها فى استسلام ، وضمتها « منى » إليها وهى تقول ضاحكة :

— وسأذهب معك لكى أصوّر أنا أيضاً .. إن عصام ما زال يصير على صورة حديثة يضعها فى حافظته .

وقبل أن تغادر « منى » الغرفة عادت تقول لها مؤكدة :

— اتفقنا ؟ .. سنذهب للتصوير غداً !

وهزت « نادية » رأسها موافقة .

وفى اليوم الثانى .. كانت التوءمتان تطرقان باب المصوّر ، ونظر الرجل إليهما من وراء منظاره وتساءل ضاحكا :

— توءمتان ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

— من أدراك ؟!

— الشبه .

وتسألت « منى » وهى تنظر إلى وجهها فى المرآة المقابلة وتبتسم فى مرح :

— أهى جميلة مثلى ؟

وضحك الرجل قائلاً :

— لو نزعْتَ عنها الإِيشَارِب ، وسرحت شعرها نفس التسريحة .. أعتقد أنه يكفينى أن أصوِّر إحداكنا ، وأُخرج من صورتها عدداً كافياً لكليتيكما وقالت « نادية » مازحة وقد بدد لطف الرجل ما تملكها من رهبة — إذن تصوّرين أنت نيابة عني .

وقال الرجل :

— بل تصوّرين أنت نيابة عنها . إن وجهك أكثر طيبة .

وصاحت « منى » ضاحكة :

— هل يعنى هذا أننى شريرة ؟!

وأجاب الرجل :

— حاشا لله .. إنها أكثر طيبة ، وأنت أكثر لطفاً

وقالت نادية :

— وأنت أكثر رقة وأدباً .

ودفعتهما « منى » أمامها وهى تقول :

— هيا بنا .. فليس لدينا وقت للتقارض المديح

وأشار الرجل إلى غرفة صغيرة وهو يقول لنادية :

— تستطيعين أن تخلعى فيها الإِيشَارِب وتعيدى تصفيف شعرك .

وهزت « نادية » رأسها فى شىء من الخوف ورفعت يدها تحكّم وثاق

الإِيشَارِب على عنقها قائلة :

— لا .. لا .. سأصوّر كما أنا .

— برأسك مربوطاً هكذا ؟!

— أجل .. أجل .

— ولكنك ستكونين بدونه أجمل كثيراً .

وردت « نادية » في إصرار وضيق :

— إلى أفضل أن أكون هكذا .

وهز الرجل كتفيه قائلاً في استسلام :

— أمرك .

وانتهى المصور من تصوير التوأمين .. وبعد يومين ، كانت نادية تجلس في مكتبها بالمدرسة ، وقد انتهت من كتابة الرسالة .. ووضعتها في الظرف ، وأمسكت بصورتها .. تنظر إليها في تمهل وإمعان ، وقد بدا عليها الضيق والقلق .

ترى كيف ستبدو له الصورة !!

إنها تبدو بالإشارب .. كاللاجنات ، والمهاجرات .

لماذا أصرت على ارتداء الإشارب ؟

ولكن كيف تستطيع أن تصوّر .. بدونه ؟ .. كيف تجرؤ ؟ .

ألم تقل لها « منى » إن المصور كفيل بعمل ما يلزم من رتوش لإخفائه .. إذا

ظهر ؟ . ولكن ألا تكون تلك خديعة ؟

ألا تكون بذلك قد خدعته عن حقيقتها ، وأرسلت له وجهاً غير وجهها !

وهذه الصورة .. ألا تعتبر خديعة !

ألا تكون الخديعة .. إلا بالتغيير ، والتبديل ؟

والإخفاء .. ألا يعتبر خديعة ؟

أعتبر الصورة ذات الإشارب .. الذى أخفى ما بها من تشويه صورة حقيقية

لها !

لماذا تورطت إلى كل هذا ؟

لماذا لم تقصر العلاقة .. على مجرد الرسائل ؟ . لماذا زجت بها إلى تبادل

الصور ؟

ألم تكن هى البادئة بطلب صورته !!

ماذا كانت تتوقع غير تلك النتيجة !

إنها جرؤت على الكتابة إليه .. لإحساسها بأمن البعد ، واستحالة اللقاء ، ولثقتها بأن الجانب المادى للعلاقة .. الذى قد يضطرها إلى عرض نقطة ضعفها وهو شكلها .. لم يعد له وجود .

ومع ذلك فهي تجدد نفسها قد لفت .. لتواجه جزءاً من المشكلة التى ظنت أنها قد تجاوزتها ، وأنه لم يعد هناك من سبيل لمواجهة .

وهى مهما فعلت .. لا تستطيع أن تحلها إلا بالخداع .. بل إن ما فعلته حتى الآن يعتبر خداعاً .. بالتجنب ، واللف والدوران .. فكل ما أرسلته من صور لطفولتها كان تجنباً منها للواقع المرير .. واقع شكلها المشوه .

وهى الآن تجدد نفسها مضطرة إلى الاستمرار فى المزيد من الخداع ، بأية صورة من صوره .. وبأى شكل من أشكاله .

وإذا كان الخداع مسلماً به .. فلماذا لا تقدم عليه بصورة منصفة ؟! لماذا تضطر إلى صورة الإيثار التى تبدو فيها كاللاجئات والمهاجرات ، والخدم ؟!

لماذا لا تصوّر بدون إيثار .. وتسأل الرجل وهو كما بدا لها رقيق لطيف أن يقوم بعمل « الرتوش » اللازم .

ومدت يدها لتناول مجموعة ، وتقلبها بين أصابعها .

ووقع بصرها على إحدى صور « منى » .. بين صورها .

واستبقتها بين أصابعها تتأملها برهة .

كانت صورة جميلة .. رشيقة .. أنيقة فاتنة .. بدت بجانب وجهها وقد عقص شعرها فى صورة ذيل الحصان .. ليس بها شبه اللاجئات والمهاجرات .

أمكن حقاً أن يكون هناك شبه بين الأثنين .. وتذكرت ما قاله المصور :

« لو نزعنا عنها الإيثار ، وسرّحت شعرها نفس التسريحة أعتقد أنه يكفينى أن أصوّر إحداكما وأخرج من صورتها عدداً كافياً لكلتيكما . »

لو نزعنا الإيثار إذن .. فستبدو كهذه الصورة .. أنيقة ، رقيقة ،

— ٣٩٠ —

أرستقراطية .. لماذا إذن لا تنزعه ؟

ولكن لماذا تنزعه ؟

لكي تحصل على صورة مماثلة ؟

ولماذا لا تأخذ نفس الصورة ؟

ألم يؤكد الرجل .. أنه يستطيع أن يصور أحدهما . ويخرج من الصورة عدداً كافياً للأخرى !

لماذا تتعب نفسها في التصوير مرة أخرى !!

لماذا تفضح نفسها بخلع الإيشارب وبتسريحة الشعر .. ما دام أقصى ما يمكن الحصول عليه هو صورة أخرى طبق الأصل من هذه الصورة !!

ألم يقل هذا المصور نفسه !!

أليست المسألة من أولها خداعاً في خداع !!

فلماذا لا تقدم على ما يمنحها أطيب النتائج .. بأسهل الوسائل ؟!

هل تخشى أن تكتشف الخدعة ؟

متى ؟ .. عندما يراها ؟

وهل تنصرف هي على أساس احتمال رؤيته لها ؟

إنه لو رآها لهدم كل شيء .

هل تخشى أن يكتشف الخدعة .. لو قارن الصور الحديثة بصورها القديمة ؟!

إن آخر صورة لديه منذ ست سنوات .. بالصفائر و « الفيونكات »

ومفروض أن تكون قد تغيرت في السنوات الست .

ثم إن الشبه موجود .. كل من رآها يجزم بهذا ، ولن يشك أحد أن الضبيبة صاحبة الصورة ذات الصفائر .. ليست هي الآنسة صاحبة الصورة ذات ذيل

الحصان بعد ست سنوات .

ولكنها ستكون خديعة كبرى .

وهل هناك فرق بين الخديعة الصغرى .. والخديعة الكبرى ؟!

وأمسكت صورة « منى » تتأملها . وتقارنها بصورتها ذات الإشارب ..
وأجست بكره لصورة الإشارب ، وكره لما بها من تشويه يخفيه الإشارب .
وبالسبابة والإبهام .. سحبت صورة « منى » ، ووضعتها في الظرف بجوار
الرسالة .

إنها بلا جدال .. لن تخذله فيها !
وعندما يطلب صورة أخرى .. سترسل له صورة أخرى لنى .
وكلما طلب صورة ستصور له « منى » .
ستصورها له بين الثلوج ، وعلى سفح الجبال ، وعلى شاطئ البحيرة .
وستشترى « كاميرا » بدل الراديو .. بالنقود التي جمعتها
أجل .. ستقوم هي بدور المصور الخاطف الذي يصور .. ويقذف
بالتذكرة ، ثم يعود هاربا .
إن الخديعة تجر الخديعة .
ولن تكتشف خديعتها إلا إذا رآها .
وهو لن يراها .

(٣٢)

إنه يحبها

أمسك « مدحت » بالرسالة الزرقاء يتحسس بأصابعه الصورة الصلبة التي حواها الظرف ، وهتف « جاد الله » وهو يقف وراءه ويحس تردده :
— افتح يا أستاذ .. أرنا آخر صورة .. لعلها تكون قد استُحت .. وقصت صفائرها .. وفكت فيونكاتها .

وفتح « مدحت » الظرف ، وأخرج الرسالة .. فسقطت الصورة على المكتب .. وانطلق من شفتي « جاد الله » صفير طويل .. وصاح في دهشة وإعجاب :

— يا بنت الإيه !!

ولم ينبس « مدحت » ببنت شفة ، وأخذ ينظر إلى الصورة مأخوذاً .. ويتأملها ، وقد شرد فكره .

ومدّ « جاد الله » يده محاولاً اختطاف الرسالة ، وهو يقول ضاحكا :

— أظنك اقتنعت الآن أنها تستحق الكتابة .. مارأيك ؟!

وتتمم « مدحت » قائلاً ، وهو ما يزال ينظر إلى الصورة :

— لطيفة !

— لطيفة فقط .. إني على استعداد لأن أذهب إلى قمم الألب من أجلها .. إنها

هائلة .. ولكن ماذا كتبت هذه المرة ؟ .. هل تعرف أن دمها خفيف جداً !

وأطبقت أصابع مدحت على الرسالة . ولم يدع « جاد الله » يتناولها منه

بل أمسك بالصورة وأعادها إلى الظرف ، ثم وضع الظرف في جيبه قائلاً :

— هيا بنا .

— ٣٩٣ —

— ألا تنوى قراءتها ؟!

— بعدين .

وضحك جاد الله قائلاً :

— بعدين ؟ .. أم هناك أسرار بينكما ؟! على أى حال ، حلال عليك .

ولم يجب « مدحت » وازدادت فى ملامحه علامات السرور فاستغرق « جاد الله » فى الضحك قائلاً :

— والله وقعت .. والى كان .. كان .

ونظر إليه « مدحت » نظرة زاجرة وهتف به :

— ما هذا السخف الذى تقول ؟!

— أرهن أنك تحبها .

— أنا ؟!

— أجل أنت .

— أحب ماذا ؟! .. أنت مجنون !

— اسمع .. لا تدخل فى عيى .. وتكروتنى .. بدمتك ألا تمنى أن تراها ؟!

— يجوز .. من باب حب الاستطلاع .

— حب الاستطلاع فقط ؟! أتعنى أنها تتساوى فى نظرك مع قوس النصر ..

وبرج إيفل ؟!

وضحك مدحت وأجاب :

— مع الفارق .. إن برج إيفل لم يكتب إلى ، ولم يرسل لى صورته .

وأردف جاد الله متبهماً قول مدحت :

— ولم يدعك فى لفحة .. ولم يخبرك أن حياته معلقة ، فى سطور منك .. ولم

يلاحقك بالدعوات .. ولم يصحبك فى كل نفس يتنفسه .. أو حركة

يتحركها .

وعاد السرور إلى وجه « مدحت » ، وأردف « جاد الله » متسائلاً :

— ٣٩٤ —

— اسمع يا مدحت .. هل تشك أن الفتاة تحبك ؟!

ورفع كتفيه قائلاً في حيرة :

— تحبني !.. كيف ؟!

— كما يحب الناس بعضهم .. ماذا تقصد بسؤالك كيف ؟!

— أعني كيف تحبني .. وهى لا تعتبرنى أكثر من وهم ، تحدثنى كوهم ..

وتدعونى كوهم .. إنها لم تتحدث أبداً عن أى احتمال .. للقاء بيننا .. بل لم تبدلنى

أنها تأمل فيه .. أو تمناه .. إنها تخاطبني كما تخاطب الأرواح .

— ولكنها تعرفك جيداً .

— تعرفنى كشىء مضى ، ولكنها تتوهمنى كشىء آت . أتعرف كيف أحس

من حديثها معنى ؟!

— كيف ؟!

— أحس .. كأنى إنسان كان فى حياتها .. ثم خرج منها .. ولم يعد لها إليه من

سبيل .. أحس كأنى ميت .. لا أمل لها فى لقاءه .

— يا شيخ . « فالله ولا فالك » . ما هذا الذى تقول !

— إني أقول الحق .. إنها لا تتحدث أبداً عن أمل فى مستقبل . إنها تعاملنى ،

باعتبارى شيئاً مستحيلاً عليه أن يكون أكثر مما هو فى وهمها .. أتفهم ما أعنى ..

إنها لا تأمل أبداً .. كما يأمل بقية الناس .. أنت تعرف أننا دائماً ، نأمل فى خطوة

جديدة .. بعد كل خطوة نخطوها .. ولكن تبدو أنها قد جمدت آمالها عند حد

معين .

— وهل تأمل أنت فى خطوة أخرى ؟!

— وأحس « مدحت » أن « جاد الله » يتصيد ، فهز رأسه متسائلاً وهو يحاول

أن يمنح نفسه فرصة للتفكير :

— ماذا تعنى ؟!

— أعنى هل أنت نفسك .. تأمل فى خطوة أبعد ؟! هل تأمل مثلاً فى أن

— ٣٩٥ —

- تراها .. وأن .. وأن ..
 — ولم لا ؟!
 — وماذا تأمل أيضاً ؟!
 — آمل في أن أصادقها .. وأن أحقق لها الدعوات الوهميه .. التي دعوتها إليها .
 — وماذا أيضاً ؟!
 — لست أدرى بالضبط .. ولكنى أحس أنى أود .. أن أجسدها أمامى .
 — أنت واثق إذاً .. أنها شيء حقيقى ؟!
 — طبعاً .
 — وتخذلك .. أن تكون شيئاً وهمياً .. خدعة مثلاً .. أو أكذوبة . .
 وبدت على وجه « مدحت » علامم الضيق والخذلان .. فأردف « جاد الله »
 قائلاً :
 — لا تكتئب هكذا .. أنا أقول مثلاً .
 — بالطبع أكره أن تكون أكذوبة .
 — لقد باتت إذن شيئاً فى حياتك .. شيئاً واضح الملامح يشغل جزءاً من
 تفكيرك واهتمامك .
 — أعتقد هذا .
 — وإذا فقدته .. تحسن أنك فقدت شيئاً ؟!
 — لا شك .
 — شيئاً عزيزاً ؟
 — تستجوبنى ؟!
 — أبداً .. إنما فقط .. أعرفك بمشاعرك .. أنتب تضرر المسألة فى نفسك
 وترفض أن تحددها أمام عينك .. إنك تحب الفتاة .
 — كيف ؟!
 — « تانى ! »

— أعنى كيف أحب .. مخلوقة لم أرها .. مخلوقة كل معالمها .. مستمدة من
السطور .. والصور .. هل يعقل أن يحب إنسان صورة .. ووصفاً ؟
— ولم لا ؟! إن الحب دائماً لا يكون إلا صورة ووصفاً .. نظل نحملها في
أذهاننا .. حتى نلتقى بأقرب الناس شياً بها وانطباقاً عليها .. فنسعى في
أحضانها .. والفارق بين حالتك .. وحالات غيرك من المحبين .. أن المخلوقة
وجدت ، أولاً .. ثم رسمت في ذهنك صورتها وأوصافها .. فإذا أحست أنها قد
لاعمتك .. وأغلب ظني أنها لاعمتك فعلاً ، فليس عليك إلا أن تمد يدك لتتناول
الأصل .. إنها نعمة من الله أن أرسلها إليك ، لتوفر على ذهنك عملية خلق
الصور والصفات التي تمنناها فيمن تحب .. إنك مخلوق ضعيف
التصور .. باهت الخيال .. وكان يحتمل .. أن تستمر في حياتك هكذا بلا
شعور .. ولا حب .. لأنك أكسل من أن تفكر فيما تريد .. أو تحدده في ذهنك
وتصوره لنفسك ، أليس هذا حقيقياً ؟! .. أجب !!
وهز « مدحت » رأسه .. وأجاب ضاحكاً :

— أنت غلباوى .

— وأنت حمار عنيد .

— أنا !!

— أجل أنت .. لماذا لا تعترف أنك تحبها ؟!

— الله .. أما مجنون !! أحب من يا غبى .. إنها مخلوقة لطيفة .. أشفق
عليها .. وأتسلى معها .

— تتسلى ؟!

وهز « جاد الله » رأسه وأردف في استسلام :

— تتسلى .. تتسلى حتى تغرق لأذنيك .. ولا تجد من ينقذك .. مع السلامة
يا أستاذ .. يا متسلى .

وافترق الصديقان .

وعندما عاد « مدحت » إلى حجرتها في « منشية الطيران » وتمدد على مقعده المريح في الشرفة المطلّة على المطار . ولاحت له أشباح الدور في ضوء القمر الباهت تقطع خط الأفق وقد نتأت من بينها قباب « هليوبوليس بالاس » .. وبرج قصر البارون .. وبدت أشجار الكافور الضخمة .. بسور المطار ، ومن أسفل الشرفة تصاعدت رائحة زهر البرتقال الذي يملأ حديقة البيت .. تحملها نسيمات مايو الدافئة لتشبع الجو بأريجها العطر .

ومرة أخرى عاد النقاش يدور حول .. ساكنة قمم الألب .. الشقراء المهرقة .. الرقيقة .. اللطيفة .. الذكية الحنون .. المحبة .. الودود .. ال .. ال .. التي لا يستطيع إلا أن يصفها بكل وصف طيب ، بلا مبالغة ولا تزيد . عاد النقاش مرة أخرى يدور حولها .. المخلوقة التي لا يحدد وجودها سوى السطور والصور .. المخلوقة الكائنة بالوصف والرسم .

وفي هذه المرة كان النقاش ، بين مدحت ، وبين نفسه ، كان نقاشاً .. أصرح .. وأجراً .

أهو حقاً ، يتسلى معها ، ويشفق عليها ؟!

جائز .

محتمل أن يكون هذا .. هو بعض ما يفعله معها ، ولكنه قطعاً ، ليس كل ما يفعله .

إنه يمارس معها عملية تسلية ، وشفقة .. ولكن هذا قد أضحي ضمن عملية .. أعم وأشمل .

قد تكون المسألة .. بدأت شفقة ، وامتدت تسلية .

ولكن الشيء المؤكد ، أنها لم تنته ، إلى هذا فقط .

إن هذه المخلوقة ، الرقيقة ذات العينين المتسعيتين ، والشعر الذهبي .. المسترسل في جدائل ، أو المعقوص على شكل ذيل الحصان ، قد أضحت — كما استدرجه جاد الله — جزءاً من حياته .

جزءاً .. فقط !!

إنه لم يحس باهتمام المخلوق ، قدر ما أحس لها .
وهو يستحق نفسه .. وقد يخجل أن يظهر هذا الاهتمام أمام أحد من حوله ،
ومع ذلك ، فهو لا يستطيع أن يمنع نفسه منه .
وهو يسلم به لنفسه ، كنوع من أنواع الشذوذ ، الذى يحاول دائماً أن
يلصقه بنفسه ، والذى يؤكد عنه من حوله .
إنه يعتبر شذوذاً من نفسه ، أن يمنح كل هذا الاهتمام ، وهو الإنسان المفروض
فيه الترفع عن مشاعر الحب .. وغير هذا من السخافات — لإنسانه — أقرب
وصف يمكن أن توصف به .. أنها غير كائنة .
إن أحداً .. من كل من حوله ، من معارف أو قريبات أو صديقات .. لم
يستطيع أن يستحوذ منه على مثل هذا الاهتمام .. أو التفكير
ولكن هذه المخلوقة قد استطاعت . وهى قد تسربت إلى نفسه .. لتكون
جزءاً هاماً من حياته .. ومشاعره .. وتفكيره .
اعترف بهذا .. أم أنكى .. سلم بهذا أم خجل .
واهتمامه بها كان فى مظاهر ، إن أخفاها عن الناس ، فمن العيب أن يحاول
إخفاءها عن نفسه ..
لطفته الشديدة على رسائلها .. وإحساسه الممتع بدعوتها واستغراقه معها فى
كل ما تذهب إليه أو تعيش فيه ، ثم .. استمتاعه بالرد عليها وبدعوتها إلى كل ما
يذهب .
بل أكثر من هذا ، يقينه بأنه قد بات يلبى دعوات السهرة والولائم من أجلها
هى ، لكى يصفها لها .. ويمتعها ، ويسليها .
وهو يتصورها تصحبه فى كل ما يذهب إليه .
وأخيراً يتلور كل هذا فى إحساسه بأنها باتت مخلوقة حية . قرية من نفسه ،
وبأن لقاءها ، قد أضحى شيئاً محتملاً .. إن لم يحدث اليوم ، فسيحدث غداً ..

أو بعد الغد .

ومع ذلك ، فإن شيئاً من كل هذا لم يخرج عن دائرة تفكيره ولم يحاول أن يفصح لها عنه ، ولا حاول أن يديه لأحد من حوله .

وجلس يكتب إليها ليلتذاك .. يصف لها مجلسه ، ويحمل إليها أريج البرتقال ، مع نسيمات مايو الدافئة ، وينبئها بأنه قضى أول أمس يسير معها في شوارع القاهرة .: محاولاً شراء أسطوانتها المحببة ، « فالس الوداع » لشوبان .. والتي لا تفتأ تصف له دقائق المنسابة .

ووصف لها شارع « عدلى » ودخولهما محل « بابازيان » واقتداد الأسطوانة ، ثم المشوار الذى ساراه سوياً إلى شارع « سليمان » حيث دخلا ممر سينما « راديو » وكيف ابتاع لها « غزل البنات » من المحل القائم على اليسار أمام محل الأسطوانات .. وكيف خرجا من المحل بحفى حنين .. وذهابهما إلى المحل الكائن في شارع « الأنتكخانة » .. بجوار « أفيرينو » .

وأخيراً حصولهما على الأسطوانة ، وسماعها معاً ، داخل « الكشك » الزجاجى الصغير .

إنها تدور الآن في « البيك أب » الموجود في حجرته . إنه يسمعها للمرة العاشرة في يومه هذا ، فهو قد يترك « البيك أب » مغلقاً عليها ، ويعود الإبرة إلى الأسطوانة لتعيد إذاعتها بمجرد أن تنتهى .

إن موسيقاها المنسابة في الأعماق .. لا تتوقف !

لم يكن يتصور قط أن مقطوعة من الموسيقى يمكن أن تصيب الإنسان بمثل هذا الأثر من النشوة .. والحزن .

لماذا يحس مع هذه المقطوعة ، كل هذا الإحساس ؟!

أمن فرط ما حدثته عنها ؟!

ألأنها تدفع بها في نفسه ؟!

ألأنها تحمل إلى ذهنه صورتها ، وهى في حجرتها الصغيرة أمام

— ٤٠٠ —

المكتب ، تشرّد يبصرها من النافذة ، إلى الأفق البعيد الذى بدت فيه القمم البيض .. وإلى السنديانة التى تحنو يديّ على سقف المحطة المنحدر .. وترفع إلى السماء يداً أخرى .

من يدرى !!

قد تكون المقطوعة .. معجزة فى حد ذاتها ، أو تكون المعجزة .. فى أنها قد باتت قطعة منها .. من « نادية » العزيزة الغريبة .. الجالسة فى حجرتها تنظر إلى سد الجبال الذى يحجب عنها شمس الوطن المشرقة .

وظل « مدحت » مسترسلا فى الكتابة .. والأسطوانة لا تكف عن الدوران .. وموسيقاها ذات الدقات المتقطعة الهادئة .. المناسبة فى عمق .. لا تتوقف ، ولا تنبى .

وأخيراً .. وعندما انتهى من الرسالة ، أحس أنه قد نسى شيئاً هاماً .. إنه لم يعلق على الصورة بعد .

وأمسك بالصورة فى يده ، وكتب « صورتك فى كفى أمام عيني . هل يجب أن أقول عنها شيئاً ؟ لو تركت لنفسى ، لما قلت شيئاً .. فأنت عندي .. أجل .. وأسمى من مجرد صورة .

« ورغم ذلك أحس — بعد طول إلحاحى فى طلبها — أنه يجب أن أقول رأى فيها .
« الواقع أنك أجمل كثيراً ، مما كنت أتصور .

« إن صورتك ذات الضفائر لطيفة ، وهى تحمل فى مجموعها .. طابعك الهادئ ، اللطيف .

« أما صورتك الأخيرة .. فماذا أقول عنها ؟
« إلى لست مغزلاً ممتازاً ، ولكنى مع ذلك أجرؤ فأقول إنها رائعة ..
بأنفك ، وعينيك ، وشعرك المعقوص فى ذيل الحصان .. ورقبتك الفارعة ..
و .. وماذا ؟ أظن هذا يكفى .
« فأنا لم أعتد أبداً .. هذا الغزل .

« أنت جميلة دائماً يا » نادية .
 « في طفولتك .. وفي صباك .
 « وأؤكد لك أنك ستكونين جميلة أيضاً عندما تصبحين عجوزاً .. شمطاء ..
 لك من الأحفاد ذرية ضخمة .
 « إنى أشعر دائماً بالاعتزاز بك .. وبكل ما يصدر عنك .
 « سأنتهي الرسالة .. قبل أن أندفع لأقول أكثر من هذا .. فأنت تعلمين ما
 تفعله نسيمات الصيف بنفوسنا .. تعلمين أثر زهور المشمش والخوخ .. وعبير
 زهور البرتقال .
 « وقد تعلمين ما يمكن أن يفعل كل هذا .. إذا سرت فيه دقائق الوداع ..
 لشوبان .
 ووصلت الرسالة إلى « نادية » .. بكل ما فيها من نسيمات داخات وأريج
 عطر .
 وصلتها وهي هابطة من حجرتها بالمدرسة في طريقها إلى البيت . وكانت تحس
 بالأمل ينبض في كل ما حولها .. في الأشجار والطيور .. والزهور .. والأطفال
 منطلقين في فناء المدرسة .. وفي صوت عجلات القطار يغادر المحطة .. وفي نداء
 الباعة .. وفي هزات ذيل كلب ناظر المحطة .. وفي غزل فتیان المدرسة .. و ..
 وكانت هي التي أصرت على أن تسلك الطريق الطويل المزدحم .. بعد أن
 كانت دائماً تفضل اختصاره بالسير بجوار سور سكة الحديد .
 لم يكن بنفسها خوف من الناس .. ولم تفكر أبداً أن وراء الإشارب الحريري
 الذي تلف به رأسها وعنقها .. شيئاً يمكن أن تخشيه وأن يكشفه الناس ..
 وكانت تتوقف عند المحلات .. وكانت تعاكس المارة ، وتضحك بصوت
 مرتفع .. لقد نظرت إليها « منى » في دهشة متسائلة :
 — نادية .. ماذا بك ؟! أجننت ؟!
 — لماذا !! لأنى أقلدك .. ؟!

— ٤٠٢ —

— أكل هذا من أجل الرسالة التي تخفينها في جيبيك ؟!
— أبداً .. إلى أحسن بسعادة عامة .. الربيع دائماً يدفع في نفسى بهذا
الإحساس .. كل شيء جميل يا « منى » .
— معك حق .. ما رأيك في أن نتسلق الجبل غداً .. ؟
— موافقة .

— على فكرة .. هل رددت على رسالة « جمال » .. ؟
— أجل .. إنه إنسان طيب جداً .. لقد رددت عليه ، وعلى عمى سليمان ..
وعلى صبرى .. لقد كتبت بالأمرس . ثلاث رسائل .
— ماهى أخبار صبرى !! أما زال منهمكا في الدستور ؟!
— دستور إيه .. ؟ لقد انتهى منه منذ مدة ، إنه الآن منكم جداً ، في بناء
السد العالي .

وفهقهت « منى » قائلة :
— مرة واحدة .
— لقد قال لي إنه لا أمل لمصر بدونه .. وإنه لا رخاء لأجيالنا القادمة إلا به
— دعه أولاً يحقق الرخاء .. لجيلنا الحالي .
وتوقفت « نادية » أمام محل لبيع آلات التصوير والأفلام وأخذت تنظر إلى
« الفاترينة » في تمنع .. وجذبتها « منى » قائلة :
— يا لالا يا نادية .. حتى نتغدى ونلحق السينما .
واستمرت « نادية » في مكانها تحديق في « الفاترينة » ، ثم هزت رأسها وبدت
كأنها حزمت رأياها على أمر .. وقالت :
— اسمعى يا منى .. لقد قررت أن أشتري كاميرا .
— كاميرا !! ليه .. ؟
— لأصورك بها .
— أنا .. ؟

— ٤٠٣ —

- أجل : إني معجبة بك جداً .
 — وابتسمت « منى » في خبث وقالت :
 — تعنين معجبة بنفسك ؟!
 — وضحكت « نادية » وردت قائلة :
 — أنا وأنت واحد .
 — ولكن .. ألا تنتظرين حتى ترى رأيي قى ! لماذا لا تفتحين الرسالة
 وتقرئينها !
 — الآن .. ؟
 — ولم لا ؟
 — لا : هذه الرسالة لا تقرأ على عجل ، ونحن في ضجة الطريق .. إنها تحتاج
 إلى خلوة ، وهدوء .
 — وموسيقى .. وزهور .. وسرحان .. و .. و .. أليس كذلك ؟..
 — طبعاً .. ليس هناك فارق بين السندوتش ، والديك الرومى . هل
 تستطيعين أن تأكلى الديك الرومى على قارعة الطريق ؟
 — طبعاً .. إذا وضعته في ساندوتش .
 — لا .. لا .. أنا أحب أن آكله على المائدة ، وحدى .
 — الظاهر . أن بك اليوم لوثة !
 — يجوز .. هيا بنا نشترى « الكاميرا » . قبل أن أفيق .
 — والنقود ؟!
 — سأشتريها بثمان الراديو .
 — والراديو ؟..
 — يحلها ربنا بعدين .. إننا نستطيع أن نسمعه عند « جاني » .. لقد استطعت
 أن أسمع محطة مصر أول أمس .
 — حقيقة ؟!

— لقد سمعت محطة تذيع .. أسطوانة جبل التوباد .. أعتقد أنها محطة مصر .
 — ولماذا لم تنصتى حتى النهاية .
 — السخيف « تونى » أدار المؤشر .. هيا بنا نشترى الكاميرا .
 وبعد دقائق .. خرجت نادية من المحل والكاميرا فى يدها وقد وضع فيها فيلم .
 وقالت « نادية » فى لهجة منذرة :
 — خذى بالك من نفسك جيداً .. أنت تعرفين .. من تمثلين بصورتك .. لا
 أريد .. مرقعة .
 — والله سأفضحك .. لن أصور إلا بالمأويه .
 وفى تلك الليلة جلست « نادية » تستعيد قراءة رسالة مدحت . كانت للمرة
 العاشرة .. تعود إلى قراءتها فى نفس اليوم .
 ثمّة شيء .. أو أشياء .. فى هذه الرسالة ، يدفع فى نفسها خليطاً مضطرباً من
 المشاعر .
 لأول مرة .. تحس أن روابط الأوهام .. قد تجسدت وأضحت شيئاً صلباً ..
 يمكن أن يبرز فى حيز الحقائق .
 لقد بدت لها أوهامها .. كأنها أبخرة تكشف .. لتصبح قطرات .. والقطرات
 قد تجسدت لتصبح شيئاً صلباً ملموساً .
 وكانت سعيدة بذلك .
 سعيدة جداً .
 فمجرد الإحساس ، بأن « مدحت » .. طيف الأوهام .. وفارس
 الأحلام .. قد أضحي مخلوقاً حياً .. تشدّها وإياه ، روابط كتلك التى تشد
 المخلوقات الحية .
 مجرد هذا الإحساس — بصرف النظر عما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج —
 يدفع فى نفسها فرحة البعث ، ونشوة الحياة .. وكأنها مخلوق ولد ، ليوافه
 النور .. والهواء .. والشمس ..

ومع هذا الإحساس بالبعث .. وبالأوهام ، التى أضحت حقائق .. يداخلها شعور بالخذر ، والقلق .. والخوف .

الخوف .. من أثر الخديعة ، فى هذا البعث .

أيمكن أن تكون الصورة .. المخادعة ، سبباً فى تحقيق كل هذا ؟! لا .. لا .

إن أحاسيسه واضحة جليلة فى كل رسائله ، قبل أن يرى الصورة .

فى دعواته الحارة .. وفى خوفه عليها ، وفى رفته نحوها ، فى كل حرف من رسائله كانت تحس ، بخفقة .. ونبضة .

لم تكن المسألة ، أبداً .. مسألة صورة . بدليل أنه قال لها « أنت عندى أجمل وأسمى من مجرد صورة » .

ولا تكاد تدفع بالطمأنينة فى نفسها حتى يعود إحساس القلق والخذر والخشية ليهاجها فى عنف ويعيد على أسماعها قوله فى الرسالة :

« الواقع أنك أجمل كثيراً .. مما كنت أتصور .

« إنك رائعة ، بأنفك .. وعنقك وشعرك . »

ولم تحتمل هجوم الصوت الخذر القلق ، وهزت رأسها فى ضيق وعنق .. كأنها تحاول طرده .

إنه قال ذلك مجاملاً .. وحتى لو لم يكن مجاملاً .. وكان ذلك رأيه الحقيقى .. فأى خوف فى ذلك ؟ .

أترى قوله سيختلف لو أنها أرسلت صورتها هى ؟ إن لها نفس الأنف ونفس العينين ونفس الشعر !!

ألم يقل المصور بنفسه ذلك .. وأنه يستطيع أن يصور أحدهما .. ويخرج من الصور كمية مضاعفة تصلح للثنتين !

هل لو صوّرت هى .. كانت صورتها تختلف عن هذه ؟ وهل كان قوله .. سيختلف عما قال ؟

لماذا إذن لم تصوّر ؟

— ٤٠٦ —

هل كانت تستطيع ؟
والإيشارب ، والعنق ، والحريق .. أف .. لكل هذا !!
إن رأسها يوشك أن ينفجر .. ولكن ما قيمة الصورة ، وهو يقول لها « إنك
أجمل وأسمى من الصورة » ؟
أحقاً .. يعنى ذلك !!
أحقاً .. قد باتت شيئاً هاماً فى نفسه ؟
وهب أنها قد باتت كذلك .. فماذا تريد ؟
إلى أى نتيجة تريد أن تصل ؟ هل تجسر على لقائه ؟
بشكلها هذا ؟
بالإيشارب ! أم بالعنق المحروق ؟
ولكن لماذا تفكر فى هذا ؟
لماذا لا تستمتع .. بما حققته من نجاح ؟
إنها قد باتت تعنى لديه شيئاً .. أو على وجه أدق .. وأصرح .. إنه يحبها
فلماذا لا تستمتع بذلك ؟
أجل .. أجل ..
إنه يحبها .. يحبها .
ودفنت رأسها فى الوسادة .. وتركت جسدها ينتفض فى الفراش ، ودموعها
تغرق غطاء الوسادة .

(٣٣)

فك قيد .. !!

غربت شمس ١٨ يونية ١٩٥٦ لتبعث في مغربها بأضواء باهرة .. تشع في قلوب المصريين .. فقد أفلت مع شمس ذلك اليوم شمس الاستعمار التي اصطلى المصريون سعيها سبعين عاماً ، وانزاح عن مصر كابوس المستعمر الذي أثقل كاهلها وأنقض ظهرها .. وبدت مصر في تلك الليلة وهي أشرق ما تكون ضياء .. وأبهى نوراً ، وكأن قطرات الدم والعرق التي بذلتها الأجيال المكافحة في سبيل الحرية والكرامة .. قد صيغت في حبات من النور تكلل جبين مصر الحرة المكافحة الناهضة .

وبدا الازدحام في شارع « الزمالك » وقتذاك على أشده ، وتكدست العربات في الطريق .. حتى كادت حركة المرور تشل .. وبدأ « نادى الضباط » وقد غمرته الأضواء الكاشفة ، واحتشد به المدعوون من جميع طبقات الشعب الذين دعاهم رئيس الجمهورية .. لحفل أقيم ابتهاجاً بعيد الجلاء .

وامتدت الحديقة المواجهة لبناء النادى بعد أن أزيل بناء الاتحاد المصرى الإنجليزى الذى كان يجاور النادى ، ورصت آلاف المقاعد أمام المسرح المكشوف القائم في نهاية الحديقة والذي يحجب وراء أستاره فرق الموسيقى والغناء .. والمجموعات القائمة بالاحتفال .

اتخذ المدعوون أماكنهم في الحديقة ، وفي ركن على اليسار جلس مدحت وجاد الله بين أساتذة الجامعة ومدرسيها ، ومد جاد الله ساقيه وفرك كفيه وتجشأ ، ثم ضرب بكفه على بطنه قائلاً :
— عشوة دسمة .

— ٤٠٨ —

وأجاب مدحت :

— لقد كنت تأكل .. كأنك تأكل في آخر زادك .

— ولم لا .. إن لم أكل في يوم جلاء الإنجليز .. فمتى أكل ؟

— كأنك أنت الذى أجليتهم ؟

— وهل لديك شك فى ذلك . ألم أشارك فى مظاهرات ١٩٣٥ .

— أبهذا أجليتهم ؟

— وأنى اشارك فى ثورة ١٩ .

— معقول !

— وجدى كان فى جيش عرابى .

— أصيل .. مجاهد أباً عن جد .

— أتسخر ؟. ألم تسمع « جمال عبد الناصر » وهو يقول اليوم فى الإذاعة

« إن جيلنا لم يصنع ذلك وحده . وإن أجيال شعبنا كانت تكافح وتناضل ، وإن

الشهداء كانوا يسقطون على الأرض وبجوارهم أعلامهم مضرجة بالدماء ولكنهم

لا يستسلمون أبداً ، وأن قوى المقاومة فىنا ظلت تحفق وتنفض » .

ونظر مدحت إلى جاد الله فى دهشة ، وتساءل :

— جاد الله !! ماذا حل بك ؟

— له !

— أخفايت تؤمن بما تقول ؟

— ولم لا !!

— إنه كلام « جمال عبد الناصر » ؟

— أعرف هذا .

— ولكنك كنت تسخر من اتفاقية الجلاء !

— يجوز .

— ٤٠٩ —

— وكنت تقول إنها إحدى مناورات الإنجليز التي تعودوا أن يخدرونا بها منذ سبعين عاماً .

— أنا قلت هذا ؟

— ألا تذكر ونحن في حجرة النواب في المستشفى !

— ربما .. قلت .

— وقلت إنهم ضحكوا على جمال !

وزغد جاد الله مدحت في فخذه ، وقال زاجرا :

— اخفض صوتك يا غبي .

وابتسم مدحت وأردف هامساً :

— وقلت إنهم لن يجلوا .

— وبعدين !!

— ماذا حدث الآن حتى بت تحفظ كلام « جمال عبد الناصر » ؟!

— ماذا حدث ؟!

— أجل .. ماذا حدث .. حتى غيرت رأيك فيه ؟!

— أيها الغبي .. وماذا تريد أن يحدث أكثر من هذا .. لقد حدث الشيء الذي كان يبدو لي أنه لا يحدث أبداً .. لقد جلوا .. انكشحو .. لقد باتت كلمة الجلاء التي كنا نردها بلا وعى حقيقة واقعة .. لقد اتضح لي أنه هو الذي ضحك عليهم .. لقد شيعهم اليوم في بورسعيد وكاد « يخرج لهم لسانه » ساخراً .

وفي الناحية الأخرى كانت هناك تنمة للحديث بين اثنين آخرين .. عصام ، وقد جلس في ركن الضباط وبجواره صبرى وقد أخذ ينصت إليه في لفة وشغف متسائلا :

— وبعدين .. ماذا حدث ؟! صف لي كل شيء .. كم وددت أن أكون

هناك .

— كنا نقف في السرادق الكبير الذى أقيم فى مبنى البحرية ، كانت نسمات البحر تهب علينا علية رطبة .. كان السرادق مزدحماً .. وكانت الفرحة تفعم قلوبنا جميعاً . كنا نضحك ملء صدورنا .. لم نكن فى احتفال رسمى ، وإنما كنا فى عرس .. كانت مدينة بورسعيد تبدو كالصبي فى يوم عيد .. يعدو بالزمارة والبالون ، ويرقص ويغنى .. كانت المدينة كلها تضحك وتمرح ، كأنما أزالنا عن نفسها كابوساً .. أو رفعت غمة ، وكان الناس يتبادلون التهاني على غير معرفة .. كان بنفوسهم إحساس الأهل .. وقد تخلصوا من غريب ثقيل ، وانطلقوا يرحلون بلا كلفة ولا خشية .. وكانت القطع البحرية قد اصطفت أمام منصة « الرئيس » وقد بدت هى والسفن الزاسية فى الميناء مزدانة بالأعلام الملونة مكللة بالزهور .. كأنها فى سامر أو فى « زفة » .

وتساءل صبرى فى لهفة :

— وأين كان جمال ؟

— كان يجلس فى المنصة .

— وكيف كان يبدو ؟

— كان يتسم .. ولكنى كنت أحس وراء ابتسامته شيئاً من الرهبة .. رهبة الإحساس بجلال الموقف وضخامة العمل .. رهبة الشاب الصغير الذى كان يعدو منذ خمسة وعشرين عاماً وسط الطلبة فى ميدان « المنشية » ليهتف وسط المظاهرات بالحرية والاستقلال ، وينادى بجلاء الإنجليز عن بلاده ، والذى كان يرى مواطنيه من حوله يسقطون صرعى برصاص المحتل وعلى شفاههم نداءات الحرية التى توارثها المصريون جيلاً عن جيل .. مع إرث الاحتلال والذل والعبودية .. كنت أبصر فى ملامحه وراء الابتسامة المشرقة ، رهبة الشاب الصغير الذى أمضى عمره يحلم بحرية وطنه .. ويهتف مع مواطنيه باستقلاله ، يرى نفسه ، وقد تحققت بواسطته أحلام مواطنيه ، وتجمعت فى يديه قوى الشهداء والمكافحين منذ سبعين عاماً .. لتدفع فلول المحتل الغريب وتفلت أعناق

الوطن من أيديه ، وتزجج عن صدره كابوسه . وبقدر ما كنت أحس بفرحة الناس .. كنت أحس برهته ، وعندما نهض .. ليرفع العلم على السارية .. كنت أحس بمدى انفعاله الذى تخفيه ابتسامته المشرقة ، وخطواته الثابتة ، وهامته المرفوعة .

— وكيف رفع العلم ؟!

— حمله مطوياً بين كفيه .. وبخضرته نضرة وإيناع ، وبياض هلاله .. نور وإشراق .. وكأنه قطعة من الحياة الخضراء البانعة .. والنور الأبيض الناصع ، وانحنى « جمال » على قطعة الحياة والسلام والنور وقبلها .. وفى عينيه اغروراقة .. وفى قسماته اختلاج ورجفة .. ثم رفعه بيده ، ونظر إليه ، وهو يعلو ويرفرف .. وضع الناس بالهتاف . وأحسست أن الأرض تهتز تحت قدمي من فرط حماسهم .. وخيل لى أن « جمال » لم يرفع علماً .. وإنما فك قيذا ، وحطم قضباناً ، وأطلق العنان لوطن حبيس .

وصمت عصام .. وبدأ عليه كمن يغالب انفعالا .. وهز رأسه وبدأ كأنما يتحدث نفسه :

— كانت لحظة عجيبة ..

وتساءل صبرى فى لهفة :

— وماذا قال جمال ؟!

— لم يتحدث كثيراً .. لقد قال : « إن هذه اللحظة هى لحظة العمر .. بل هى العمر كله .. لحظة كافح من أجلها الآباء والأجداد .. وراحوا قبل أن ينعموا برؤيتها » .

وصمت عصام وعاد صبرى يستحثه قائلاً :

— أهذا كل ما قال ؟!

— لست أذكر أكثر من هذا .. لقد رفع عينيه إلى العلم المرفرف ، وقال ، وكأنه يتהל إلى الله : عسى ألا يرفرف على هذا الوطن وعلى هذه الأرض ، سوى

— ٤١٢ —

هذا العلم .

وبدا التأثير على ملاح صبرى ومد يده يتشاغل بمسح منظاره السميك ، وهو يقول :

— وددت لو فقدت نصف عمرى لكى أشاهد تلك اللحظة .. لقد سبق أن ذهبت إلى بورسعيد .. ذات صيف . وكان الإنجليز ما زالوا هناك .

— أنا أيضاً ذهبت إليها .. بضع مرات ، ولكنى أحسست بها اليوم شيئاً آخر .. ربما لم يكن هناك شيء عادى قد تغير بها ، ولكن إحساس الحرية ونشوة الاستقلال .. قد خلع عليها رداءً عجيباً .. أظهرها كأنها .. عروس تزف ، وملاً ربوعها .. بالفرحة والبهجة والحب والسلام .

— ليتك دعوتنى

— كيف أدعوك .. لقد كنت فى طابور .

وصمت صبرى وهز رأسه قائلاً :

— على أية حال ، سأدعوك أنا إليها .. بعد اثنى عشر عاماً لنحتفل بعيد جديد .

— عيد جديد !؟

— أجل .. ما زال هناك فى القتال .. مزيد من الأعياد .

— لا أفهم ما تعنى !؟

— عندما ينتهى عقد امتياز القناة .. وتجلو عنها الشركة الفرنسية ، وتصبح القناة لنا .

ورفع عصام كتفيه قائلاً فى غير مبالاة :

— إنها لنا الآن .

— أنت عييط .. ليس لنا فيها غير حثالة كأس .. لقد قرأت عنها كتاباً فى الصيف الماضى .. فذهلت .

— له !؟

— ٤١٣ —

— لقد بدت لى كدولة داخل الدولة .. كضرع حلوب .. نلقى بها للغير ..
ليلتهم خيره ، ويمن علينا بوضع قطرات ..
— على أية حال .. مصيرها لنا .. متى قلت لى إن الامتياز سينتهى ؟!
— بعد اثنى عشر عاماً .. سنة ١٩٦٨ .
— هانت .

— إذا لم يتلاعب المستعمرون .
— أى مستعمرين ؟ لقد انتهينا من الاستعمار . يا أستاذ .. أنسيت بماذا نحتفل
الآن !!

— لقد انتهينا من عدة جولات ، ولكن هل تظن أننا انتهينا من الجولة
الأخيرة !!

— أى جولات تعنى !! إنها معركة كبرى خضناها معه وقد كسبناها بعد
صراع سبعين عاماً .

— اسمع يا عصام .. إنك ما زلت غشيماً فى السياسة .. سأشرح لك
الجولات التى خضناها مع المستعمر .. لقد كسبنا المعركة الأولى التى استمر
الصراع فيها بيننا وبينه — كما قلت — سبعين عاماً ، وانتهت بتسليمه بالجلء ..
ولكنه لم يسلم به ، وهو يضم الانسحاب فعلاً ، وإنما كان يعد لجولة جديدة .
— ماذا تعنى ؟!

— أعنى جولة الأحلاف .. إنه لم يكذبنتهى من التسليم بالجلء حتى رد إلينا
الكرة .. فى صورة حلف بغداد .. فأعدناها إليه ، ورفضنا الحلف .

وضحك عصام وتساءل فى شىء من السخرية :

— وماذا فعل هو أيها السياسى المخنك ؟!

— أعادها إلينا مرة أخرى .. فى صورة الضغط .. ومنع السلاح .

وعاد عصام يضحك قائلاً :

— الكرة الآن فى أقدامنا ؟!

— ٤١٤ —

— أجل .. الكرة مع جمال .

— جمال شاط ؟

— شوطة جامدة .. فى مؤتمر باندونج .. استقرت فى المرمى محققة هدف

الحياة الإيجائى والتعايش السلمى .

وازدادت ضحكة عصام وقال :

— الكرة الآن مع المستعمر ؟

— باصاها لإسرائيل .. إسرائيل شاطت فى الصبحة .

— خسارة .

— ولا خسارة ولا حاجة .. « جمال » خد الكرة .. جمال طلع بيها .. جمال

شاط .. حنت دين شوطة .. رجت الملعب كله بصفقة الأسلحة .

— وبعدين ؟

— الكرة مع المستعمر .. المستعمر جرى بيها .. المستعمر شاط ، وحلف ما

يشترى القطن منا .

— خسارة .

— بالعكس .. « جمال » خد الكرة وحذفها مع القطن للصين الشعبية ،

ومعاها اعتراف بالصين الشعبية ، والبقية تأتى .

وقهقهه عصام قائلاً :

— خسارتك فى الطب .. كان يجب أن تكون مديعاً فى الكرة .

— الكرة السياسية فقط .

— إذن خذ بالك جيداً .. حتى تصف لى أولاً بأول .. لأنه ليس لى جلد على

متابعتها .

— يعطى الحلق لى بلا ودان .

— أى حلق تحسدنى عليه ؟

— وجودك فى الجيش .. وسط الدبابات ستالين . ومشاهدتك للجلاء .

اليوم .

- أما زلت تحسدنى على حفلة اليوم ؟!
- طبعاً .. لو شاهدتها لا استطعت على الأقل أن أصفها لنادية .
- ولماذا لا تصفها لها كما وصفتها لك أنا .
- سأحاول .. ولكنى أكره دائماً أن أكون مجرد ناقل .. إنى أحب أن أشارك فى شىء .. هل تصدق أن الشىء الوحيد الذى يضايقنى فى احتفال الجلاء اليوم .. هو إحساسى بأنهم جلوا فى سكوت .
- يا أخى احمد ربنا .
- الحمد لله .. ولكنى كنت أود أن أشاهد جلاءهم على الأقل لأضرب واحداً منهم « شلوتاً » .
- لكى يضربك رصاصة !!؟
- سأضربه مثلها .. ماذا تظننى .. عاجزاً عن ضرب النار !! لقد ضربت فى التدريب العسكرى .
- مفهوم .. مفهوم .. على أية حال .. ربنا رحم الإنجليز منك .. لقد نجوا بجلدهم .
- ونظر عصام فى ساعته فى قلق ثم تساءل :
- لقد بلغت التاسعة والنصف .. متى ينوون البدء .
- وسمعت ضجة من الخلف والتفت صبرى ثم بدا عليه الحماس واللهفة ووقف قائلاً :
- لقد أقبل جمال .. سأرقبه جيداً حتى أستطيع وصفه لنادية ، وأنا أنتخيله يرفع العلم .
- وضحك عصام وقال :
- أخشى من طول ما تكتب عنه فى رسائلك .. أن تحبه نادية ، وتركك !!
- وبدا الوجوم على وجه صبرى ثم انبسط أساريه .. وأجاب قائلاً :

— إنها لن تتركنى من أجله . إنها تحبه كما أحبه . وعلى أية حال ، لا داعى لأن أخاف أن تتركنى .. لأنها لم تأخذنى بعد .

— ولن تأخذك أبداً .. ما دمت تأبى أن تفتح فمك بكلمة حب .

— كلة حب .. إنها لا تعطينى الفرصة .. إن طريقتهما فى الكتابة آلية ،

كطريقتهما فى الحديث .. تكبل فمى ، وتقتل ألفاظ الحب على شفتى .

وعبر « جمال » ومرافقوه الممر وسط ضجيج التصفيق ، وحماس الهمتاف .

واستقر فى صف المقاعد المواجه للمسرح وسط السفراء والوزراء ، وبعد لحظات اعتلى

المسرح .. وبدأ فى تسليم الأوسمة لأعضاء مجلس قيادة الثورة ، وسط الهمتاف

المدوى .

وانتهى تسليم الأوسمة ، وعاد الرئيس مكانه . وأطفئت أنوار الحديقة ،

وسلّطت الأضواء على المسرح ، وبدأ النشيد الافتتاحى ، وتوالى على المسرح

نجوم السينما يحملون الأعلام ، ووقف « عبد الوهاب » بين نجوم الموسيقى

ينشدون : « قولوا لمصر تغنى معايا فى عيد تحريرها ، تم النصر وصبحت حرة

بأيدي أحرارها » .

وخلال النشيد والناس يرددون فقراته فى حماس وفرحة . التفت جادالله إلى

جواره ليرى مدحت محنيا إلى الأمام وقد وضع يده على بطنه وبدت على وجهه

علامات الألم . وبدت الدهشة والقلق على وجه جادالله وهمس به :

— إيه يا مدحت !! مالك !

وهز مدحت رأسه قائلا :

— لا شئ .

— ما بك حقيقة ؟

— أبداً .. مغص كالاعتاد .

— ولكنك لم تتناول العشاء !

— ربما من أثر الغداء .

— ٤١٧ —

- هل أكلت شيئاً غير عادى ؟!
- ربما .. لقد أكلت قطعة كنافه .
- لا بد أنها هى التى أتعبت معدتك .. كان يجب عليك أن تحاسب .
- أحاسب أكثر من هذا !! لقد ضقت بها ذرعاً . إني أشك أن بها قرحة .
- لم أر أجهل منك بالطب .. لست أدري كيف يسمحون لك بهذه العمليات التى تقوم بها . أكلما أصابك هذا المغص .. اتهمت معدتك بالقرحة؟!
- أنا أدري بنفسى .
- بل أنت أجهل بنفسك .. أنت وسواس كبير .. أتذكر عندما قمت بعمل أشعة منذ عامين ، واتضح أن معدتك ليس بها شيء ؟!
- الأشعة كلام فارغ .
- أتذكر ما قاله لك الدكتور سليمان من أن معدتك ليس بها قرحة ؟!
- الدكتور سليمان لم يكن على حق .
- إذا ماهى أعراض القرحة التى عندك ؟! هل نزت من معدتك دماً ؟!
- با غبى .. أتظن ذلك من ضرورات القرحة ؟!
- أعتقد أن ذلك من أول مظاهرها .
- أبدأ .. كلام فارغ
- إذا كنت واثقاً أن عندك قرحة .. فلماذا ...
- أنا لست واثقاً .. إن عندى شكاً فقط .
- وما العمل إذن ؟!
- إني أفكر فى السفر إلى إنجلترا لأعرض نفسى على الدكتور « تنر » .
- تنر ؟!
- أجل .. لقد قابلته هنا فى العام الماضى ، وهو نفسه الذى اقترح على زيارته .
- ولكنك لم تخبرنى وقتذاك ؟!

— لأننى لم آخذ دعوته على محل الجدد .

— والآ ١٩ ؟

— أفكر فيها جدّاً .

— من أجل قطعة الكناقة التى أتعبتك ١٩ ؟

— من أجل معدنى أولاً ، ومن أجل رغبتي فى أن أسافر إلى أوروبا هذا الصيف .. لأننى فى حاجة قصوى للراحة

— من هذه الناحية معك حق .. وإن كنت أعتقد أن إجازة فى الإسكندرية أو بورسعيد كافية جداً .. وإلا أول ما تشطح تنطح .

— الإجازة فى الإسكندرية كعدمها .. لأنهم يستطيعون إعادتي إلى المستشفى ، بتليفون أو تلغراف .

— إذن اذهب إلى مرسى مطروح أو بورسعيد .

— محصل بعضه .. سيعيدوننى بنفس السرعة .

وكانت فرقة « الريحاني » قد اعتلت المسرح .. ووقفت « ماري منيب » تمثل دور « الداية » التى تنتظر المولود .

ونظر مدحت إلى المسرح نظرة من لا يفهم شيئاً مما يجري ونفخ فى ملل قائلاً :
— اسمع يا جاد الله .. ما رأيك فى الانصراف قبل أن يزدحم الطريق ويتعذر علينا العودة ١٩ ؟

— انتظر على الأقل حتى ينتهى فصل الريحاني .

وبعد لحظات كان الفصل قد انتهى .

وكان « مدحت » يتسلسل بين الصفوف متخذاً طريقه إلى خارج النادى .. ووصل إلى عربته التى تركها فى شارع فرعى بجوار النادى .. ثم سار يشق طريقه بين المنادين والسائقين حتى وصل إلى شارع « الزمالك » .. وكان المفروض أن يتجه يسرة إلى كوبرى أبى العلاء .. ولكنه اتجه يمنة ثم دلف فى شارع شجرة الدر متجهاً إلى طريق النيل خلف نادى الجزيرة وقال جاد الله :

— ٤١٩ —

- لماذا لففت هذه اللفة ؟
- لأنى أفضل هذا الطريق .
- له ؟ .
- لأنى أحب أشجاره المتعانقة .. المكلفة بالزهور الحمر ، وأحب منظر النيل على حافته .
- وضحك جاد الله قائلاً :
- ما شاء الله .. لقد أصبحت شاعراً .. هذا شيء جد عليك . منذ بدأت تكتب الرسائل إلى « جاب »
- لا تكن سخيلاً .
- أشياء كثيرة .. تغيرت فيك .. لقد بت مخلوقاً مهذباً .. لو كنت أعلم هذا السلطان عليك منذ مدة .. على فكرة .. ما أخبارها ؟!
- بخير .
- ألا تنوى المجيء إلى هنا ؟!
- لا أظن .
- أنتويان إذن الاستمرار على رسائلكما الوهى .. دون أن يفكر أحداً كما فى رؤية الآخر ؟!
- كف عن قولك رسائلنا الوهى ، وإلا ضربتك .
- لا تزعل ، أقصد رسائلكما .. العلمية .. الاقتصادية .
- لا تسخر .
- ماذا أقول إذن .. المهم . أليس لديكما مشروع للقاء ؟
- حتى الآن .. لا .
- ومستقبلاً ؟!
- من يدري .
- ألا تدري أنت ؟!

— ٤٢٠ —

- ربما استطعت أن أراها وأنا في طريقى .. إلى لندن.
وهنا انفجر جاد الله مقهقهأ وصاح به :
- يا ابن الإيه . أتسرح بى كل هذه السرحة ، وأنا كالحمار لأدرى شيئاً .
— تدري شيئاً عن ماذا ؟
- تدعى أن بمعدتك قرحة ، وأن الدكتور « تتر » دعاك لزيارته ، وأنتك
تريد السفر إلى لندن .. وأنا أصدقك كالأبله !
- ولماذا لا تصدقنى ؟!
- لأن هناك شيئاً أهم من هذا كله يهيبىء لك السفر .
- أولاً أنا لم أجزم بعد بالسفر ، وثانياً .. إذا سافرت سأسافر من أجل
معدتى .
- مفهوم .. مفهوم ، وبالصدفة .. ستمر في طريقك « بجبال الألب » ولن
يكون من الذوق أن تمر هناك دون أن تسأل عنها .. أليست هذه هى خطتك ؟!
- أنت سخيف .
- سخيف لأنى كشفت نواياك ؟
- قلت لك إنى سأسافر من أجل معدتى .
- ستسافر إلى لندن ؟
- أجل .
- بالطائرة !
- ولِمَ بالطائرة ؟
- لأن الناس كلهم يسافرون الآن بالطائرة .
- قد أسافر بالطائرة ، وقد أسافر بالباخرة إذا كان لددى وقت .
- وسيكون بالطبع لديك وقت ، وستنزل في مرسيليا ، ثم تمضى بعض
الوقت في فرنسا .. أليس كذلك ؟
- ربما .

— ٤٢١ —

— بل مؤكد .. قل الحق !!
ولم يجب مدحت .. كان يشرد ببصره من خارج العربية ، وقد بدت الأرض
تلمع أمامه ، وأخذت مصابيح الطريق تتواتر على وجهه ، وفروع البانسيانس
المكحلة بالأزهار الحمر تتكاثف في مظلة تمتد طوال الطريق .
والسكون سائد ، ونسمات الليل تهب رطبة من نافذة العربية ، وأخذ يفكر
في كل ما قاله جاد الله .
إن فكرة السفر قد أخذت تقوى في ذهنه ، وأخذت معالمها تتضح ، وسماتها
تتأكد .
وكانت معدته .. هي العذر الواضح للسفر .
العذر الذي يطوى في باطنه كل العلل والاثامات التي قالها صاحبه .

(٣٤)

تفكير في زيارة !

في صباح أحد الآحاد .. جلست « نادية » على مقعد في الحديقة وقد أمسكت رسالة مدحت الأخيرة بين أصابعها وبدأ عليها الشرود وأقبلت « منى » من الباب الخارجى تصيح بنادية :
— نادية .. هيا بنا .. سنصعد الجبل الآن .. سيمر علينا « تونى وجاى » بعربتهما وستناول الغداء فوق الجبل مع بقية الشلة وهزت نادية رأسها فى ضيق وقالت :
— لن أصدع معكم .. لى متعبة .
— قلت لك سنصعد بالعربة .. أيتها الغبية .
وعندما ما اقتربت « منى » منها هتفت :
— ماذا بك ؟!
وأخفت « نادية » الرسالة قائلة :
— لا شىء .. صداع خفيف .
— صداع ؟
— أجل .
وهزت « منى » رأسها فى دهشة متسائلة :
— منذ متى كان الصداع يصاحب هذه الرسائل ؟!
ورفعت « نادية » حاجبها مدعية أنها لم تفهم ، وتساءلت قائلة :
— ماذا تعنين ؟!
— أليست هذه رسالة مدحت ؟

- أجل .
- ماذا حدث إذن ؟
- لا شيء .
- هل تعودت أن تلقي رسائل مدحت بمثل هذا الشرود والقلق والانقباض ؟
- قلت لك إن بي صداعاً .
- كنت أعرف أن رسائل مدحت أنجع الوسائل في شفاء الصداع .. إنها خير بكثير من « الأسبرو » .
- أتمز حين !
- بل أقول جادة .. إنى أعرف تماماً مدى تأثير رسائله عليك .. لقد بعثتك من جديد .. انتشلتك من هوة اليأس ، وأحاطتك بسياج من الأمل المشرق .. لقد كنت في أول الأمر أهزأ بها وأكره لك أن تتشبهي بخيوط واهية من الأحلام .. ولكنى بعد أن رأيت ما فعلته بك .. بت أحبها ، وأشارك السعادة التي تغمرك بها .. فماذا حدث حتى تبعث فيك هذا الشرود والقلق ! ..
- وصمت « نادية » .. واستغرقت في شرودها .
- وعادت « منى » تسأل :
- نادية لماذا لا تجيبين ؟! أرني الرسالة !
- وسمع صوت « نفير » عربية تولى يتوالى على باب الحديقة وصاحت جالى منذرة :
- دقيقتين ، ثم تتحرك العربية .. ليس لدينا وقت . وجذبت منى نادية من ذراعها قائلة :
- هيا يا نادية .. لن أتركك وحدك .. لقد أخذنا الجراموفون معنا وسنرقص أمام البحيرة في حديقة بيت مسيوريتو ، وسنشوى اللحم على سيخ فوق النار .. وإذا كانت المياه دافئة سأنزل في البحيرة . لقد أخذت المايوه . و ..
- ونظر « نادية » إلى « منى » في دهشة وقاطعتها قائلة :

— ٤٢٤ —

— تنزلين في البحيرة؟! —
 — ولم لا؟ إن الشمس ساطعة والجو دافئ .
 — إن مياه البحر مثلجة .. إياك ، وهذه الحماسة .
 ورفعت « منى » كتفها قائلة في لهجة المنذر :
 — سأنزل إذا لم تأتى معنا .
 — أتهددينى ! إنها حياتك أنت يا مغفلة وليست حياتى أنا .
 وقالت « منى » فى إصرار :
 — إذا لم تأتى سأستحم فى البحيرة .
 — استحمى .. انفلقى .
 — وسأعوم ، وأجرى .. حتى أجهد ويحدث لى ما تخشيان حدوثه أنت
 وأمك .

ولم تتحرك « نادية » وعادت « منى » تقول :
 — سأنزف دماً من صدرى .. و ...
 وقاطعتها « نادية » ناهرة ، وهى تحس بغصة فى حلقها :
 — ما هذا السخف الذى تقولين ! أتظنين نفسك صغيرة !
 ورفعت « منى » كتفها ، وهى تسير متجهة إلى الباب :
 — أنت وشأنك .. لقد أنذرتك .
 ثم أردفت تقول ضاحكة :
 — إلى أحس اليوم بلهفة إلى الانتحار .
 ونهضت « نادية » وهى تتبعها قائلة :
 — يادملك !! أتظنين نفسك خفيفة !
 وأمسكت « منى » بيدها ، وقالت وهما فى طريقهما إلى الباب :
 — لم تقولى .. ماذا ضايقتك .. فى رسالة .. المحروس ؟
 — ليس هذا وقته .. سأخبرك فيما بعد .

— ٤٢٥ —

— إذن أعطيني الرسالة أقرأها .

— الآن ؟ !

— ولم لا !

— أمام هذا الحشد الذى ينتظرنا فى العربة ؟

— إنهم لا يفهمون العربية .. وسنقول لهم إنها رسالة من عمى .

— لا .. لا .. سأريها لك عند ما نعود .

— إذن أعطيني فكرة .. حتى لا يتتابنى قلق .. طوال هذه الفترة .

— فكرة عما ذا ؟ !

— عما ضايقتك فى رسالة مدحت . ماذا به ؟

— إنه مريض .

— مريض بماذا ؟

— بمعدته .

— وأى جديد فى ذلك .. ألم يقل فى رسائله من قبل . إنه يأكل طعاماً

مخصوصاً لأن معدته متعبة ؟

— أجل ، ولكنها لم تكن متعبة إلى هذا الحد .

— أى حد !

— إلى حد الشك فى أن بها قرحة .

— من قال له هذا ؟

— هو نفسه .

— هو يشك فى أن لديه قرحة !

— أجل .

— وماذا قال له الأطباء ؟

— لم يقولوا شيئاً .

— لماذا ؟

— ٤٢٦ —

— لأنه لا يريد أن يستشير أحدهم .. لأنه يعتقد أنهم جميعاً لا يفهمون .
 — إذا كان الأمر كذلك .. لماذا لا يقطعها .. كما يقطع معدات بقية الخلق ..
 الذين يوقعهم القدر تحت رحمته ، ويريح نفسه .
 وبدا الانزعاج على وجه « نادية » وقالت ناهرة :
 — ما هذا السخف الذى تقولين ؟
 وضحكت « منى » وردت قائلة :
 — وبهذا القدر تخشين عليه ، وعلى معدته ؟!
 وأجابت « نادية » فى غضب :
 — أنت تافهة .. لا يأخذ المرء منك غير « التريقة » ، والسخرية .. الحق
 على أن قلت لك .

وربت « منى » ظهرها فى حنان وردت :
 — أغضبت ! إني أضحك يا نادية .. متأسفة .
 وأقبلت التوءمتان على الباب الخشبي ، وبدأت العربية لهما وقد اكتظت
 براكبيها الذين انطلقت منهم الصيحات الهادرة والضحكات الماجنة
 وردّت الفتاتان تحيات الشلة ، وقبل أن تتخذا مكانهما فى العربية تساءلت
 منى :

— وماذا ينوى أن يفعل ؟!
 — إنه يفكر فى الذهاب إلى لندن .
 وهزت « منى » رأسها وأجابت مازحة :
 — معقول ، ويمر علينا فى طريقه ليقضى معنا أسبوعاً .
 وتمتمت « نادية » فى صوت خفيض ، وقد أطرقت وبدأ عليها الشرود
 والقلق :

— إن هذا هو ما يفكر فيه فعلاً
 وهفت « منى » مأخوذة :

— ٤٢٧ —

— إيه ؟

وفزعت الشلة المحيطة بها في العربية من صيحتها المأخوذة ، وصاحوا بها :

— ما بالك !! ماذا حدث لك ؟

ولم تجب « منى » .. بل عادت تحملق في نادبة متسائلة :

— يفكر في ماذا ؟!

— في المرور علينا ، وهو في طريقه إلى لندن

وهتفت « منى » صائحة :

— يا نهار أبوه أسود .

وصاحت جأى بالتوعمتين .. والشلة تنظر في دهشة إلى انفعالهما في المناقشة

دون أن تفهم معنى ما يقولان :

— تحدثا بالفرنسية حتى نفهم .

وأردف تونى محتج قائلاً :

— تحدثا بلغة متحضرة

وزغذته « منى » في خده بطرف أصابعها صائحة بالفرنسية :

— متحضرة يا غبى !! إن لغتنا هي أصل الحضارة .. عندما كنتم مغربين في

بربرية القرون الوسطى وظلامها .. كنا نقول الشعر وندرس الطب والفلسفة

بالعربية .. مفهوم أم تريد أن أفهمك أكثر ؟!

وصاح تونى :

— بلا زغد .. لم أر فتاة أطول منك يداً .

— في المرة القادمة .. سأستعمل شيئاً آخر غير يدي .. إياك والتحدث بسوء

عن المصريين أو العرب .. ألا تعرف من أنا ؟!

وهز تونى رأسه وقال في استسلام :

— كنت أحب ألا أعرف .

— ٤٢٨ —

والتفتت « منى » إلى « نادية » وقد عاودت تساؤلها المأخوذ بالعريية :
 — قولى لى .. أحقاً ينوى هذا الحمار الحجيء إلى هنا ؟!
 ورفعت نادية كتفها بحجية فى شرودها القلق المزعج :
 — إنه يفكر فى هذا .
 — إنه مجنون . يجب أن تمنع من التفكير فى هذا بتاتاً .
 وقالت « نادية » كأنما تحدث نفسها :
 — لم يخطر ببالى قط .. أن هذا شيء يمكن أن يحدث .. أبداً .. أبداً .
 — لعله مجرد كلام .. إنه لا شك لا يعنى هذا .. غير معقول أن يذهب إلى
 لندن لمجرد أن معدته لا تهضم « الكنافة » و « الفتة بالثوم » .. إن المفروض ألا
 تهضم المعديات الآدمية ، هذه المفجرات ، وثلاثة أرباع المصريين معداتهم ليست
 خيراً من معدة .. « سى مدحت » .
 وهزت « نادية » رأسها فى حزن وأجابت :
 — لا .. لا .. إنه دائماً يشكو من معدته .
 — صحيح أنه يشكو من معدته .. أهذا يدعو .. لأن يترك عمله وعبادته
 ومرضاه ويطير إلى لندن ؟
 وصمتت « منى » برهة ثم أردفت قائلة كأنما تعدد فى مناقحة :
 — وليته كان سيطير ! .. لهان الأمر وزال الخطر .. ولكنه بسلامته ..
 سيتسكع بمعدته المقروحة .. فى البحار وسكة الحديد ، ويصعد قمم الألب ..
 لمجرد المرور عليك .
 ولم تجب « نادية » . كانت الشاعر والانفعالات تصطخب فى نفسها ..
 مشاعر متناقضة ، وانفعالات متضادة متباينة .
 أيمكن أن يحس لها بما يدفعه إلى هذا ؟!
 إنه يقول هذا فى رسالته .
 ولكن ألا يمكن أن يكون مجرد كلام .. كما قالت منى !

— ٤٢٩ —

ربما .. ولكنه أيضاً يمكن أن يكون حقيقة .
 هل كانت تتصور في يوم من الأيام .. أن يشعر لها « مدحت » بما يدفعه إلى
 زيارتها في قمم الألب ؟!
 ولكن هل يزورها .. هي ؟!
 هل هي .. نادية .. بشخصها ، ودمها ، ولحمها .. التي يحس لها من
 المشاعر .. ما يدفعه إلى التفكير في زيارتها ؟!
 أم هي صاحبة الصور التي تعوّدت أن ترسلها له في كل رسالة ؟
 أم هي نادية — صاحبة الرسائل — المقصودة بالزيارة ؟!
 أم هي « منى » صاحبة الصور !
 شيء يبعث على الحيرة والشك .
 من هي المخلوقة التي يفكر « مدحت » في زيارتها .. أم هي هذه .. أم تلك ..
 أم خليط منهما معاً !!
 على أية حال .. إنها قطعاً .. ليست « نادية » بكل تفاصيلها .. ليست
 « نادية » مائة في المائة .
 إنها جزء من « نادية » .. تضاف إليها أجزاء أخرى من صور « منى » ومن
 صنع أو هامه هو .
 ومع ذلك ، ورغم أنها تعرف أن الصورة التي في ذهنه ، والتي يحس لها ما
 يدفعه إلى التفكير في زيارتها .. ليست صورتها هي .. فإن شيئاً ما في باطنها .. قد
 يكون رغبتها في الأمل والمقاومة والحياة .. يدفعها إلى الإحساس .. بأنها هي
 وحدها المخلوقة المستقرة في ذهنه .. الراسية في نفسه .. والتي يتوق إلى رؤيتها
 ويفكر في زيارتها !!
 ولكن هب أنها كانت هي .. أم كان غيرها .
 ما الفائدة ؟ ما دامت في جميع الافتراضات .. عاجزة عن أن تلقاه ، لأنها لا
 تصلح للقاء ، كما وطدت نفسها من أول الأمر .

— ٤٣٠ —

إنها تعجز عن لقائه .. بعنقها المشوّه .. الذى يحجبه إشارب لا يفارق رأسها .

ثم إنها قد تكون هى صاحبة المشاعر التى يكنّها لها .. وهما على البعد ، والصلة مقصورة على الرسائل والأحاسيس .

ولكن أتجسر على ادعاء ملكية هذه المشاعر .. عندما تواجهه ، وبجوارها أختها « منى » !
لا .. لا ..

إن اللقاء ، سيكون فجعية . إن زيارته لها ، أمر مستحيل .
وأفاقت « نادية » من شرودها على صوت « منى » تقول وكأنما تتم تفكيرها من وجهة نظرها هى :

— غير معقول !! . غير معقول أن يحشم نفسه كل هذه المشقة .. لمجرد أن يراك !

وأحسست نادية — رغم انزعاجها من تفكير مدحت فى زيارتها — بالضيق من قول منى وهمت متسائلة :

— وله ؟

— إنه لو فعل هذا يكون مجنوناً .. هل تتصورين أن مخلوقاً مريضاً بمعدته .. بدل أن يطير إلى لندن فى بضع ساعات .. يظل متسكعاً فى البحر أربعة أيام حتى يصل إلى مرسيليا .. ثم يظل يطوى القفار بسكة الحديد حتى « فين » ثم يترك طريقه ويصعد إلى « جاب » ثم يعود إلى « فين » مرة أخرى ، ويشجه إلى « جرينويل » .. ثم باريس .. ثم « كاليه » ويعبر المانش إلى لندن .. لماذا يركب كل هذه المصاعب .. أمن أجل أن يلقي فتاة كتبت له بضع رسائل وأرسلت له بضع صور .. أمعقول هذا ؟!

وتتمت « نادية » فى خليط من الأسف ، والارتياح . الأسف .. لأنه ليس لديه من المشاعر ما يدفعه إلى ركوب الصعب ، من أجلها .. والارتياح .. لأنه

— ٤٣١ —

غير معقول أن يحضر إليها .

تمت « نادية » قائلة :

— طبعاً غير معقول .. إنه مجرد كلام .

وصمت « منى » برهة ، ولكنها لم تلبث حتى لعب الفأر في عبا .. وهزت رأسها قائلة :

— ولكن هيبه فعل ؟

نظرت إليها « نادية » متسائلة في شروء :

— هه !

— أقول .. هيبه فعل .. إنه كما يدولى .. إنسان غير معقول ، فماذا يمنع .. من أن يقدم على أشياء غير معقولة ؟

وزادت علامات الشروء في وجه نادية .

وعادت « منى » تتساءل :

— ماذا نفعل .. إذا كان تفكير هذا « المجنون » جاداً ، وإذا نوى فعلاً أن يزورك !

وردت « نادية » قولها كالماًخوذة :

— ماذا نفعل !

— أجل ماذا نفعل .. ديرينا .. أنت السبب في كل هذا !

وصمت « منى » برهة ثم أردفت قائلة بعد تفكير :

— لو أنك لم ترسل لي صوري .. لكان الأمر أسهل من هذا .

— كيف !!

— كان يمكنك أن تلقيه .

وبدا الخوف على « نادية » وأجابت :

— أهذا معقول !! كيف ألقاه ؟

— وأنت مرتدية الإيشارب .. إنه لن يمكث إلا يوماً ، أو يومين .. ثم

— ٤٣٢ —

ينصرف إلى غير رجعة .

وتساءلت « نادية » بلا إرادة :

— إلى غير رجعة ؟

— طبعاً .. أم تظنينه .. ينوى أن يقيم معنا .. ليقطع أزوار ومعدات سكان

« جاب » !

وهنا التفت « توني » إلى « منى » وهز كتفيه قائلاً :

— ألا تنويان أن تكفا عن المناقشة بلغتكما المتحضرة ، ماذا تقولان عن

« جاب » !

والتفتت إليه « منى » قائلة :

— نقول إن نصف شبانها حمير .

— ولماذا لا تقولانها بالفرنسية ؟! كلنا نعرف هذا .

وكانت العربة قد وصلت إلى أعلى الجبل ، وأخذت تشق طريقها بجوار

البحيرة ، وقد نهدت الأغصان على الطريق من الجانبين .. وبدأ البيت المهجور .

وقد ازدادت مظاهر الخراب به ، وتساقطت ضلف أبوابه .. وبدأت الهوة من

ورائه وقد تكاثف بها ضباب خفيف .

وقفز الفتية والفتيات من العربة ، وانتشروا في الحديقة المقفرة ، بعضهم

يعدون الطعام ، والبعض يستمع إلى الجراموفون .

ولفت « نادية » حول البيت ، واستقر بها المقام أمام الكوخ المنعزل القائم

وراءه .. والمطل على الجرف الذى تبدو المقابر في أسفله كأنها نقط بيض .

وجلس « نادية » على المقعد الحجري بجوار الكوخ ، وأطلقت بصرها في

الفراغ العريض الذى بدت في آخره الغمامة البيضاء التى تعلو هام الأفق .

ومدت يدها فأخرجت الرسالة من جيبيها ، وعاودت قراءتها .

وقبل أن تصل إلى نهايتها سمعت وقع أقدام خلفها .. وأبصرت « منى »

تهتف بها :

— ٤٣٣ —

- لم يخب ذكائى .. لقد توقعت .. لا بد أن تكونى هربت بالرسالة إلى هنا .
ومدت يدها قائلة :
— دعينى أقرأها .
وحاولت « نادية » أن تعيد الرسالة إلى جيبها قائلة :
— بعدين عندما نعود إلى البيت .
وخطفتها « منى » من يدها قائلة :
— هاى .. لأرى كيف يفكر المجنون .. فى زيارتنا .
وجلست « منى » على المقعد الحجري بجوار « نادية » التى انهمكت فى
قراءتها ، وأخذت « نادية » تنقل البصر بين « منى » وبين الوادى الممتد أسفل
الجرف ، وأصوات الجراموفون وضجيج الشلة يأتى إليهما من وراء الدار .
وعندما انتهت من القراءة بدا عليها الشرود .. وسألها « نادية » فى قلق
قائلة :
— ما رأيك ؟!
— شىء مخير .. ليس بمستبعد على هذا الأحمق .. أن يزورنا فعلا .
— وما العمل ؟!
— امنعيه .
— كيف ؟!
— اكتبى إليه ألا يحضر .
— أهذا معقول ؟!
— ولم لا .. قولى له .. إنك ستسافرين فى هذا الوقت .
— إلى أين ؟!
— إلى أى مكان .. إلى جرينوبل .. إلى جنيف . اكذبى أى أكذوبة .
وصمتت « نادية » برهة مطرقة ثم قالت :
— معقول .

— ٤٣٤ —

ثم أطلقت من صدرها تهيدة حزينة ، ونظرت إليها « منى » بطرف عينيها ثم هزت رأسها قائلة :

— عجيبة !

— من ؟

— الدنيا !! من كان يصدق أنك تحاولين الفرار عندما يفكر في زيارتك !
— على أية حال .. لا أظننى سأحتاج إلى الفرار .. لأنه لن يخرج تفكيره إلى حيز التنفيذ .. إنه مجرد كلام كما تقولين .
— أرجو هذا .

وسمعتا من ورائهما صوتاً ينادى :

— أيتها المصريتان .. مؤامرة ؟

والفتت الفتانان فإذا « بتوى » قد أقبل عليهما ومعه بعض الرفاق .
وأجابت « منى » قائلة :

— أجل .. مؤامرة .

— لأجل ؟

— طردك من جاب .

— معقول .. ألم تطردوا ملككم عن عرشه ؟

— أجل طردناه ، لأنه كان فاسداً منحلاً .

— طرده ديكتاتوركم ناصر .^١

وتدخلت نادية قائلة فى غضب :

— عبد الناصر ليس ديكتاتوراً .. أيها الغبى لقد حقق لنا كل أمانينا .. لقد

منحنا العزة والحرية والكرامة .. وقد أعلن الدستور باسم الشعب ، وأجرى عليه

استفتاء .. وانتخب « عبد الناصر » بأغلبية تزيد على ٩٩٪

وهمست « منى » لنادية متسائلة :

— من قال لك كل هذا ؟!

— ٤٣٥ —

- وأجابتها « نادية » هامة :
- صبرى فى رسالته التى وصلتنى بالأمس .
- لقد أضحت رسائله نشرات سياسية .. ألم يقل لك بعد إنه يحبك ؟!
- ولم تجب « نادية » على سؤالها ، فقد شغلها عنه صياح توفى ساخرأ :
- كلام فارغ .. إنى أصر على أنه ديكتاتور .
- وقبل أن ترد « نادية » مدت « منى » يدها وخلعت حذاءها من قدمها ورفعته منذرة توفى بقولها :
- الظاهر أنى سأضطر لإسكاتك بسلاح جديد . ثم صاحت به :
- توفى .. اسحب كلامك .
- وأجاب توفى ضاحكا :
- سحبت .. إنك تستعملين معى طريقة الديكتاتورين العتاة .
- لا ينفع معك غير هذا .
- انتهينا .. لن أحدثك فى السياسة بعد ذلك .. أنت مخيفة ..
- وتدخلت « جابى » قائلة :
- هيا بنا .. لقد أعد الطعام .
- ونفض الجميع متجهين إلى حديقة البيت على شاطئ البحيرة ، وطوت « نادية » الرسالة فى جيبها ، وذهنها ما زال شاردأ فى صاحبها .. وهى تحس بخنين إليه .. إلى لقائه .. ورعايته .
- وفى المساء .. عندما أوت إلى حجرتها جلست فى فراشها ممسكة بالكراسة الزرقاء لتكتب الرد لمدحت .. واختتمت ردّها بالترحيب بزيارته .. وأنها لا تمنى شيئاً قدر لقياءه .. ولكنها تخشى أن يخونها الحظ لأن هناك احتمالاً لسفرها مع أمها وأختها لقضاء الشهرين القادمين عند خالتهما فى « جرينوبل » .
- وأحست وهى تطوى الرسالة بنوع من الأمن والطمأنينة . إنه بلا شك .. بعد هذا الاعتذار .. لن يكون هناك احتمال لأن يفكر مرة أخرى فى الزيارة .

(٣٥)

حق يسترد .. !!

مر أسبوع بعد أن أرسلت « نادية » ردها . وفي مساء ٢٦ يوليو كانت الشلة قد اجتمعت في شرفة النادي الرجالية حول مائدة الشاي .. بعد أن انتهوا من « التنس » .

وبدا مسيو « بيتر » كاتب المدرسة العجوز مقبلاً على الشلة ، ولم يكذب يصر « منى » حتى مديده في جيبه هاتفاً :

— رسالة لك يا مدموازيل « منى » .. لقد مررت عليكم في المنزل فقالوا لي إنك هنا .. فقلت لنفسى أشرب فنجاناً من الشاي .. وأعطيتها الرسالة .

ومدت « منى » يدها تتناول الرسالة قائلة :

— شكراً يا مسيو « بيتر » .. لم يكن هناك داع لأن تتعب نفسك أبداً . إن رسائلنا تستطيع الانتظار .

الواقع أنى لم أتعب نفسى .. فقد كان على أن أمر على بيتكم لأحمل رسالة من المسيو « رينو » إلى والدتكم .. فلما أخبرتنى أنك في النادي .. فضلت أن أمر عليك لأسلمها إليك .

— شكراً لمجرد التفكير في حملها لى .

— إلى أعرف قيمة رسائل الغريب .

وقالت جابى :

إنها لم تعد غريبة يا مسيو « بيتر » .. إنها تقيم بيننا .

وضحك « بيتر » وأجاب :

— مهما أقامت بيننا فإن وطنها .. هناك .. هناك .. في بلاد الشمس الساطعة

— ٤٣٧ —

والنهر العريض .. والأهرام الشاخنة ، وأنى الهول العظيم .. إن وطنها هناك ..
هناك .. فى بلد « ناصر » .

ورفع المعجوز يده بالتحية وانصرف .
وأمسكت « منى » بالرسالة وقرأت الحظ على الظرف ، وقالت « لنادية »
التى نظرت إليها نظرة مستفسرة :
— من عصام .

وفضت « منى » الظرف وأخرجت الرسالة .. وأخذت تقرأها وهى
ترشف فئجان الشأى وتلتهم قطعة من الكيك .
وكانت تبدو عليها شتى الانفعالات وهى تقرأ الرسالة .. كانت تبتسم
تارة .. وتتجهم أخرى ، وكانت « جالى » ترقب ملامحها فى شئ من الدهشة ،
بينما أخذت « نادية » تنقل بصرها بين « منى » وهى منهمكة فى القراءة وتنتظر
إلى الأفق وقد أخذت الشمس تقترب منه ملقية ذبولها الحمر على أسقف الدور
المنحدرة وقد بدا بناء المحطة من بعيد بشجرته الضخمة التى تكاثفت أوراقها حتى
كادت تخفيه بفروعها التى تحنو عليه .

وكان « تونى » قد انحنى على الراديو الضخم الموضوع فى ركن النادى ..
ينقل المؤشر من محطة إلى محطة وقد أخذ يصدر منه صفير وذبذبات منفصلة
وكلمات متقطعة بشتى اللغات ، حتى استقر على محطة تصدر موسيقى صاخبة
معربة .

وصاح « تونى » فرحاً :

— روك أند رول .. من أمريكا بلد العجائب .

ثم رفع ذراعيه مفتوحتين هاتفاً :

— من يشاركنى الرقصة قبل أن تنتهى ؟! هيا يا منى .

وكانت « منى » قد انتهت من قراءة الرسالة وبدا عليها التجهم وهى تطويها
وأجابته فى غيظ :

— أوقف هذه الموسيقى الهمجية التى تصدع بها آذاننا .

وصاح « تونى » فى لهجته المرتفعة التى حاول بها أن يغلب صوت الموسيقى الصاخبة :

- همجية .. يا همجية ؟ .. إنها من أمريكا .
- ليكن .. أرحنا من سماعها .. إنى لا أريد أن أسمع شيئاً من أمريكا !
- والتفتت إليها « جابى » فى دهشة وتساءلت :
- عجباً ! لماذا ؟
- لأنها سحبت قرض السد العالى .
- وما هو السد العالى ؟
- الذى بنى آمالنا عليه .. الذى سيحفظ لنا مياه نبلنا الضائعة البحر ، ويصلح منها بضعة ملايين من الأفدنة تزرعها ونجنى ثمارها .. لكى نهىء لأنفسنا ولأبنائنا حياة أفضل .. حياة كالتى يحيونها .. ويحياها فلاحوهم ، وعماهم .
- وأردفت « نادية » قائلة :
- أجل .. إنه أملنا فى أن يحيا أربعة وعشرون مليوناً كما يحيا الآدميون ..
- ياكلون لقمة طيبة ويشربون ماء نقياً ، ويقطنون فى مسكن نظيف .. حقيقة ..
- إننا نرى فيه وسيلتنا إلى حياة كريمة .
- وسألت جابى :
- ولماذا لا تقيمونه ؟
- لأننا فى حاجة إلى نقود .
- ولِمَ لا تقترضون ؟
- لقد عرضت علينا أمريكا وإنجلترا قرضاً لإقامته .
- ولماذا لا تأخذونه ؟
- وصاحت « منى » وهى تهز الرسالة فى يدها :
- لقد عادوا وسحبوا عرضهم .
- وأجاب « تونى » وهو يحرك ساقيه على نغمة دقات الرقصة الصاخبة :

— ٤٣٩ —

- هم أحرار في نقودهم .
 وأجابته « منى » صائحة :
 — ولكنهم ليسوا أحراراً في إهانتنا .
 وتساءلت جابى :
 — وكيف أهانوكم ؟
 — قالوا إنهم لن يعطونا قرضاً .. لأننا فقراء .. ومفلسون .. واقتصادنا
 منهيار .
 ومدت « نادية » يدها وهي تأخذ الرسالة من « منى » وتساءلت في دهشة :
 — من قال لك هذا ؟
 وأجابت منى :
 — عصام .
 — عصام كتب لك هذا ؟ لقد أصابته عدوى صبرى .
 — لقد أصابت العدوى .. أربعة وعشرين مليوناً .. إن رسالته مليئة
 بالسخط على أمريكا .
 وأجاب « تونى » وقد كف عن الرقص وأقبل يجلس على مقعد بجوار نادية :
 — لأنكم شيوعيون .
 وتساءلت « نادية » في دهشة :
 — من قال إننا شيوعيون ؟!
 — لأنكم اشتريتم أسلحتكم من روسيا .
 — أكان علينا أن نتنظر حتى تعتدى إسرائيل بأسلحتكم ، التى أيتهاها
 علينا .. ولا نمد يدنا إلى الأسلحة المعروضة علينا .. لكيلا نتهم بالشيوعية ؟
 — بل أخذتم السلاح لتقيموا إمبراطورية عربية موالية للشرق .
 — الإمبراطورية العربية .. لن تقام أبداً بالسلاح .. ولكنها ستقام بالمشاعر
 الموحدة .. والمصالح المشتركة .. ولن يقيمها فرد .. ولكن ستقيمها شعوب ..

— ٤٤٠ —

ترى بقاءها في كيانها الموحد .. ونحن لن تكون موالين لشرق أو لغرب . إننا نحاول أن نكون كتلة محايدة .. تعمل للمحافظة على التوازن من أجل السلام .
— هذه خدعة شيوعية .

— بل تلك هي أغراض مؤتمر باندونج .. أغراض سليمة واضحة لا يمكن أن تشوبها الخديعة .. هل هناك خديعة .. في أن تكون العلاقات بين الدول قائمة على احترام حقوق الإنسان ؟

وهزت « جاني » رأسها بالنفي ، فعادت « نادية » تتساءل في انفعال :
— وهل هناك خديعة في أن تقوم هذه العلاقات على احترام سيادة الأمم وسلامة أراضيها ؟

وعادت « جاني » تهز رأسها بالنفي ، واستمرت « نادية » في تساؤلها :
— وهل هناك خديعة في الاعتراف بالمساواة بين جميع الأجناس وبين جميع الأمم ؟

وهزت « جاني » رأسها مرة ثالثة .. وقبل أن تعاود أسئلتها صاح بها « توني » محاولاً إسكاتها وهو ينفض متجهاً إلى الراديو :
— انتهينا .. لا تصدعي رعوسنا .. بمبادئك .. إننا لم نأت إلى هنا لسماع دروس في السياسة والمبادئ .. من يريد أن يرقص !؟

وقبل أن يصل إلى الراديو قفزت « منى » من مقعدها ولحقت به وهي تهتف :
— دع الراديو .
— لمه ؟

— لأنني سأسمع القاهرة .

— وماذا من المغريات يمكن أن تأتينا به القاهرة !؟

— خطبة الرئيس « جمال عبد الناصر » .

ثم التفتت إلى « نادية » متسائلة :

— ألا تريدن سماعها يا نادية !؟ إن اليوم ٢٦ يوليو .. وقال لي عصام إنه

سيذهب إلى الإسكندرية هو وصبرى .. لسماعها في ميدان المنشية .

وبدا على « نادية » الشرود .. ترى هل ينوى مدحت سماعها ؟!

إنه لم يبد قط اهتماماً بالشئون السياسية .

— لم يحدثها أبداً إلا عن عملياته ومرضاه ، وطلبتة ، ورياضته .

إنه يبدو كأنه يعيش في معزل عن الأحداث التي تحيط به .

ولكنه مع ذلك قد يسمع الخطبة .

— أجل .. قد يكون جالساً الآن مع صاحبه « جاد الله » في مكتبه في

المستشفى .. أو في حجرته بالبيت .. قد انحنى على الراديو يدير مفتاحه .. إنه قد

يشاركها في الاستماع إلى نفس الصوت .. تحت نفس السماء وعلى نفس

الأرض !

ولكن هل يستطيع الجهاز أن ينقل الصوت إلى هنا ؟ ولِمَ لا !!

لقد جرّبه بضع مرات .. فسمعت محطة القاهرة تارة .. وسمعت صوت

العرب تارة أخرى .. ولكنها كانت في المرات القلائل التي استطاعت أن تحصل

على المحطة ، كان الصوت متقطعاً .. وكانت محطات أخرى تشوش عليه وتعلق

فوقه .

على أية حال .. لِمَ لا تجرب هي و « منى » .. ليس لديهما ما يمنعهما عن

الاستماع مهما طالّت مدته .

ونهضت « نادية » تتبع « منى » إلى الراديو .

وكان « تونى » يصيح « بنى » وهى تحرك المؤشر يمنة ويسرة :

— ما هذا السخف ؟!

وأدارت « منى » رأسها وهى تنحنى على الراديو .. وصاحت به فى غيظ

مكبوت :

— كف أنت عن هذا السخف .. وإلا جررت على نفسك الأذى .. أنت

تعرف ما يمكن أن أصنع بك .

— ٤٤٢ —

— ولكنى أريد أن استمع إلى الموسيقى .
 — لديك « البيك آب » .. أو جهاز الأسطوانات . خذ بضعة فرنكات هبة
 منى .. واذهب لتسمع ما تشاء .. فقط اغرب عنا الآن .
 وهز « تونى » كتفيه فى غيظ :
 — ولكن ما ذنب كل هؤلاء حتى تسمعهم خطاب جمال عبد الناصر ؟!
 — إن أحداً منهم لم يشتك .
 وهنا صاحت « جالى » تنهر « تونى » :
 — تونى .. دعها تسمع وكف عن مشاغبها .. لو كنت بعيداً عن وطنك
 لقدرت لهفتها على سماع أى صوت من وطنها .
 — لو كنت بعيداً عن وطنى .. لما اشتقت أيداً إلى سماع .. بينو .. أو موليه .
 وأجابت نادية ضاحكة :
 — لأنك لا تؤمن بهما .. أما نحن فتؤمن تماماً بجمال عبد الناصر
 وهز « تونى » كتفيه ، ثم صاح فى الشلة :
 — من منكم يريد الرقص ؟!
 ونهضت بعض « الشلة » وراءه إلى حجرة « البيك آب » ، وجلس البعض
 يتشاغلون بلعب الشطرنج والمناقشة .
 وجرت « نادية » مقعداً بجوار الراديو ، وجلست بجوار « منى » التى
 انهمكت فى تحريك المؤشر ، وبعد لحظات اقتربت « جالى » بمقعدها وجلست
 بجوارهما .
 وأخذ المؤشر يتحرك يمنة ويسرة ، « والوش » يتعالى .. « والطققة »
 تزداد .. والليغات المختلفة تتشابك ، والنغمات المتناقضة تتقاطع وتتضارب .
 وهزت « منى » رأسها ، وهى منهمكة فى إدارة المؤشر وتساءلت موجهة
 الحديث إلى جالى ونادية :

— حقيقة لست أدري لماذا يكرهنا الأمريكان .. ويناصبوننا كل هذا

العداء ؟!

وأجابت « نادية » ببساطة :

— لأن هناك عداء بيننا وبين إسرائيل .. ولأن ثلاثة أرباع إدارات الدعاية والإذاعة والنشر في يد اليهود .. ولما كان يتحتم على الأمريكان أن يساعدوا أحد الطرفين .. فهم يفضلون دائماً مساعدة إسرائيل .

وهزت « منى » رأسها وأجابت :

— ولكن عصام يقول إن السبب في رفض تمويل السد العالي بمثل هذه الطريقة الوقحة هو مؤتمر بريوني .

— طبعاً .. لأنهم يعتبرون أن من لم يسر في فلكتهم ، فليس منهم .. لقد قال لي صبرى .. إن العالم في نظر الأمريكان ينقسم إلى قسمين لا ثالث لهما : قسم أمريكي ، وقسم شيوعي ، والذي ليس أمريكياً ، لا بد أن يكون شيوعياً . ونظرت « منى » بطرف عيناها إلى « جاني » ، ثم قالت بالعربية :

— وهل نحن شيوعيون حقيقة ؟

وأجابت « نادية » ، وهي تضحك من تشكك « منى » الدال على

جهلها .. وأجابت بالفرنسية :

— طبعاً لا .. نحن غير شيوعيين مطلقاً

— إذن لماذا يحبنا الشيوعيون ولماذا يعطوننا الأسلحة ؟

— لأنهم يؤيدون موقف الحياد الذي نقفه .

— ولماذا يؤيدونه .. ولا تؤيده أمريكا ؟!

— لأن أمريكا تحاول أن تكتل الدول في حزام يحيط بالدول الشيوعية .. كأنه

درع يمنع تسرب الشيوعية إليها ، أو واق يتلقى عنها الصدمة .

— من أنبأك هذا ؟!

— أنبأتني إياه معلوماً العامة ، يا جاهلة .. إن الحزام الذي أعنيه يتكوّن من

ثلاث قطع أو ثلاث حلقات .. الحلقة الأولى حلف الأطلنطي في أوروبا .

— والثانية ؟!

— حلف بغداد في الشرق الأوسط .

— والثالثة ؟

— حلف ما نيلا في جنوب شرق آسيا .

— قلت لي .. وماذا تريد منا أمريكا ما دامت قد كوّنت هذا الحزام ؟!

— تريد أن نتخذ مكاننا في الحزام .. لا تريد أن نسقط فتحدث به ثغرة ينفذ

منها النفوذ الشيوعي .

— وهل يريد النفوذ الشيوعي حقاً أن يتسرّب من هذه الثغرة ؟

— حتى الآن .. يكفيه جداً .. ألا يلتزم حوله الحزام في حلقات محكمة من

دول معادية له أو تسير في ركاب إحدى الدول .. يكفيه جداً أن تكون هناك

ثغرات .. من دول لا تعادية .. بل تقف معه موقف المحاييد .. الذى لا يشارك في

مهاجمته ويرحب بصداقته والتعاون معه ، كما يرحب بصداقة الطرف الآخر

والتعاون معه .

— وهل ستكتفى الشيوعية بهذا الموقف من الدول ؟ ألن تحاول أن تتسرب

إليها .. كما يتسرّب الماء في الورق النشاف .. ببطء وبساطة ؟

— جائز أن تحاول هذا .. فتلك طبيعة الأمور .. وأظن مهمة الدول

المحايدة .. مثلنا ومثل الهند .. أن تقاوم محاولات التسرّب وأن تحتفظ بحيادها

حقيقة .. وإلا ذابت كتل الحيايد .. وانهارت مبادئ التعايش السلمى .. والحيايد

الإيجابى .. وعاد العالم مرة أخرى إلى كتلتين متافرتين لا وسط بينهما ، وأصبحنا

« كأننا يا يدر لا رحنا ولا جينا » .

— ويصبح إحساس الأمريكان بالخذر من تصرفاتنا .. ومقاومتهم لا تجاه

الحيايد الذى نتجه .. إحساساً في موضعه .

— على أية حال كان يجب ألا يبدعونا .. بالشك .. والعداء .. وأن يفرقوا بين

اتجاهات القومية واتجاهات الشيوعية .. إنهم يتوهمون كل محاولة للتحرر من نفوذهم ، ارتقاء في أحضان الجانب الآخر .

وكانت أصابع « منى » ما زالت تدير المفتاح والأصوات المتنافرة .. و « الطقطقة » و « الخرفشة » ما زالت تتوالى من الجهاز .

وفجأة سمع صوت يأتى متقطعاً من بعيد وميزت أذن « نادية » فيه بعض كلمات عربية فهتفت بمنى :

— سمعت !؟

واقربت « نادية » من الراديو وتناولت من « منى » مفتاح الراديو قائلة :

— دعيه لى .

وقربت « نادية » .. أذنهما من الجهاز ، وأخذت تحرك المؤشر ببطء شديد حول المحطة التى صدر منها الصوت العربى .

وسمعت نبرات الصوت خافتة متقطعة .. وما لبثت حتى اتصلت .. وأدارت « نادية » المفتاح على آخره فعلا الصوت وازدادت النبرات وضوحاً .

— واستطاعت أذن « نادية » أن تميز الصوت يهتف قائلاً :

« أيها المواطنين .. حينما نتجه اليوم إلى المستقبل ، بعد سنوات أربع من الثورة . نتجه بقوة وإيمان .. نعتمد على الله ، ونعتمد على أنفسنا .. من أجل تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها هذه الثورة ، والتى كافح من أجلها الآباء والأجداد ، من أجل إقامة دولة مستقلة استقلالاً حقيقياً .. لا استقلالاً زائفاً ، استقلالاً سياسياً واستقلالاً اقتصادياً . »

وهنا غطى صوت على الراديو فقد اندفع « توفى » يصيح بجأى :

— جابى .. تصوّرى .. لقد أحضروا هنا أسطوانة « الفيس بريسىلى »

الآخيرة . أنتصوين هذا ! أترقصينها معى يا « منى » ؟

وصرخت فيه « منى » فى حدة :

— هس ..

وانحنى تونى ساخراً وأجاب :
— متأسف .. لم أكن أظن أن الوحي قد هبط .. عن إذنكم . إني أفضل
« ألفيس بريسللى » و ..

وعادت « منى » تصبح به :
— قلت لك صمتاً .

وعاد « تونى » من حيث أتى .

وحاولت « منى و نادية » معاودة الإنصات إلى الراديو ولكن الموجة ..
كانت قد اختلطت بموجات آخر .. وعادت الطقطقة ، والأصوات المتقاطعة
تتعالى من الراديو ، وعادت أصابع « نادية » تدير المفتاح فى بطء وحرص ..
ومضت فترة والموجة ضائعة بين غيرها من الموجات .. وغادرت « جالى »
مقعدها ، وأخذت ترقب لاعبى الشطرنج ، وبدا الملل على وجه « منى » ..
وأخذ سمعها ينصرف إلى أصوات الجاز المتصاعدة من الغرفة الأخرى .

وقبل أن تهتم بالنهوض ، عاد الصوت يهتف مرة أخرى فى حماس : « قناة
السويس التى ضحينا فيها .. قناة مصرية .. هذه القناة ملك لمصر .. فهى شركة
مصرية مساهمة ، حفرت بواسطة المصريين ، ١٢٠ ألف مصرى ماتوا أثناء
حفرها .. وكان المفروض أن نأخذ ١٥٪ من الأرباح فوق ٤٤٪ من الأسهم ،
ولكن مصر أدينت واضطرت إلى بيعها بمبلغ ٤ مليون جنيه ، وتنازل لإسماعيل عن
الأرباح ، فحصلت إنجلترا مجاناً على ٤٤٪ من الأسهم .

« إن دخل القناة ٣٥ مليون جنيه لآ تأخذ مصر منها سوى مليون جنيه ، اليوم
ستعاد حقوقنا فى قناة السويس .. ولن نلجأ إلى الاقتراض من تجار الحروب لكى
نقيم السد العلى ونبنى بلدنا بل سنبنيه بسوا عدنا ، ومن قطرات عرقنا ودمائنا
نحن أغنياء .. ولكننا كنا متهاونين فى حقوقنا .

« أما اليوم فسنسترد هذه الحقوق خطوة خطوة .. و .. » .
ووصل أحد الجرسونات ومال على « منى » وهم أن يقول لها شيئاً

فصاحت :

— ابعد الآن .. لا أريد أن أسمع شيئاً .

وهز الجرسون كتفيه وانصرف في دهشة .

وعادت « منى » إلى الإنصات ، وتعالى من الراديو هتاف كأنه بحر يجيش أو
سماء ترعد .. وبعد برهة صمت الضجيج وعاد الصوت يهتف في صوته الواصل :

« قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس :

باسم الأمة — رئيس الجمهورية :

مادة ١ — تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية إلى شركة مساهمة
مصرية .. وينتقل إلى الدولة جميع ماله من أموال وحقوق وما عليها من
التزامات ، وتحمل جميع الهيئات واللجان القائمة حالياً على إدارتها ويعوض
المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكون من أسهم وحصص بقيمتها
المقدرة عند صدور هذا القانون ويتم هذا التعويض بعد استلام الدولة لجميع
مهمات الشركة المؤممة .

مادة ٢ — يتولى إدارة ...

ومرة أخرى ضاعت الموجة .. وغلبت عليها صيحات بلغة غير مفهومة .. ثم
دقات موسيقى وحاولت « نادية » عبثاً أن تضبط الموجة .

وأقبلت « جاني » عليهما بعد أن انتهى دور الشطرنج وهتفت بهما قائلة :

— ما هذا الاهتمام العجيب ؟! كأنني بكما تستمعان إلى إعلان الحرب ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

— إلى إعلان التأميم وأنت الصادقة .

— أى تأميم ؟

— تأميم قناة السويس

— لست أفهم .

وأجابت « نادية » ، وهي تحاول ضبط مفتاح الراديو :

وسألت « جابى » فى دهشة :

— ولكن قناة السويس ملككم .

— أبداً .. لقد كانت ملكنا اسماً ، ولكنها ملك الناس كلهم عدانا فعلاً ..
لقد كانت دولة داخل الدولة .

وقالت « منى » :

— لقد جعلها « عبد الناصر » ملكاً للدولة المصرية بعد أن كانت ملكاً للدول
الأخرى .

وعادت « نادية » تدير المفتاح بأصابعها بمنة ويسرة حتى علا الصوت يهتف
من جديد :

« اليوم ، وقد عادت الحقوق إلى أصحابها بعد مائة سنة إنما تحقق التحرير
الحقيقى .. لقد بنيت القناة من أجل مصر ، ولكنها كانت منبعاً للاستغلال ..
وليس عيباً أن أكون فقيراً ، ولكن العيب هو امتصاص الدماء .

وأقبل « تونى » ووراءه « الشلة » وهم يتصايحون ويتضاحكون .

ثم هتف فى ارتياح .. كأنما يسمع عن جريمة ارتكبت :

— أم قناة السويس ؟!

ونظرت إليه « نادية » وتركت مفتاح الراديو من يدها وأجابت ببساطة
وسخرية :

— أجل أم قناة السويس .. القناة المصرية .. التى تجرى فى أرض مصر ..

أترأه قد ارتكب منكراً ؟

وصاح تونى :

— هذه سرقة .. هذه همجية .

وهنا ارتفعت كف « نادية » بلا وعى .. وهبطت عليه فى صفة مدوية ،

وهتفت وهى تضغط على نواجذها :

— السرقة هى ما تفعلونه منذ مائة عام .. والهمجية هى ما تفعلونه فى

الجزائر .

ومد تونى أصابعه يتحسس فى ذهول أثر الصففة المفاجئة على وجهه ، وقد
جحظت عيناه وفغرفاه وصاح مشدوهاً :
— متوحشة .. سأعرف كيف أؤدبك .

وهتفت « منى » بالعربية ، وهى تضحك ساخرة :
— أتتيل .

ومدت « جابى » يدها فجرت « تونى » للخارج لتضع حداً للمعركة قائلة :
— أنت الذى بدأت بإهانتها ياتونى .

وسار « تونى » وراءها ، وهو يتحسس أثر الصففة ويتلفت إلى نادبة
مذهولا ، وهو يتمتم :
— سوفاج .

وعادت « نادبة » تضبط الموجة وعلا الصوت الهاتف يقول :
« والآن أيها المواطنون ، يتجه إخوة لكم من أبناء مصر لإدارة القناة ، والآن
فى هذه اللحظة ، يتسلمون شركة القناة المصرية ويديرون ملاحظتها ، وهى جزء
من مصر ، نقوم بهذا العمل لنسترد حقنا المغتصب ، ونقيم السد العالى ونشيد
. صرح العزة والكرامة » .

(٣٦)

لا يمانع ...

لم تستطع رسالة « نادية » التى أشارت فيها لمحدث إلى احتمال رحيلها من « جاب » ، والتى حاولت أن تصده عن التفكير فى زيارتها .. أن توقف تيار هذا التفكير ، وأخذت الفكرة تنمو وتتضخم فى ذهنه ، وأخذ يهيبها لنفسه ويدفع إليها بالمبررات والعلل .. وازداد إحساسه بتلف معدته .. وبإرهاق أعصابه ، وبضرورة السفر إلى لندن .. لفحص معدته وعلاجها .. وبقضاء فترة استجمام يستريح فيها من الجهد المستمر المتواصل .

وكررت أشعته التى أجراها على معدته ، وزادت تحاليله ، ورغم سلبيتها فقد أقنع نفسه أن شيئاً ما .. موجود يباطنه يستحق العلاج والسفر .

وهكذا استطاع أن يقيم لسفره حجة قوية مقنعة .. لنفسه ولمن حوله .. وأن يبدو لزاء نفسه ، ولزاء الناس جاداً صارماً كما تعود أن يكون ، وأن يكبت تماماً ذلك الميل الخفى المتوارى الذى يكمن فى قرارة نفسه .. كما تكمن البذرة التى أنبتت النبات وأظهرت فروعه وأوراقه .. وبقيت هى متوالية .. بجذورها المندفعة فى باطن الأرض ، والتى تبعث الحياة فى كل برعم فى النبات ، وإن ظلت خفية مجهولة لا يحس لها وجود ..

وهكذا انتشرت فى نفسه فكرة السفر كما ينتشر النبات بفروعه وأوراقه ، وكأن ساق النبات ومحوره ودعامته الظاهرة هى فحص معدته وعلاجها .. يقوية ويؤيده ما تسببه له من منغصات ومتاعب .. وإرهاقها الدائم فى بضع السنوات الأخيرة .

أما البذرة الخفية .. التى لم يحاول هو نفسه النيش حولها ، فكانت

« نادية » .

« نادية » .. المجهولة .. النائية .. التي تسربت إلى أعماقه ، والتي بات يحس بأنها أشد الناس قرباً إليه وارتباطاً به ، والتي أصبح يعرف كل تفاصيلها ودقائقها .. كأنها لم تفارقه لحظة .

« نادية » .. التي يعرف كيف تحس وكيف تعيش ، وهو الذى لم يأبه لحظة أن يشغل نفسه بإنسان على وجه الأرض .. سوى نفسه .

« نادية » التي يعرف شكل حجرتها .. الفراش الخشبي العتيق .. الذى كانت تنام عليه أمها وهي فتاة .. بنقوشه وزخارفه ، والتسريحة العالية المستقرة في ركن الغرفة .. المحفورة بالزهور « الأويما » ، والمقعد الكبير طراز « لوبكانز » والباب الزجاجى المؤدى إلى الشرفة الخشبية المطلة على حقول الكرنب والبنجر ، وحظيرة المواشى ، وقمم الجبال تبدو في الأفق بيضاء مختلطة بالسحب ، والأشجار المتكاثفة على سفح الجبل .

« نادية » التي يكاد يعرف كل حركة من حركاتها ، وكل سكتة ، والتي يراها كل يوم تنحدر بحقيبتها في المنحدر المؤدى من « روميت » إلى مدخل البلدة ، وتسير بجوار سور سكة الحديد حتى تصل إلى المدرسة المطلة على المحطة . إنه يكاد يعرف منظر المحطة .. بكل ما فيه من تفاصيل . حتى هذا الحمال الذى تعود أن يرتدى المعطف الكاكي و « يكبس » القبعة حتى أذنيه ويدفع أمامه عربة الأحمال الحديدية الصغيرة .

« نادية » التي يعرف عنها .. أكثر مما يعرف عن أصدق أصدقائه .. وأقرب أقربائه ، والتي يحس بوجودها معه أكثر مما يحس بأمه التي تعيش معه تحت سقف واحد ولا يفصل حجرتهما سوى جدار رقيق .

كانت بنفسه لفة إلى رؤيتها ولقائها والحديث معها .. وإلى تحقيق الدعوات الوهمية التي دعت إليها .

كانت بنفسه لفة إلى أن يصعد معها الجبل ، ليجلسا على شاطئ البحيرة ،

يوقدان النار ويطهوان الطعام .
 كانت بنفسه لهفة إلى أن يذهب معها إلى النادي ، ليلعب التنس ويشرب الشاي .
 كانت بنفسه لهفة إلى أن يجلس معها أمام المدفأة يناقش حديثها ، ويحدث أمها .. ويتلقى مشاكسات أختها .
 ومع كل هذه اللهفات .. لم يحاول قط أن يبرز لنفسه أو لمن حوله .. فكرة زيارتها كعلة للسفر .. بل طواها .. كأنها شيء لا وجود له .. وكأن سفره .. لم يكن أبداً إلا للعلاج والاستجمام .
 وبدأ يتخذ خطوات إيجابية للسفر .. على الأساس الواضح .. فاتصل بالدكتور « نتر » في لندن ، وكتب إليه بضع مرات .. وأخذ يعد جواز السفر ، ويسأله عن ترتيباته ووسائله .. وحصل من شركة السياحة على بضع خرائط لجنوب أوروبا وإنجلترا .
 وخلا إلى نفسه ذات عصر في مكتبه بالمستشفى ، وأخرج إحدى الخرائط وأخذ ينظر إليها نظرة فاحصة .
 وركز عينيه على المنطقة الجبلية في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا وبدأ يبحث عن نقطة بذاتها .
 واستطاع أن يقرأ بالحروف الإنجليزية الكبيرة Hautes Alpes وأخذ يتبع الحدود الرأسية التي تخترق الجبال فاصلة بين فرنسا في جانب ، وسويسرا وإيطاليا في جانب آخر .. وأخذ يتبع الحدود من الجنوب إلى الشمال حتى وجدها تلتقى ببحيرة « ليان » .. وهبط بصره مرة أخرى يفحص الجزء الفرنسي من الجبال .. وبرزت أمامه مدينة « جرينوبل » .
 لا بد أن تكون « جاب » قرية من هذه المنطقة .. فقد حدثته عنها « نادية » في عدة مناسبات ، ليهبط إذن مع خط سكة الحديد .
 هذا تقاطع سكة الحديد جنوب « جرينوبل »

هذه بلدة « فين » . وهذه بلدة ..
 وفجأة بدت له « جاب » بحروف صغيرة .
 وتملكه إحساس بالسعادة ، وهو يرقب الحروف الثلاثة الصغيرة ، وأخذ
 ينظر إلى النقطة السوداء .. وانطلق خياله يجسد ما وعته ذاكرته من مناظرها ..
 قمم الجبال ، والأسقف المنحدرات ، والمداخن .. و .. و ..
 وإنها ليست بعيدة عن طريقه .
 أجل .. لو أنه سافر بالباخرة .. فسيهبط إلى مرسليليا .. لكي يذهب إلى
 جنيف أو باريس !
 وهو لا بد أن يذهب إلى إحداها أو كليهما .. لأنه يحب ألا يترك الفرصة تمر
 دون أن يرى هاتين العاصمتين الكبيرتين .
 أجل .. إن المفروض عليه أنه ذاهب للعلاج ، والاستجمام .
 وهو ليس مصاباً بمرض ملحّ عاجل يستدعى الطيران فوراً إلى لندن .. فلا
 شيء إذن يدعوه إلى الاستعجال ، بل إن مرضه قد يكون خير علاج له ، مجرد
 الاستجمام والراحة ، والتجوال في هذه المناطق الجبلية الرائعة ، قد يغنيه عن
 العلاج نفسه .
 والمدينة الصغيرة .. لا تبعد كثيراً عن طريقه من مرسليليا إلى جنيف أو إلى
 باريس .. فهو يستطيع أن يهبط في « فين » ثم يذهب إليها يوماً أو بعض يوم .. ثم
 يعود مرة أخرى إلى طريقه الأصلي .. دون أن يبدو عمله .. غير طبيعي .
 غير طبيعي ؟
 لمن ؟
 أهو مسئول أمام أحد ؟
 أهناك من يحاسبه .. ويحدد له الطريق الطبيعي ، وغير الطبيعي ؟ إنه حر في
 أن يذهب حيثما شاء ، وقتما شاء .
 وفي أن يذهب ليستجم في أى مكان .. فبشى .. أو جنيف أو زيورخ .. أو ...

أجل . أجل . كل هذا معقول . معقول . ولكن ليس في « جاب » .
 إن « جاب » هذه لم يسمع أحد بها من قبل ، ولا عرف عنها أنها مكان
 للاستجمام أو الاستشفاء .

فأى علة يعلل بها سفره إليها !
 ولكن من الذى يطلب التعليل ؟!
 نفسه !

والناس من حوله !

بل « نادية » نفسها .. وأهلها !
 إن المعقول أن يمر بها .. وهو في طريقه إلى مكان ما .. أما أن يذهب خصيصاً
 إليها .. فشىء يبعث على الريبة .. والشك .
 إن شخصيته ، وكبريائه .. واستخفافه بالمبول الحادة .. لا تقبل منه مثل هذا
 العمل .

لو أن « جاد الله » مثلاً .. قد أقدم عليها .. لما لامه أحد ! بل لبدا .. ذلك
 منه .. حماقة طبيعية .. لا تستبعد من صاحب حماقات .
 وكما يقول المثل .. « العيب من أهل العيب مش عيب » . فالحماقة من أهل
 الحمق ليست حماقة ، أما منه فهي حماقة كبرى .
 ومع ذلك فهو سيسافر .

وسيسافر بالسفينة .

وسيهبط في مرسيليا .

ويأخذ سكة الحديد المتجهة شمالاً .

وسيهبط في « فين » .

لأى سبب !! ولأية علة !!

وسياخذ القطار إلى « جاب » ، وسيلقاها .

سيلقى « نادية » .. وسيسلم عليها ، ويضحك معها .. ويذكرها

برسائلها .

وأحس بسعادة غامرة ونشوة لذيذة .

إنها لا شك ستحس بنفس السعادة وبنفس النشوة .

ولكنها تقول إنها قد تسافر في ذلك الوقت .

ما أغباها !.. ما الذى يضطرها إلى السفر في هذه الفترة ! لماذا لا تؤجله ؟ ربما لأنها لا تملك التأجيل .

لا بد أن أمها ، ونخالتها وجدتها .. دبرن أمر السفر في هذا الموعد . فلماذا لا ترفض هي ؟

ولكن هل تستطيع ؟!

ولم لا تتأرض مثلا .. أو تتذرع بأى عذر ؟!

مثل ماذا !

هل تجسر أن تقول إنها تنتظر زيارته ؟!

طبعاً لا ..

من يكون هو .. بالنسبة إليها .. حتى تؤجل سفرهم من أجله ؟

إنه في نظرهم إنسان مجهول .

مجهول .. بقدر ما هي مجهولة .. ممن حوله .

والتعارف الباطنى الذى حدث بينهما .. لا يحس به أحد سواهما .

ولكنها تقول .. قد ..

أى أنها قد تسافر أو لا تسافر .

فلماذا يزعج نفسه .. بتأكيد الاحتمال الأول .. احتمال السفر !.

لماذا لا يتصرف على أساس الاحتمال الثانى ، وهو بقاؤها ؟

ولكن هب أنها سافرت !!

لتفعل ما تريد ...

لقد عرض عليها هو فرص اللقاء .. فإذا كانت قد رفضتها .. فلتنفلق .

وتملكه إحساس بالشفقة عليها .

وود لو كانت بجواره ليربت على ظهرها ويضمها إليه في عطف .

ما ذنبها حتى تنفلق ؟!

على أية حال إن خير ما يفعله هو أن يسافر ، وليحدث ما يشاء .. إنها لا شك ستبذل كل ما تستطيع للبقاء .. إذا رأت منه تصميمًا على السفر .. وإذا لم تغلح في البقاء .. فلن يمنعه ذلك من السفر .

إنه لن يخسر كثيراً إذا هبط في « فين » ، وذهب ليقضى بضعة ساعات في « جاب » .

ليشاهد فيها جبالها ، وبحيرتها وشوارعها .. ويرى بيت « نادية » ومكتبها المطل على المحطة .

أجل .. إنها متعة .. أن يشاهد كل تلك الأماكن التي صورتها له ، ويطوف بها ويتنسم هواءها .. سيكون أقدر على تصوّرها .. إذا ما دعت إليها بعد ذلك ، وستدهش هي عندما يكتب إليها بعد ذلك عن بلدتها .. كتابة العارف الواثق . وستضيق عندما تعرف .. أن الفرصة سنحت للقائهما ثم ضاعت .

ولكنه سيطمئن .. بأنه لا بد أن يلقاها ثانية .

أجل .. إن لقاءهما في رأيه قد بات أمراً محتملاً .

إن ما بينهما من رباط وتفاهم ، وود وصداقة .. و .. و ..

ولماذا لا يقول حياً ؟

لماذا يحس بالخجل من هذه الكلمة !

لقد سبق أن اعترف فيما بينه وبين نفسه أنه يجبها ، فلماذا يحاول أن ينحى

الكلمة عن شفثته ؟

إن هذه المشاعر الجياشة العميقة التي رسبت في نفسيهما لا يمكن أن تبدد في

الهواء .

لا يمكن أن تنتهي إلى لا شيء .

إلام يمكن إذن أن تنتهى ؟!
 إلى .. إلى ..
 هو نفسه .. لا يمانع .
 لا يمانع أبداً .. من أن يشد نفسه إليها .. مدى العمر .
 لا يمانع أبداً .. من أن يضعها ذلك الموضوع الذى أبى أن يضع فيه أحداً ..
 موضع المكبل لحرية .. المسيطر على أوقاته .
 إنه يحس أنها أكثر المخلوقات فى هذا العالم ملاءمة لهذا الوضع .
 إنها لطيفة ذكية .. حساسة رحيمة .
 إنه يحب كل ما بها .
 كل كلمة ، وكل تصرف ، وكل تفكير .
 يحب كل لحظة فى صورها .. وكل لفظة .
 وهو من أجل هذا لا يمانع أبداً فى أن يرتبط معها بوثاق دائم ، ورباط أبدي
 مقدس .
 إنه لا يخشى منها على نفسه أبداً
 بل هو يتوق إليها .
 إلى هذه الصبية الشقراء .. التى لازمتها فى أفكاره وغدواته وروحاته طوال
 الأشهر الماضية .
 ولكن هل هى ترحب بهذا ؟!
 ولِمَ لا ؟!
 إنها لم تطرق قط هذا الموضوع من قريب أو بعيد .
 والمفروض أنها لا تطرقه .. ما دام هو لم يطرقه .
 ولكنها أيضاً لا تطرق أى موضوع عملى .. كل حديثها أوهاوم فى أوهاوم .
 أيمكن أن تكون هى نفسها وهماً !!
 وأحس بمرارة أليمة .. كأنما يوشك أن يفقد أعز ما عنده .

ما هذا السخف !!

أبعد كل هذه العلاقة .. يعود إلى التشكك في حقيقتها ؟!
لماذا إذن لم تقل له في خطاباتنا ما يؤدي إلى شيء ؟!

مثل ماذا ؟

إنه لا يعرف ماذا تقول الفتيات في هذا الموضوع !!
ولكن لا بد أنهن يقلن شيئاً .. يدفع الرجل .. إلى أن يخطو خطوة عملية .
أما هي .. فتحدث دائماً .. في الهواء .
على أية حال .. عندما يلتقيان .. لا شك سيكون المجال أكثر ملاءمة ،
والنفوس أكثر شجاعة ، وإقداماً .

إنه لن يترك هذه الفرصة تمر .. دون أن يفعل شيئاً .
وهو لا شك سيراه عن كثب ، ويرى أسرتها .. وهو واثق .. أنه لن يخذله
شيء .. لأنها أطلعته على كل دقائق حياتها

هذا إذا كانت لن تسافر .. وإذا كان سيلتقى بها .

فإذا حدث العكس .. فماذا تراه صانعاً ؟

أسيبتظر إلى أن تحين فرصة للسفر في الصيف القادم !
أسيبتظر عاماً آخر ؟!

لا .. لا !!

سيكتب إليها بطريقة عملية أكثر من هذا .

وسيتطلب منها زيارة القاهرة .

ومع ذلك فهو يحس أنه سيلقاها ، عند سفره إلى « جاب » .

إنه واثق أنها لن تخذله .

ليست هي النوع الذي يخذل أبداً .

ستبقى لتنتظره .. ولو أدى ذلك إلى أن تفعل المستحيل .

وإنها تحبه كما يحبها .

— ٤٥٩ —

لم تقل هذا مرة واحدة .. ولكنه يستشف من كل كلمة نكتبها ، ومن كل سطر تضمنه رسائلها .

لم تقل له مرة واحدة أنها تحبه .
ولكنه يعتبر حينها مسألة بدهية مسلماً بها .. لا تحتاج إلى قول .. أو تدليل .
إنه يحس من رسائلها .. أنه الإنسان الوحيد الذى يعنيا أمره .. والذى ربطت به حياتها .

إنها قد باتت تسأل .. أتذهب إلى هذه الحفلة أم لا تذهب ؟ وهل ترتدى هذه البلوزة أم تلك ؟! وهل هى محبة فى خصامها مع أختها .. أم مخطئة ؟
أبعد هذا يشك فى أنها تحبه .. وأنها تحس له نفس الإحساس وتكن له نفس الرغبة ؟!

سيسافر إليها .. لن يمنعه شئ من السفر .
وأمسك القلم ورسم دائرة حول البلدة وأخذ يجرى بالقلم على الطريق الموصل إليها حتى وصل إلى مرسلها .
ولم يكد القلم يقف على نقطة مرسلها حتى سمع صوتاً يهتف من ورائه ضاحكاً : — ما شاء الله .. أقد انتهيت من رحلتك وعدت ثانية إلى مرسلها ؟ .
ونظر مدحت ليجد « جاد الله » يقف وراءه مطلا على الخريطة مشيراً إلى الخط الأسود الذى رسمه بين مرسلها وجاب ..
وعاد جاد الله يقول ساخراً :

— ومعدتك .. هل أجريت عملية القرحة بواسطة أحد حلاقى الصحة
بجواب ؟

والفتت إليه مدحت وقطب ما بين عينيه حتى التقى حاجباه الكثيفان وصاح
به :

— ما هذا السخف !! أى عملية هذه التى سيجريها حلاقى الصحة ؟
— هل تظن أن هناك فى هذه القرية المرتفعة فى أعلى قمم الألب أكثر من حلاق

— ٤٦٠ —

صحة ؟

— من قال إنها قرية .. يا حيوان .. هل ظننتها « منية السرج » التى نشأ بها

أهلك ؟!

— ماذا ستكون أكثر من ذلك ؟!

— إنها بلدة محترمة .. بها دور سينما ، ونوادى .

— مفهوم .. مفهوم .. وبها مستشفى من أكبر المستشفيات ، وبها أطباء

عالميون سيفحصون معدتك .

— ومن قال إني سأفحص معدتى هناك ؟!

— إذن لماذا ستذهب إلى هناك ؟!

— سأمر عليها فى طريقى .

— آه .. فهمت .

— سأنزل فى « فين » ثم أستقل القطار الذاهب شرقاً . هل تراه ؟!

— لا أرى شيئاً .. وماذا ستفعل ؟

— سأبقى يوماً .. أو بضع ساعات .. حسب الجو .

— ثم ؟!

— أعود إلى « فين » ، وأستقل القطار إلى جنيف .. أو إلى باريس .. ثم

أذهب بعد ذلك إلى لندن .

— ومتى تنوى أن تقوم برحلتك البلهاء ؟!

— لماذا تقول عنها بلهاء ؟!

— لأنى لا أرى لها مبرراً أبداً ولا سيما فى مثل هذه الظروف .

— أى ظروف ؟!

— الظروف السيئة التى نمر بها .

— ومالى أنا ولهذه الظروف ؟!

— ألا تعرف أن إنجلترا دعت الدول المتفعنة بالقناة لإصدار قرار فى مسألة

- التأميم ، وأن المؤتمر منعقد الآن في لندن ؟!
- لينعقد أو ينفذ .. مالى أنا به .
- هل تظن أن الوقت سيكون ملائماً لكى تذهب للعلاج في لندن وسط هذه العواصف ؟!
- مادام الدكتور « نتر » لن يشترك في المؤتمر ، وأغلب ظنى أنه لن يعرف أن هناك مؤتمراً سينعقد من أجل القناة ، فإني أستطيع أن أذهب إليه كى يفحصنى فى أى وقت .
- إن الجو السياسى ملبد بالغيوم ، والصحف تقول إن إنجلترا قررت أن تدعو الاحتياط ، وأن سفن إنزال الجنود وناقلات الدبابات تتحرك إلى جهة مجهولة .
- وإيه يعنى .
- وإن فرقة مشاة كاملة نقلت بالطائرات إلى قبرص .
- لماذا كل ذلك ؟ أمن أجل .. أن شركة قناة السويس المصرية التى كان مفروضاً أن تكون ملكنا بعد بضعة سنوات .. قد أئمنها !
- وسندفع تعويضات لأصحاب أسهمها .
- ما الذى يزعجهم إذن ؟
- يزعجهم المبدأ نفسه .. يزعجهم أن يتقوض نفوذ إنجلترا إلى الحد الذى لن تستطيع بعده أن تستولى على إدارة القناة .. التى ظلت إنجلترا ترفع عقيرتها وسط العالم .. بأنها شريائها الحيوى .
- ولماذا يحركون كل هذه الأساطيل ، وينقلون كل هؤلاء الجنود ؟!
- لأجل أن يستعيدوا القناة بالقوة .. إنهم لا شك يضربون أنفسهم بالنعال .. لأنهم جلوا عنها .
- وهل تظنهم يجرعون على مهاجمتها فعلاً ؟!
- ولِمَ لا .
- كلام فارغ .

— ٤٦٢ —

- إن أى هجوم منهم سيغلق القناة .
- وسيضع كل بترولهم فى أيدينا .. لأن العرب يستطيعون تحطيم كل أنابيبه .
- كل هذا وتقول إنهم سيهاجمون القناة !
- أنا لم أقل إنهم سيهاجمونها، وإنما قررت واقعاً وهو أن هناك حركات حشد .
- تهوئش .
- ليكن .. المهم .. أنه ليس من المناسب أن تسافر فى هذا الجو الملبد بالغيوم ، والذي تجرى فيه على أقل تقدير .. حركات تهوئش .
- ليس لى دخل بكل هذا .. إنها زوبعة فى فنجان .. وستنتهى إلى لا شيء .
- إلى هذا الحد قد أصررت على السفر .
- أجل .
- أحقاً من أجل معدتك ؟! قل الحق .
- وتردد مدحت قبل أن يجيب وهو يعبث بقلمه فوق الخريطة :
- إلى حد ما .
- ورفع جاد الله كتفيه مسلماً وقال :
- سافر .. ما دمت تحس بالرغبة فى السفر ، وإن شاء الله سينتهى كل شيء على خير .. لن تكون المسألة أكثر من زوبعة فى فنجان كما قلت .. إن إنجلترا تحاول أن تلعب بسلاح التهوئش الذى كانت تلعب به فيما مضى .. هل تذكر بضعة الدبابات التى حركها « كيلرن » إلى القصر .. ليفرض بها الوزارة التى يريدونها ..
- أجل .
- إن عقليتهم لن تتغير ، ولكنهم فقط يعتبرون أن الحاكم الآن أقوى .. فهم يحركون له .. قوات كبيرة .
- بالضبط .. هذا ما يفعلونه ، وستنتهى حركاتهم إلى لا شيء .
- ومتى نويت السفر ؟

— عندما ينتهى جواز السفر ، وأعرف مواعيد البواخر ، وأجهز بعض لوازم السفر .

— ماذا تنوى أن تحضر لى معك ؟ .

— من جاب ؟

— من لندن وباريس وجنيف يا غبى .. فأنا لا أريد عيش و « سلاطين لبن » .. إني أستطيع أن أحضره من « منية السرج » التى لا تعجبك .
— ماذا تريد أن أحضر لك .

— ساعة من جنيف ، وامرأة من باريس ، وإذا لقيت المستر إيدن .. فاسأله أين تعلم الردح والشرشة .. إن خطبه التى شتم فيها « جمال عبد الناصر » تدل على أنه نشأ فى « حوش بردق » لندن .. لقد فقد سمعته كجنتلمان بعد هذه الشلقنة .

وانصرف الصديقان ، وفى الليل جلس مدحت يكتب لنادية ، ويؤكد لها قرب مجيئه .. سواء أكانت فى « جاب » أم لم تكن .

وفى الصباح أسقط مدحت رسالته فى صندوق البريد ، وبعد نصف ساعة .. سقطت رسالتان أخريان فى صندوق بريد مختلفين تحملان نفس العنوان .

إحداهما وضعها صبرى .. ينبىء فيها « نادية » أن التعبئة العامة قد أعلنت فى مصر ، وأن جيش التحرير قد أنشئ وأنه قد انضم إليه .. وهو يتدرب يومياً على ضرب النار ، ويخبرها أن مصر كلها تقف لتشد أزر « جمال عبد الناصر » ، وتحافظ على أضخم ربح حصلت عليه مصر وهو قناة السويس .

أما الرسالة الثانية فقد كتبها « عصام » إلى « منى » ينبئها بأنه سيرحل غداً إلى القسمية مع كتيبة السيارات .. بعد أن استكملوا معداتها ، وأنهم متخذون كل أهبة لصده أى محاولة لإسرائيل للصيد فى الماء العكر .

(٣٧)

تدبير للمقاء !!

جلست « نادية » فى حجرتها تقرأ رسالة مدحت ، وقد وقفت وراءها « منى » .. ولم تكدر تنتهى من قراءتها حتى سقطت الرسالة من يدها واستغرقت فى شروود شديد .. وهبطت « منى » فى استرخاء على المقعد الكبير ، ومدت ساقها ، وتركت رأسها يسترخى على صدرها ، وقالت كأنما تحدث نفسها :
— جالك الموت يا تارك الصلاة .

وطوت « نادية » الرسالة ، وهى تتسائل فى يأس :

— وما العمل ؟!

وصمت « منى » برهة وبدا عليها الاستغراق فى التفكير وأخيراً تساءلت قائلة :

— اسمعى يا نادية .. هل تحبينه حقيقة ؟!

ورفعت « نادية » حاجبيها فى دهشة وتساءلت :

— وماذا يجدى هذا الآن ؟!

وعادت « منى » تتسائل فى إلحاح :

— أجيبي علىّ أولاً .. هل تحبينه حقيقة ؟ أعنى هل تريدينه هو أم تريدين عملية الحب التى نسجتها أوهاملك .. وخلقتها خيالاتك وأحلامك ؟! .. هل تتمنين أن تعيشى معه أم تفضلين أن تهيمى فى قصة حبه ؟!

ونظرت إليها « نادية » حانقة وأجابت فى امتعاض :

— لست أدرى معنى لهذه الأسئلة السخيفة التى تسألينها .

— إنها ليست أسئلة سخيفة .. إنها ستحدد طريقة تصرفنا معه .

— كيف ؟!

— إذا كنت تريدني حقيقة .. فقابلني .. وضحي له كل شيء .. واعتذري
عن خدعة الصورة التي أرسلتها إليه .

وبدا الارتياح على وجه « نادية » وهتفت في فزع :

— أقباله ؟

— أجل تقابلني .. لِمَ لا ؟!

ونظرت « نادية » إلى المرأة المواجهة لها وجذبت عن رأسها الإيشارب بحدة
وأخذت تتحسس آثار الحريق في عنقها وقد اختلجت شفتاها وبدت في ملامحها
تقلصات بكاء وأجابته هامسة وهي تغالب دمعها :

— كيف أقباله ؟!

— إذا كنت تريدني حقاً .. فيجب أن تقابلني .. يجب أن تعرضني نفسك
للتجربة .

ودفنت « نادية » رأسها بين كفيها وهي تحاول أن تكبت رجفات بكاء
توشك أن تهز جسدها ..

واستمرت « منى » تقول :

— إنها على أية حال .. خير من ذلك اليأس اللانهاي الذي تهيمين فيه. إن
التجربة .. ستوصلك إلى شيء .. قد يكون في صالحك .. ألا يحتمل أن يظل على
حبك كما أنت ، فتربحين سعادتك وهناءك وحياتك .

وهزت « نادية » رأسها وأردفت في نبراتها اليبوسة :

— ويحتمل أن يفجع في .. فأفقد كل شيء وأهدم كل ما شيدته من الأمان
وأبدد كل ما عشته من أحلام .

— وإلى متى ستظلين هائمة في قصور أمانيك ؟!

— إلى ما لا نهاية .

— ليس هناك شيء بلا نهاية حتى أمانينا وأحلامنا .

— ٤٦٦ —

وصمتت « منى » برهة ثم هزت رأسها وتساءلت فى عجب :
 — أنت عاقلة يا نادبة .. أعقل منى ومن كل البنات اللاتي نعرفهن .. فلماذا
 يقف عقلك خارج حدود أحلامك ! لماذا تسوقين النصيح إلى وإلى كل من
 حولك .. وتأين أن تسوقى النصيح إلى نفسك ؟
 وأجابت « نادبة » متسائلة فى مرارة :
 — وبم تريدن أن أنصح نفسى ؟
 — أن تكفى عن هذه الأوهام التي تعيشين فيها ، وتضعى نفسك فى الأمر
 الواقع .

وعادت « نادبة » تتساءل فى نفس المرارة :
 — وأفقد أعز ما ملكت فى حياتى .. أفقد أمتع إحساساتى .. وأجمل
 مشاعرى ؟!
 وضمت « منى » ركبته إلى صدرها وهزت رأسها فى حيرة وقالت
 متسائلة :

— إذن ما العمل ؟! ألا تستطيعين إيقاف مجيئه ؟!
 — لقد حاولت فى رسالتى السابقة .. ولكنه يصير كما ترين على المجيء .. حتى
 ولو لم أكن موجودة .
 — إذن نسافر .

— إلى أين ؟!
 — إلى أى ناحية .. إلى « جرينوبل » إلى « بريانسون » .
 — هل تظنين السفر بمثل هذه السهولة ؟. هل نستطيع أن نقتنع « ماما » به ؟
 وماذا نقول لها ؟ أنقول لها إننا نخشى مجيء مسافر من مصر ؟ ثم متى نسافر ..
 ومتى نعود ؟! وهو كما ترين لم يحدد موعداً معيناً ، لو أننا نعرف بالضبط مواعده
 لاستطعنا أن ندبر الأمر .
 — إنه قد يرسل تلغرافاً .

— هبيه لم يرسل !

وساد الوجوم الفتاتين .. وبعد لحظة رفعت « نادية » رأسها وقالت في صوت خافت ولهجة تنم عن الخطورة :

— اسمعى يا منى .. إن لددى حلا .. لست أدرى ما رأيك فيه !

— ما هو ؟

ولم تجب « نادية » .. وبدا عليها الشرود ، وقالت « منى » تستحشها :

— لم تقولى ما هو ؟!

وتركت « نادية » مقعدها ، واقتربت من « منى » وجلست على حرف المقعد الكبير وقالت متسائلة في نبراتها الشاردة :

— لماذا لا تقابلينه أنت ؟

وقفزت « منى » وهتفت « بنادية » متسائلة :

— أنا ؟

وجذبتها « نادية » من ذراعها وأجلستها على المقعد وعادت تقول في هدوء :

— أجل أنت .. لماذا لا تقابلينه ؟

— أجننت يا نادية !!

— لماذا يا منى يا حبيبتي .. ألسنت أنت نادية التى يعرفها من صورها ؟

ووقفت « منى » أمامها وأشارت بإصبعها مخدرة وأجابت :

— اسمعى يا نادية .. إلى هنا وكفى .. لقد وافقتك على مسألة الصور .

وقلت إنها لا تقدم ولا تؤخر ، وإن صورتك وصورتي لا تفترقان كثيراً .. وإن المسألة كلها مجرد لعبة تمكين بها فراغك .. ومصيرها ينتهى . أما أن أنتحل شخصيتك وأمثل دورك .. فلا .

— من قال إنك ستتحلين شخصيتى .. ليست المسألة بمثل هذه الشناعة التى

تصورينها .

— ماذا تكون إذن ؟!

— ٤٦٨ —

- إنك ستوبين عنى فى لقائه .
- وأين تكونين أنت ؟!
- معك .. باعتبارى منى .
- ما شاء الله .. أتظنين الحيلة ستنتطلى عليه ؟
- أية حيلة .. إننا لن نجهد أنفسنا فى شىء .. وأؤكد له أنه .. إذا حضر حقاً .. ولقينا نحن الاثنين .. فإنه ببساطة سيحدثك على أنك نادية .. لأنك أنت التى انطبعت صورتك فى ذهنه .
- وماذا ستفعلن أنت ؟!
- سأعرفه بنفسى على أنى « منى » .. وسأحاول أن أتصرف كما تتصرفين أنت .
- والتفتت إليها « منى » رافعة أحد حاجبيها متسائلة فى خبث :
- وكيف أتصرف أنا ؟
- بخفة وطيش .. وشقاوة .
- أنا .. أنا التى أتصرف بخفة وطيش .. بعد كل هذا العبث الذى فعلته .. والطيش الذى تنوين فعله .. تتهمينى بالخفة والطيش ؟!
- إنه مأزق انزلقنا إليه ، ولا بد لنا من علاجه بطريقة ما .
- وصمت « منى » برهة وأخذت تقلب الأمر فى ذهنها .. وما لبثت حتى هتفت فى عناد :
- لا ياسى .. أنا لست مجنونة .. من يدرينى ماذا يفعل بى هذا الجزار المتجهم ؟!
- لا تكوفى مجنونة .. ماذا يستطيع أن يفعل بك ؟!
- يقطع لى زوراً أو معدة
- يقطع لك زوراً أو معدة ؟. هل تظنينه يمسك « سكيناً » فى يده ..
- ويطوح به فى خلق الله .. إنه جراح وليس جزراً .

— من يدري .. ربما اكتشف بى سرطاناً وأصرَّ على قطع أحد أعضائى .
 — بعد الشر عنك .. كفى عن هذا المزاح السخيف .. إننا نتكلم حقيقة .
 — إذا كنا نتكلم حقيقة .. فهى أنه حاول أن يمارس معى بعض مظاهر
 الحب .

— حب ؟ ..
 — أجل حب ؟ .. لماذا تنطقينها بمثل هذا الاستغراب والدهشة .. أليس
 المفروض أنه يجبك ؟
 — من قال هذا ؟
 واستدارت « منى » لتواجه « نادية » وقبضت على ناصية شعرها وقالت
 منذرة :

— اسمعى يا « نادية » .. ماذا تظنينه قد دفعه إلى أن يصر على زيارة
 « جاب » ! ليرى الآثار الرائعة .. أم ليحضر المؤتمرات العالمية ؟! ماذا عندنا فى
 « جاب » يدفعه إلى أن يجشم نفسه لزيارتنا ؟!
 — إنه لن يأتى إلينا خصيصاً .. إننا فى طريقه إلى لندن .
 — كذاب .. كذاب .. إننا ليس فى طريقه إلى لندن أبداً .
 — إنه يتنزه ويستجم .
 — هناك أماكن للاستجم والتنزه .. كثيرة .. غير « جاب » .. لماذا لم يذهب
 إلى « فيينا » ؟.

— ربما سيذهب .
 — اسمعى .. إذا كنت ستصيرين على هذا البلف .. والاستعباط .. فتفضلى
 قابليه وحدك .. تحمليه وحدك .. ودعيني فى حالى .
 واقتربت « نادية » منها وضمتها إلى صدرها وقبلت رأسها وقالت تهدئها :
 — لا تغضبى يا منى .. حقك على ، قولى .. ماذا تريدن ؟
 وصمتت « منى » برهة تفكر ، وقالت ، وهى تهز رأسها فى حيرة :

— ٤٧٠ —

— نستئيني ماذا كنت أقول ؟

— كنت تقولين .. هبى أنه حاول أن يمارس معك بعض مظاهر الحب .

وهتفت « منى » بلهجة المتذكرة :

— أجل .. هبىه قد فعل .

وهزت « نادية » رأسها مستفسرة وتساءلت :

— مظاهر الحب .. مثل ؟.

— مثل !؟ ألا تعرفين مظاهر الحب حتى الآن .. يا غبية تقبيل مثلا .. هبى

أنه حاول تقبيلي .. ماذا أفعل !؟

وأحست « نادية » بشيء يعتصر في باطنها .

ماذا تفعل !؟

إن مظاهر الحب ليست هى المشكلة وإنما جوهره هو المشكلة .

ماذا تفعل .. إذا أحب « منى » فعلا .. وهو لا شك فاعل ؟

ماذا تفعل إذا تعلق بها .. كصورة مجسدة ، للوهم الذى أحبه .. « لنادية »

التي كتبت إليه .. ودعته .. وطافت به سفح الجبل ، وشاطئ البحيرة ..

ومرحت وإياه في دفء الشمس ، وناجته أمام المدفأة في سكون الليل !

ألم يكفها أنها منحتة صورة غير صورتها حتى تمنحه كائنة غيرها ؟!

ولكن .. هل كانت تملك غير ذلك !؟

هل كانت تملك أن تمنحه صورتها هى .. وهل تجسر الآن على أن تلقاه ؟!

لقد سبق أن سلمت أن المسألة بوضعها المادى .. قد باتت مستحيلة بعد أن

شوّه الحريق عنقها .. ولم تجد لها عزاء عن يأسها المطبق سوى الصلة الروحية ..

واللقاء الوهمى الذى أضحت تمارسه في رسائلها .

وكانت « منى » في العملية كلها مجرد أداة معاونة .. بصورتها .. في الرسائل

السابقة .. وبكيانها في اللقاء .. المتوقع .

فما الذى يدفعها بعد ذلك .. إلى الضيق .. والقلق .. والخوف .. و ..

والغيرة ؟

أحقاً .. باتت تغار من « منى » !

أبداً .

لا كانت .. ولا كانت حياتها .. ولا كان حبها .. لو أنها غارت من أختها

الحبيبة الطيبة .

ومع ذلك ، كل التحليلات التي حللتها للموقف .. لم تستطع أن تمنع شعور
القلق والخوف .. من الحل الذي توشك أن تقدم عليه .

ولكن .. هل هناك ، من حل سواه ؟!

إن التهديد بالرحيل .. لم يجد في منعه من الحضور .

والرحيل نفسه ، عسير مستعص ، ثم إنها فوق هذا كله وفي أعماق نفسها ،
في أعماق الأعماق .. التي لا يسر لها غور ولا يدرك لها قرار ، تنوق إلى لقاء ،
بأى وضع وعلى أية حال .. حتى ولو كانت على هامش اللقيا .

حتى ولو لم تكن « نادية » ، وكان غيرها يحتل مكانها ، في رؤيته واستقباله
وسماع حديثه .

إنها على الأقل ستراه عن قرب .. وستسمع حديثه ...

وأكثر من هذا .. ستري كيف يتصرف حيالها ، وماذا يحس لها .

ليس لها هي .. ولكن « لنادية » .. التي تمثلها « منى » .

أجل .. ستمتعها ، لهفته عليها ، في صورة « منى » .. فهي لن تعتبر
« منى » ، غير صورة تمثلها ، لأنها لا تستطيع هي أن تحتل ذلك الموضع الذي تود
أن تحتله .

لن تغار من « منى » أبداً .

لأنها ستعتبر كل لهفة على « منى » ، لهفة عليها .. وكل كلمة موجهة
« لمنى » ، موجهة لها ، وكل ضحكة وكل ابتسامة وكل لفظة ، ستلقاها هي ..
وستستمتع بها هي

ولكن هل تستطيع « منى » ، أن ترد بالطريقة التى تحب أن ترد بها هى ؟
 إن « منى » خفيفة عابثة وقد تصدمه بتصرفاتها الماجنة الضاحكة ، وهو لا
 شك قد كَوّن لها فى نفسه صورة ، لا تلائم أبداً .. هذه الصورة التى سبندو بها
 « منى » .

إن عليها أن تعلمها كيف تتصرف ، وكيف تتحدث .
 أجل .. يجب ألا تأخذله .
 يجب أن تتصرف تماماً .. كما تتصرف « نادية » .
 ولكن هل تستطيع ؟!

ولم لا ؟! إن « منى » قد قرأت كل رسائلها ورسائله ، ولا شك أنها ستعرف
 ما يمكن أن تقول « نادية » ، وكيف يمكن أن تتصرف .
 ولكن هل تستطيع أن تعرف كيف يمكن أن تحس ؟!
 على أية حال .. تعرف .. أو لا تعرف ، ليس هناك مفر من هذا الحل .. إن
 المسألة كلها لن تعدو ، يوماً ، أو بعض يوم .. سيرحل هو بعده .
 وإذا لم يرحل .. فليس هناك أسهل عليها من ادعاء السفر .
 وكانت « منى » ترقب « نادية » فى شرودها ..
 وعندما انتهت « نادية » من سلسلة تفكيرها بتنهيدة راحة تساءلت « منى »
 ضاحكة :

— ها .. لم تجيبي علىّ ؟!

وهزت « نادية » رأسها متسائلة ، فقد نسيت أن ترد على سؤال « منى »
 الذى دفع بها إلى هذا الشرود .

وعادت « منى » تردد سؤالها فى لهجة مريحة عابثة :
 — ماذا أفعل إن قبّلنى ؟!

وهزت نادية رأسها وأجابت مؤكدة :
 — لا تخافى .. لن يقبلك .

— ولم لا ؟ !
— أولاً لأن العلاقة التي بيننا .. لا تسمح له بهذا .
— وثانياً ؟ !
— لأن طبيعته لا تدفعه إلى مثل هذا النزق .
— نزق .. يا مغفلة ؟ ! التقبيل نزق .. ها .. ما علينا .
وصمتت برهة ، ثم أردفت متسائلة :
— وثالثاً ؟ !
— وثالثاً .. إن التصرف الذي ستصرفينه .. باعتبارك أنا .. لا يمكن أن يدفعه إلى مثل هذا .
وقلبت « منى » شفتيها وقالت :
— جائر .. جائر جداً .. لو أئى تصرفت فعلاً .. كما يجب أن تصرفى أنت .
ورفعت « نادية » إصبعها مخذرة :
— وبالطبع ستصرفين كما يجب أن أتصرف أنا ؟ !
— طبعاً .. طبعاً .
وقفزت « منى » من مقعدها ، واختطفت إحدى زهرات القرنفل .. ثم قربتها من أنفها فى حركة تمثيلية ، وقالت ، وهى تسبل هديها وتمديدها بالزهرة :
— وامدحتاه ؟ ! واحرق قلباه ؟ !
ولم تتألك « نادية » نفسها من الضحك وصاحت بمنى :
— أنا أفعل هكذا .. يا مهرجة ؟ !
ولم تجب « منى » .. واستمرت فى حرركاتها التمثيلية صائحة وهى تركد فى وضع كليوبطرة :
هلمى الآن منقذنى هلمى وأهلاً بالخلاص وقد سعى نى
على نابيك من زرق المناسا شفاء النفس من سود الليالى
ومدت « نادية » يدها فرفعتها من شعرها ناهرة :

— ٤٧٤ —

- انهضى وكفى استهزاء .. دعينا نتحدث بجد
 ونهضت « منى » ، وهى تقول ضاحكة :
 — ألا تريد أن أتصرف كما تتصرفين ؟!
 وجذبتها « نادية » وأجلستها على المقعد قائلة :
 — اجلسى هنا .. يجب أن نتدبر الأمر جيداً .. ونضع خطة محكمة .. حتى
 لا نكتشف .
 — لا تخشى شيئاً دعى الأمر لى .
 — ماذا ستفعلن ؟!
 — عندما يحضر .. إما أن يرسل إنذاراً بحضوره .. تلغرافاً مثلاً .. وفى هذه
 الحالة سأذهب وإياك لنلقاه على المحطة .. وسراه بالطبع يقف فى النافذة ، برأسه
 المنحول ، وأنفه الطويل . وحاجبيه الثقيلين .
 — منى .. كفى عن الاستهزاء به .
 — هل قلت شيئاً من عندى ؟!
 — إنه ليس بمثل هذه الصورة القبيحة التى تصوريه بها .
 — متأسفة .. سراه يقف فى النافذة .. بشعره الذهبى ، وحاجبيه
 الرفيعين .. وأنفه الدقيق .
 — منى .. كفى سخفاً .
 — حيرتنى .. لا يعجبك هذا ، ولا ذاك !! كيف أصفه إذن ؟!
 — لا تصفيه .. إنى أعرفه جيداً ، فلا ضرورة لوصفه ، ادخلى فى الموضوع .
 — دخلنا فى الموضوع .. سراه يقف خلف النافذة ، بعينه .. هل أصف
 عينيه ؟
 — لا ضرورة .. أكمل حديثك ، ماذا ستفعلن عندما تريه يقف فى
 النافذة ؟!
 — سأرفع يدي وألوح له .. بتؤدة .

- ولماذا التؤدة ؟
— هل أندفع إليه وأقفز لأحتضنه من النافذة ؟!
— لا هذا ولا ذاك .
— ماذا أفعل إذن ؟!
— ابتسمي ابتسامة من قلبك .
— أبتسم .. أجل .. ولكن من قلبي .. شيء لا يستطيع أحد أن يطلبه مني
— ابتسمي وكفى .
— ثم ؟!
— هرولي إليه .
— كيف أهروول ؟!
— أعني لا تجرى كالجنونة .. ولا تتباطئي في بلادة .. أعني تقدمي ، وفي وجهك لفة .. وفي ملامحك فرحة .
— مفهوم .. مفهوم ... شيء طبيعي .
— مدى يدك للسلام عليه .
— هل أحتضنه ؟!
— أجنونة أنت ؟ مدى يدك فقط ولا بأس من أن تضغطي عليها .
— وأبقها في كفه ؟!
— قليلا .
— وإذا حاول هو أن يبقها أكثر ؟
— دعها .
— وماذا بعد !. أين نذهب به ؟!
— نذهب به إلى فندق الميدان .. بعد أن يرفض دعوتنا إلى النزول في المنزل .
— هبى أنه قبل !
— لا .. لا .. لن يرضى .

— افرضى ؟!

— تبقى مصيبة .

— ولا مصيبة ولا حاجة ، نخبر « ماما » بالحقيقة .. وننزله في إحدى الحجرات الخالية ، ونخبر أهل المنزل جميعاً بأن ينادوك باسم « منى » وينادوني باسم « نادية » .

— أعتقد أنه لن يقبل النزول في المنزل .

— وبعد أن ينزل في الفندق ؟!

— نطوف به في البلد .. نريه كل الأماكن التي دعوته إليها .. ثم ندعوه إلى الغداء في النادي ثم نصعد به الجبل .. و ... ونفعل أشياء كثيرة .

— وماذا تفعلين أنت ؟!

— سأصرف كأنتى « منى » .

— هل تعرفين ؟!

— أظننيها مسألة عسيرة ؟

— بالنسبة إليك .. أعتقد ذلك .

— أبدأ .. سأقفز وأتواثب ، وأضحك وأمرح ، وأقول كلاماً كثيراً فارغاً .

— أما مجرمة .. أهذا كل ما تريه فنى ؟

وضحكت نادية :

— وأبدو طيبة القلب ، صافية النفس .. أحب الناس والحياة .. ولا أضمر

ضغينة لأحد .. ولا أعادى أحداً .. بشوشة ، رقيقة . أتريدى أكثر من ذلك ؟!

وضحكت « منى » وضمت إليها « نادية » وهى تتساءل :

— أحقاً هذا رأيك فنى ؟

— رأى أنا فقط ؟! إنه رأى كل الناس .

وسمعتا صوت الأم يناديهما من أسفل :

— نادية .. منى .. ألا تنويان النزول للغداء ؟!

وأجابت « منى » :

— حالاً يا ماما ..

وبدت نادية وقد غيمت على وجهها سحابة همّ فسألتها « منى » :

— ما بك يا نادية ؟!

— أبداً .. أفكر فقط في الزيارة المتوقعة :

— ماذا تخشين منها .. ألم نحل مشكلة لقائه ؟!

— أجل .

— وسيمكث معنا بضع ساعات ثم يرحل .. وتعاودين الكتابة إليه كما

تعوّدت ؟!

— أحقاً سيرحل ببساطة وبلا عواقب ؟! وهل يمكن أن أعاود الكتابة إليه كما

كنت أفعل ؟!

— ولم لا !! ما دمت أنت تريدين الكتابة إليه .. فإذا لم تريدى . فليس

أسهل من أن تقولى له إنك ستسافرين . وإن عنوانك سيتغير وإنك سترسلين إليه

بعنوانك الجديد .. ثم تتوقفين عن الكتابة إليه . وسيرسل لك بضع رسائل ،

وعندما لا يجد رداً .. سيئس ويتوقف الأمر . معقول ؟

وهزت « نادية » رأسها وأجابت في لهجة بائسة :

— معقول .

وقبل أن تغادر « منى » الحجرة قالت « نادية » وهى تفتح درجاً صغيراً فى

دولابها :

— اسمعى يا « منى » .. إن رسائله كلها فى هذا الدرج .. وأعتقد أن من

الأفضل أن تقرئها كلها مرة ثانية حتى لا تخطئى فى المناقشة معه .

ونظرت « منى » إلى كومة الرسائل وبدا عليها الفرع وأجابت قائلة :

— يا نهار أسود .. أنا أقرأ كل هذه .. لا يا ست نادية .. يفتح الله .

— إنها لن تستغرق منك وقتاً طويلاً .. إن خطه كبير .

— ولماذا أقرؤها ؟!

— لأنه قد يغيد لك بعض ما قاله فيها .

— ليعيد أو ينفلق .. أتظنننى سأسمعها له كالحفوفات !

— أبداً .. تكون لديك فكرة عنها .

— إن لددى فكرة جيدة .. عن كل ما بها من سخافات ، أعرف « عصير

القصب » الذى اشتراه لك .. و « البطاطا » ، التى بخل عليك بها .. وأعرف

« الستين قرشاً » التى لهف بها القشدة هو وصاحبه الحلوف « جاد الله » .. هل

تظنين معدته تعبت من قليل .. من « البطاطا .. والعصير .. والكميك

قطايف » .. ماذا تريد أن أعرف عنه أكثر من ذلك ؟!

— هل تعرفين أنه ترك ميرفت ؟!

— وأنا مالى .

— تركها من أجلك .

— أجلى أنا ؟!

— أعنى من أجلى أنا .

— حلال عليك ..

وتريثت « منى » برهة ثم رفعت حاجبيها واتسعت حدقتها وهتفت فى شبه

ارتياح :

— اسمعى . هل تعنين أنه .. يجوز .. أن .. أقصد أنه يمكن .. أن يخطبنى ؟

وهزت « نادية » رأسها فى نفى بات وقالت :

— لا . لا . لا . غير معقول . إن ما بيننا لا يمكن أن يدعوه إلى ذلك . إنه لم يشر

مرة واحدة إلى شىء من هذا . غير معقول مطلقاً .

وهزت « منى » رأسها وتمتمت :

— والله يعملها .. مجنون .. مجنون .. لا يستبعد عليه أن يكون قد عمل كل

هذه الرحلة لكى يخطب .. المجهولة التى ترأسله من قمم الألب

— ٤٧٩ —

وعادت « نادية » تهز رأسها نافية :

— غير معقول يا منى .. لا تكونى سخيفة .

— أنا السخيفة ؟ أنا التى أقوم بكل هذه الرحلة لمجرد أن فتاة كتبت إلى ؟.

وعاد صوت الأم ينادى الفتاتين :

— منى .. نادية .. الطعام برد .

وصاحت نادية :

— حالا يا ماما .

والتفت « منى » متسائلة :

— اسمعى .. هيبه قد فعلها ، وخطبنى .

وأحست « نادية » بنشوة من وقع الكلمة .. ولكنها ما لبثت أن طردتها من

نفسها. وأجابت بطريقتها النافية المؤكدة :

— يا منى يا حبيبتي غير معقول أن يفعلها .

— لنفرض أنه فعل .. ماذا أفعل أنا ؟!

وصمتت « نادية » برهة .. وبدأ عليها شرود ، وعادت « منى » تستحثها

متسائلة :

— ماذا أفعل .. لو فعلها ؟.

وأجابت « نادية » فى صوت خافت يائس :

— اعتذرى . قولى أى شىء .. قولى إنك لا تستطيعين . تصرفى .

ومرة أخرى عاد صوت الأم ينادى فى غضب :

— هل ستترلان .. أم أرفع الطعام ؟

وأجابت الفتاتان وهما تبهطان الدرج : « سنترل »

(٣٨)

محاولة هروب ...

جلست « نادية ومنى » على مائدة الطعام ومعهما الأم وجانيت ، وكانت الجدة قد زحفت بمقعدها حتى استقرت بجوار المنضدة ، وبدأ الشرود على وجه « نادية » ، وهى تزدد طعامها .. ولم تكن « منى » أقل منها شروداً .. فقد استبد بذهنيهما هذا الحديث الذى دار بينهما فى حجرة « نادية » حول زيارة مدحت المتوقعة .. وكيفية مواجهتها .

ورأت الأم الصمت الذى ساد ابنتيها والوجوم الذى علا وجهيهما وقلبت البصر بينهما قائلة فى تساؤل :

— ماذا بكما ؟

وهزت « منى » رأسها وهى تمضغ قائلة :

— لا شيء .

وعادت الأم تتساءل غير مصدقة :

— أتعاركتما ؟ ..

وتضاحكت « نادية » قائلة :

— ليس بعد .

— إذن مالكما صامتتين ؟!

ورفعت « منى » كتفيها وأجابت :

— أنا شخصياً أفكر .

وتساءلت जानيت ضاحكة بالتعبير الإنجليزى :

— بنس لأفكارك .

— ٤٨١ —

وأجابت « منى » بالرد المألوف :
— لا تستحق .
— إذن قولها مجاناً .
ونظرت « منى » لنادية وتساءلت :
— أقول يا نادية ؟
ورفعت نادية حاجبيها متسائلة في دهشة :
— تقولين ماذا ؟ .
— ما أفكر فيه !
ونظرت إليها « نادية » محذرة .. ثم قالت وهي ترفع كتفيها في غير اكتراث :
— أنت حرة .. قولى ما تشائين .
ومدت « منى » يدها إلى طبق الفاكهة فأمسكت بتفاحة غرست فيها أسنانها
ونهرتها أمها قائلة :
— قشريها .
وأجابت « منى » :
— لا ضرورة .. إن القشر ملء بالفيتامينات .
وأحست « نادية » بشيء من الارتياح وهي ترى الحديث يتجه اتجاهها
آخر .. غير أفكار منى .
ولكن « منى » ما لبثت حتى عادت تقول وهي مستمرة في قضم التفاحة
بقشرها :
— كنت أفكر أنا ونادية في ..
وعادت تقضم التفاحة ، وتوترت أعصاب « نادية » وحملت في وجه
« منى » واستمرت « منى » تقول :
— كنا نفكر في أن نقوم برحلة .
وتساءلت الأم :

— إلى أين ؟!

وفكرت « منى » برهة ثم قالت :

— إلى « بريانسون ، مثلاً .. أو إلى « جرينوبل » .. أليس لك أقرباء يستضيفوننا ؟! لقد مللنا « جاب » .

وهزت جانيت رأسها وقالت متسائلة :

— كيف لا يكون لدينا أقرباء في بريانسون وجرينوبل . إن لدينا أقرباء ومعارف في كل بلدة في فرنسا . إن أسرة ...

وقاطعتها « منى » قائلة :

— لا نريد شرحاً لتاريخ الأسرة .. إننا باختصار نريد أن نغير مناظر .
وأجابت جانيت .

— إن عمى ريمون وزوجته « سارة » يتمنيان أن تزوراهما في أى وقت .
وتساءلت منى :

— عمك ريمون من ؟ لم نسمع به من قبل .

— إنه زوج عمتى .

— هل سارة عمتك ؟

— لا .. عمتى ماتت .. وقد تزوج بعدها سيدة من شابرى ثم ماتت ..

وتزوج بعدها السيدة « سارت » وهى ..

وهزت « منى » رأسها فى يأس وقالت :

— هل تظنين عمك ريمون .. بعد زيجاته الثلاث ما زال يذكر المرحومة

عمتك .. حتى يتفضل بدعوتنا إلى منزله ؟.

وردت جانيت مستنكرة :

— يذكرها !! إنه لم ينسها قط .. لقد قال فى آخر خطاب كتبه إلتى ..

وضحكت « منى » وتساءلت فى خبث :

— هل عمك ريمون هذا .. هو الذى يرسل إليك الرسائل الزرقاء ؟!

— أجل ..

ونظرت « منى » إلى أمها وتساءلت :

— ماما .. هل يجوز لزواج العممة أن يتزوج ابنة أخ زوجته ؟!

ورمقتها الأم بنظرة ناهرة وقالت :

— كفى عن هذا المزاح السخيف .

وضحكت « منى » وأجابت :

— إني لا أمزح والله .. إني فقط أتصور أن العم ريمون يعمل حساب عمتي

جانيت .. في مشروعاته المستقبلية .. بعد أن يأخذ الله السيدة سارة إلى جواره .

واحمر وجه جانيت وتصادد الدم إلى أذنيها حتى أضحت « كالجزرة » وقالت

لمنى « ناهرة :

— يا خبيثة .. ألا تكفى عن تفكيرك الخبيث ؟!

وردت « منى » قائلة :

— المهم .. هل عمك هذا .. على استعداد أن يستضيفنا ؟

وأجابت جانيت فى حماس :

— طبعاً .. إنه يعرفكم جيداً .. إني أكتب إليه عنكم فى كل رسائل .. وهو

دائماً يبلغكم السلام وآخر رسالة سألتى متى نئوى أن نزوره .

وتساءلت « منى » فى خبث :

— نزوره ؟! أو تزورينه ؟!

— بل نزوره كلنا .

— هل لديه استعداد لأن يستضيفنا ، وأن يحتفل متاعبنا لمدة أسبوع ؟

وكانت « نادية » قد لزمت الصمت طوال المناقشة فقد كانت تعتبرها مجرد

ثرثرة من « منى » .. فلما وجدتها تتساءل فى جد ، رفعت وجهها عن التفاحة

التي انهمكت فى تقشيرها وتساءلت فى دهشة :

— أسبوع ؟..

وأجابت جانيت :
 — طبعاً إنه يحتمل .. لقد سبق أن دعانا عدة مرات ، وقد قلت لأمكما .. ألم أخبرك يا لورا ؟
 وهزت « لورا » رأسها في ملل ، وقالت « لمنى » ناهرة :
 — منى .. كفى عن هذا السخف .
 — لماذا لا نذهب ؟
 — إلى أين ؟
 — إلى بريانسون .. لنتنزه .. إنهم يقولون إنها مذهشة .
 — لن ترى فيها أكثر مما ترين هنا .
 — المهم أننا نغير المناظر التي حولنا . إن جابى وتوفى ..
 وقاطعتها الأم في ضيق :
 — ليس لنا بأحد شأن
 — لماذا يا ماما ..
 — لأننى لا أكاد أتحرك .. من حجرة إلى حجرة . ماذا يدعونى إلى الشحططة والمرمطة ؟
 — إذن ابقى أنت ، وسنسافر مع عمى جانيت .
 وقالت جانيت فى حماس :
 — أجل .. إنى على استعداد لمصاحبتكما .. لا بد أن يريا المنطقة كلها .. فغير معقول أن تظلا مرابطتين فى « جاب » . لا بد أن تتنزها .. إن بيت العم ريمون يقع على شاطئ البحيرة ، والمنظر هناك عجيب ، والجبل جميل .
 وقفرت « منى » من مقعدها واتجهت إلى الأم تحتضنها وتقبلها مستعملة معها وسيلتها المعتادة فى الإقناع .. وأخذت ترجوها متوسلة كأنها طفلة صغيرة :
 — والنبي يا ماما .
 وكانت « نادية » مطرقة ، متشغلة بالتفاحة فى يدها ، وقد بدا الوجوم على

قسماتها .

ونظرت إليها « منى » ودهشت من إطراقها ووجومها .. فقد كان مفروضاً أن كل هذه المحاولات في سبيل الرحيل عن « جاب » من أجلها هي .
لقد بدأت « منى » المحاولة بمجرد مناقشة يائسة لا طائل تحتها ، ولكن ها هي توشك أن تثمر عن رحلة حقيقية تبعدها عن « جاب » ، وتوفر عليها عملية الخداع والتمثيل التي فكرتا فيها .. إذا ما وقعت الواقعة وأتى مدحت إلى « جاب » .. فلماذا تبدو « نادية » واجمة ؟. ولماذا لا تحاول أن تسهم في عملية إقناع أمها ؟

ونظرت « منى » إلى « نادية » .. وهي منهمكة في تقشير التفاحة ، وهتفت بها :

— نادية .. مالك ساكتة .. ألا تريدين الذهاب إلى بريانسون ؟!

ورفعت « نادية » رأسها كأنها أفاقت من شروء بعيد .. وأجابت متسائلة :
— بريانسون ؟!

— أجل .

— ألا تريدين أن نرحل عن « جاب » ؟

وأحست « نادية » أن خافقاً يدق في حناياها ويكاد يهتف لا .. لا أريد أن أرحل عن « جاب » .. إن مدحت .. سيأتي .. سأراه .
إنه قد لا يميزني ، ولكنني سأراه .

قد لا يعرف أنى أنا نادية .. نادية الحقيقية .. التي أحبته والتي كتبت إليه ، والتي تتلهف على رؤيته .

ولكن ماذا بهم إذا كان لا يعرفني .. ما دمت سأعرفه ، وسأجلس إليه وأصعبه إلى الجبل .. وسأسير معه على الشاطئ البحرية .. وأطل وإياه على الوادي الأخضر .. وأتطلع وإياه إلى القمم البيض !!
كيف أتركه وأفر ؟!

لأنه لن يعرفنى !
ومنذ متى قد عرفنى ؟!
لا .. لا .. إني لا أريد الرحيل عن « جاب » سأبقى .. سأبقى حتى أراه
ولو من بعيد .. يهبط من القطار وحده .. ويسير في البلدة وحده .
وسأرقبه أيضاً ، وهو يرحل وحده .
سأجلس بعيداً لأودعه في صمت .. كما ودعته في النادي عندما رحلت عن
مصر .. من بعيد ، ودون أن يحس بي .
لن يكون لوداعى .. معالم .. تماماً كما لم يكن لوداعى الأول معالم .
سأبقى .. سأبقى .
وعادت « منى » تكرر سؤالها في لهجة مغيظة :
— نادية !! لماذا لا تجيبين ؟! أيعجبك البقاء في « جاب » ؟!
ألا تودين الرحيل إلى بريانسون ؟!
وأجابت نادية في صوت خافت ، وهي ترفع رأسها بيضاء :
— ولم لا !
ولم يعجب « منى » لهجتها الباردة فعادت تردد في غيظ :
— ولم لا ؟! أنت لا يهملك الأمر كثيراً ؟!
وهزت كتفها في استخفاف وأردفت قائلة :
— طبعاً ما دام العبء سيقع على . مادمت أنا التي سأ ..
وانتفضت « نادية » ونظرت إلى « منى » نظرة زاجرة وقاطعتها قائلة :
— قلت لك إني أحب الرحيل إلى بريانسون .. أقول لك أكثر من هذا ؟!
وهزت الأم رأسها وقالت ، وهي تحيط « منى » بذراعها :
— يا منى يا حبيبتى .. ألا تخشين ؟! ألا تهدين في مكان واحد ؟! كل هذه
النزهات تقومين بها في « جاب » .. ولا تكفين !
— أى نزهات ! لقد مللت الصعود إلى الجبل والذهاب إلى النادي .

— إني أخاف عليك يا منى .

— ممن ..

— من كل هذا الجهد الذى تقومين به .

— « تانى » .. ألم نتفق على ألا نعود إلى هذا الخوف . لقد أثبت لك أنى أشد

مائة مرة من ابتك هذه التى لا تخشين عليها .. بالأمس تفوقت عليها فى
« التنس » ، ومنذ يومين سبقتها فى الصعود فى الجبل .. وأنا على استعداد الآن
لأن أدخل معها فى مصارعة أو ملاكمة .

ثم اتخذت موقف الملاكم وأردفت قائلة :

— ها .. إني مستعدة .

ثم أقبلت على أمها تضمها إليها مرة أخرى قائلة فى توسل الأطفال :

— انتبهنا يا ماما .. سنذهب إلى بريانسون !؟

— بشرط .

— إني أقبل كل شروطك .

— أن تأخذى بالك من نفسك .

— وألا أعرق وأجلس فى الهواء .. وألا أنهج .. وألا أعدو .. وألا أركب

دراجة ، وألا .. وألا .. هل لديك شروط أخرى ؟!

ومالت على أمها تقبلها فى حنان وقالت متسائلة :

— أتدريين يا ماما لو نفذت شروطك لانتهى بي الأمر إلى أى شىء .

وهزت الأم رأسها متسائلة .. فأجابت منى :

— إلى أن يحملونى على نقالة فى كل حركة .

وأجابت الأم وهى تضمها فى حنان :

— بعد الشر .. إني فقط أريدك ألا تجهدى نفسك .

— مفهوم ..

وقالت جانباً :

— ٤٨٨ —

- لا تخشى عليها .. سأكون أنا المسئولة عنها .. لن أتركها لحظة ..
ونظرت « منى » إلى جانيت وتساءلت في خبث :
— والعمر يمون ؟!
وضربت جانيت على ظهرها بخفة وقالت زاجرة :
— يا خبيثة .
واتجهت « منى » إلى « نادية » التى كانت لا تزال فى جلستها المطرقة الواجمة
وقالت كأنما تحاول أن توقظها من شرودها :
— هاى .. إلى أين وصلت ؟!
ولم تجب « نادية » .. فعادت « منى » تتساءل :
— إلى منشية البكرى ؟!
ثم جذبتها من ذراعها واتجهت بها إلى الباب الخارجى وقالت متسائلة :
— مالك يا نادية ؟!
— أبداً .. لا شىء .
— ألم تعجبك هذه المحاولة للزوغان ؟! أليس هذا ما كنت تتوقين إليه ؟
وأجابت « نادية » فى غير حماس :
— أجل .
وعادت « منى » تقول وهى تهز رأسها فى دهشة :
— أنت عجيبة يا نادية !! إني لا أستطيع فهمك .
وانحنى « نادية » بطريقة غير إرادية لتقطف إحدى زهرات القرنفل التى تملأ
الحوض القائم على مدخل الباب .
ونظرت إليها « منى » متسائلة :
— ألم تكونى أنت الراغبة فى الهروب ؟
— أجل .
— إذن ما بالك لا تتحمسين له عندما نجحت فيه ؟

— ٤٨٩ —

- لست أدرى ماذا سنعمل في بريانسون ؟
- هبى أننا لن نفعل شيئاً .. ألا يعجبك أنه مجرد فرار من صاحبك المصر على الجبى ؟
- وأجابت « نادية » وهى مستمرة فى شرودها :
- أجل .
- وضغطت « منى » على ضروسها فى غيظ :
- اسمعى يا نادية .. أنا أريد أن أعرف بالضبط .. هل ترغبين فى لقاء مدحت ؟
- ونظرت إليها « نادية » نظرة شاردة ، وأجابت وهى تطلق تنهيدة طويلة :
- كيف أرغب فى لقائه ؟ كيف أجسر ؟
- وأنا أيضاً .. لا يهمنى لقاءه .. فماذا يضايقك من الرحيل ؟
- أنا لم أتضايق .
- بل تضايقت .. أو على الأقل لم تتحمسى له .. هل أنت راغبة أن تدفعى لى إلى المأزق ؟
- أى مأزق ؟!
- أن أقوم . بدورك وأقابله ، وأطوف به .. وأحدثه حديث الهائمة .
- وأجابت « نادية » فى غصب وقد احمر وجهها :
- إذا كنت لا تريدین هذا فأنا لم أكرهك عليه .
- يا نادية يا حبيبتى .. أنا لا أكره أن أقوم بأى شىء من أجلك .. حتى الموت من أجلك لا أكرهه ، ولكن .. نستطيع أن نجنب أنفسنا هذه الخديعة التى نوشك أن نقوم بها ، وما دمت أنت كنت تتمنين فرصة للرحلة ، فلماذا لا تتحمسين لها بعد أن أتمتها لك ؟
- ومدت « نادية » يدها فأمسكت بيد « منى » وضغطت عليه قائلة فى حنان :

— ٤٩٠ —

— لا تتضايقى منى يا « منى » .. إني لا أفهم نفسى .. إني حقاً حائرة .
 — لا داعى أبداً للحيرة .. سنقوم بالرحلة إلى « بريانسون » مع عمى
 -جانيت .. فإذا أتى ونحن فى السفر .. فيها ونعمت ، وإذا لم يأت فسنستقبله كما
 اتفقنا ، وسأفعل لك كل ما تودين .

وضمتها إليها وقبلتها فى عطف ثم تساءلت :
 — اتفقنا !؟

وأشارت « نادية » برأسها موافقة ، وعادت « منى » تقول :
 — اضحكى إذن .

وقبل أن تضحك « نادية » سمعت صوتاً يتساءل من وراءهما :
 — علام تضحكين ؟

ونظرت « منى » فإذا بجابى وتونى يقفان وراءها فأجابت « منى » :
 — لأننا سنذهب إلى بريانسون .
 وصاحت جابى فى فرحة ودهشة :
 — حقيقة ؟!

— أجل لقد دعانا أحد أقرباء عمى جانيت .. وسنذهب لقضاء بضعة أيام .
 وصاح تونى :
 — هائلة .

ونظرت « منى » متسائلة :
 — ما هى ؟!

— سنسافر سوياً .. لقد اقترح أبى علينا أن نذهب معه . فلم نتحمس كثيراً
 لاقتراحه .. فإذا كنتا مسافرتين حقاً .. فسنصر على الذهاب معه .

وقالت « جابى » فى فرح :

— ستكون رحلة مدهشة .. هل سبق لك الذهاب إلى هناك يا نادية ؟!
 وهزت « نادية » رأسها بالنفى ، وعادت « جابى » تقول فى حماس :

— إنها مكان مدهش .. إنها أعلى قمة في هذه المنطقة كلها والطريق إليها في منتهى الجمال .

وتساءل تونى :

— هل تسافران معنا ؟!

وأجابت « منى » :

— إذا كان لديكم مكان لعمتى جانيت .. فسنسافر طبعاً .

وسألت جابى :

— وماما ؟ ..

— ستبقى مع جدتى .

وهز تونى رأسه .. وقال :

— سنسافر كلنا معاً .. سنأخذ عربة « رالى » .. إنها لا شك سترحب

بالجىء معنا .

وفي صبيحة اليوم التالى ، وقبل أن ترسل الشمس أشعتها من وراء الأفق .. كانت العربتان تتحركان من « جاب » فى الطريق الصاعد إلى « بريانسون » ، وكان الكبار قد تجمعوا فى عربة ، وضمت العربة الأخرى نادية ، ومنى ، وتونى ، وجابى ، وبقية الشلة وقد تعالى ضجيجهم وغناؤهم .

وكانت الفرحة تبدو فى وجوه الجميع .. والمرح يتوالت فى قسماتهم .. وكانت المناظر الرائعة تتراعى على جانبي الطريق .. وندى الصباح يتلألأ على صفحات الأوراق الخضرة الناضرة المتهدلة على جوانبه .. وكانت مساقط المياه تتدفق منحدره فى صخب عنيف أحياناً .. وفى خريف ناعم أحياناً أخرى .

وفى الوديان البعيدة تبدو الغدران وقد تجمعت فيها مياه المساقط .. وأخذت تتدفق بين الصخور والأعشاب .. تلتقى حيناً فى أنهر عريضة وتفرق حيناً فى جداول ضحلة كالشرايين الرفيعة .. والكبارى تبدو معلقة بين أطراف الجبال كأنها الأرجوحات تهتز فى مهب النسيم .

وأشعة الشمس تتسلل حمراء قانية لتصبغ كل هذا .. بلون الأرجوان ،
وتبدى الكون في روعة مذهلة .

و « نادية » .. تشارك في الضحك ، وأسنانها البيض المنظمة تلمع بين آونة
وأخرى في انفراجة شفيتها .

وهى تحس بالجمال الرائع من حولها .

وتحس بالنشوة والفرحة التى تغمر الرفاق الضاحكين من حولها .

ولكنها مع كل هذا الضوء المحيط بها تحس بشيء قائم فى باطنها .

ولم يكن هذا الشيء القائم الكامن فى باطنها .. بالشئ الجديد عليها .. فقد
كان يرسب دائماً فى أعماقها .. ولكن إحساسها به قد زاد وهى تحس بالعربة
تحملها بعيداً عن « جاب » . عن البلدة التى طافت بكل قمة من قممها وذراعها
فى ذراعه .. والتى جلست وإياه على شاطئ بحيرتها .. واصطلت وإياه بنار
مدفئتها .. والتى تحس بعد كل هذا .. أنه سيحل بها ، ويطوف بربعها .
وكانت بنفسها حيرة وقلق .

لماذا تطمع فى لقائه .. وهى قد وطنت نفسها على عدم اللقاء !! على البعد ..
والأوهام والأحلام !

أليس من الخير أن تجنب نفسها هذه التجربة التى قد تطيح بكل أحلامها
وأوهامها ؟

وهمت بأن تستمر فى دورة تفكيرها وحيرتها وتساؤلها عندما أحست بأصبعى
« منى » تجذبانها من أرنبه أنفها وتصيح بها ضاحكة :

— هاى .. نحن هنا .. فى الطريق إلى بريانسون .. فى الطريق إلى أعلى قمم
الألب .. فى الطريق .. إلى الله .

ورفعت « منى » ذراعها إلى أعلى فى طريقة تمثيلية وهتفت :

— إنى صاعدة إلى الله .

وأحست « نادية » بانقباض من قول منى وهتفت بها :

— ٤٩٣ —

— لماذا تقولين هذا الكلام السخيف؟! تفى من بقلك .

وتساءلت « منى » ضاحكة :

— سبع تفات ؟

— أجل .

— على وجهك ؟

— على وجهى .. على وجهى .. تفى قلت لك .

وأصدرت « منى » من شفتيها أصوات تف سبع مرات .

ثم هزت رأسها ضاحكة :

— لن تتقدمى أبداً .. ستظلين هكذا كالولايا .. أفى قمم الألب تقولين لى

تفى من بقلك؟!!

— لا تعودى إلى السخافات التى تقولينها .

— أتظنين السبع تفات ستقنينى من الموت ، وتمنعنى من الصعود إلى الله؟!!

— قلت لك لا تكررى هذه السخافات إنى أتشاءم منها .

— انتهينا .. اضحكى .. إياك أن تسرحى .. وإلا عاودت الصعود إلى الله .

وصاح تونى بالأختين وقد ملّ حديثهما بالعربية :

— أيتها البربريتان .. كفا عن الرطانة بهذه اللغة .. وخبرانى ماذا تقولان ..

أتأمران علينا؟! ماذا تريدان بعد أن أخذتما قناة السويس .. وصفعتنى إحداكما

قلماً .. كأنما نحن الذين لطشنا القناة .

وصاحت به « منى » :

— يبدو أنك تريد قلماً منى هذه المرة .. أحذرك من أن تعودى إلى تسمية التأميم

باللطف .

— تأميم .. لطش .. لن أعود إلى ذكر القناة بعد هذا . على ألا تتكلما

بالعربية .

واندجحت الأختان فى الحديث والغناء مع « الشلة » .. حتى وصلت العربتان

أخيراً إلى مدخل بريانسون .

وأخذت جانيت تقودهم في طريقها حتى وصلوا إلى بيت العم ريمون .. وبدأ المسكن أقرب إلى الكوخ منه إلى المنزل .. بجدران الخشبية القديمة .. وسقفه المائل .. وشرفته العريضة المطلّة على البحيرة .

ولم يكد العجوز صاحب البيت يتحقق من زوّاره حتى هتف في حماس :
— أخيراً جئت بقرّياتك المصريات ؟

واندفع إلى الجمع مرحباً .. وهبطت نادية ومنى وجانيت من العربة .. ولحقت عربة توني بالعربة الأخرى متجهين إلى فندق قريب من البيت بعد أن اتفقوا على موعد اللقاء .

ووقفت « منى » ترقب المنظر من حولها مأخوذة بروعته ، ولحّت قارباً على شاطئ البحيرة فهتفت في سعادة :

— مدهش .. كل شيء كما أحب .. سأجذف .. وأعووم ، وأتسلق الجبل ... وهذه دراجة .. بجوار البيت .. سأركبها أيّاً كان صاحبها .. ماذا بقى بعد ذلك ؟!

ونظرت إليها « نادية » وهزت رأسها وأجابت في سخرية :

— بقى أن ترقدى صريعة ، بعد أن تفعل كل هذا الجنون .

وقلبت « منى » شفتها السفلى وقالت مقلدة نادية :

— ما هذا الكلام السخيف .. تفنى من بقلك سبع تفات .

وأسرعت « نادية » تنفذ الأوامر وقد بدا عليها الندم على ما قالته ..

وأمسكت بذراع « منى » وقالت محدرة :

— اسمعى .. إياك أن تفقدى عقلك وتدورى كالمطيورة . لتفعل كل هذه

السخافات التي قلتها ؟!

— ماذا أفعل إذن ؟!

— افعلى كما سأفعل .

— ٤٩٥ —

— أجلس لأسرح في جزّار الدمرداش !؟

— أنا لا أسرح في أحد .

— لا تغضبي .. أنا التي أسرح .. هل تريدني أن أجلس أمام البيانو لأعزف .. القطعة الجنائزية التي لا تكفين عن عزفها !؟

— اسمعي يا منى يا حبيبتي .. أنا لا أطلب منك سوى أن تكوني عاقلة .. لا تنطلقى كالطيورة .. حتى تخزي من فرط التعب .
— لك علىّ هذا .

وكان العجوز ريمون قد انهمك في الحديث مع جانيت ونظرت إليهما « منى » وقالت في صوت خافت :

— أقسم لك .. أن جانيت ستكون الزوجة الرابعة للعم ريمون بعد وفاة العمّة سارة .

وقبل أن تدخل الأختان الكوخ .. وثبت « منى » على الدراجة واندفعت تعدو بها على شاطئ البحيرة .

(٣٩)

لو ينسانا ...

عادت «منى» إلى الكوخ بعد جولتها بالدراجة .. وأخذ تقفز درجاته الخشبية .. في خفة ومرح ، وانطلقت تتجول في حجراته ، وهي تصفر بفمها ، وهتف العجوز ريمون ضاحكا :

— لعل كوئنا المتواضع قد أعجبك أيها المصرية الجميلة ؟
— أعجبنى فقط ؟ إنه رائع .

وكان الكوخ رائعا حقاً .. بقاعته الرحبة ذات المدفأة الضخمة التي علق في صدرها رأس حيوان بقرونه الملتفة ، وعلق على جدرانها صور زيتية لرجال بأزباء رسمية .. وشوارب مبرومة ، ونساء كشيفات الحواجب واسعات الأفواه قد فرقن شعورهن من منتصف الرأس وتدلّت ضفائرهن على الأكتاف ، وصور أخرى لمناظر صيد ومناظر طبيعية للجبال والبحيرات .. ومجموعة من السيوف والبنادق احتلت بقية الأماكن الخالية من الجدران .

كانت حجرات الكوخ تحيط بالقاعة ، وكانت «نادية» قد استقرت في إحداها تمارس عمليتها المعتادة في نقل الملابس من الحقائب إلى الدولاب . ونظرت إليها «منى» وهتفت :

— إن المكان مدهش .. لقد قمت بجولة سريعة بالدراجة ، على شاطئ البحيرة ، وفي الشوارع المحيطة بنا .. ألا تنوين الخروج ؟!
ونظرت إليها «نادية» في غيظ وتساءلت :

— وهذه الملابس المكдسة في الحقائب .. من الذى سيعلقها ؟ .. خدامين

أبونا !

— يا ستي .. عندما نعود يحلها ربنا .
وانخت فوق حقيبتها وأخذت تبحث بين الملابس المطبقة حتى أخرجت
شورتاً كحلياً سرعان ما دست فيه ساقها ووقفت تتلفت حولها متسائلة :
— ألا توجد هنا مرآة ؟!
ثم وقع بصرها من فتحة الباب على العجوز ريمون وقد بدا وجهه كواد مليء
بالأخاديد ، وقد جلس على مقعد أمام المدفأة يملأ غليونه بالتبغ ، وأردفت
« منى » تقول :
— من مصلحة سكان البيت ألا يكون به مرايا .. حتى لا يروا أنفسهم .
ومدت « نادية » يدها وفتحت ضلفة الدولاب فبدت مرآة في داخله ،
وقالت لمنى :
— إنهم يرون أنفسهم سراً ..
ووقفت « منى » تصلح « الشورت » والقميص أمام المرأة ..
ومدت إحدى ساقها متخذة وضعا استعراضيا وأطلقت بفمها صفير
إعجاب ، وقالت مازحة :
— يا سلام عليك يا منى .. زى اللوز .
وهمت بالخروج ، وهى تتحرك على أطراف أصابعها كما تتحرك راقصات
الباليه ، وتساءلت « نادية » ، وهى تعلق أحد الفساتين على الشماعة :
— إلى أين ؟!
وفتحت « منى » ذراعها ، وأخذت زفيراً طويلاً ، وقالت فى لهجة ملؤها
الجدل والابتهاج :
— إلى الدنيا .. إلى الحياة الحلوة .
وأجابت « نادية » ، وهى تهز رأسها فى استخفاف :
— ألا تعقلين ؟ ..
— ألا تعقلين أنت ! .. إنك تضيعين نصف عمرك فى تطبيق الملابس

— ٤٩٨ —

وتعليقها ، والنصف الآخر .. فى نزهاة على الورق .. وجولات فى الرسائل .
 ولم تجب « نادية » بل استمرت فى تنظيف الدولاب وتعليق الملابس به ..
 وعادت « منى » تتساءل قبل أن تغادر الحجرة :
 — ألا تأتين معى للتجديف فى البحيرة ؟!
 والتفت إليها « نادية » وقالت مستنكرة :
 — أتتوين التجديف ؟!
 وهزت « منى » رأسها قائلة :
 — أجل . مالك تقولينها باستنكار كأنى سأرتكب منكراً !
 — ألم تقل لك ماما ألا تجهدى نفسك ؟!
 — ومن قال إنى سأجهد نفسى .. إنى سأجدف .. بلا أى إجهاد .
 — هكذا ؟!
 — أجل هكذا .. سأضرب بالمجدافين بمنتهى الخفة .: وبلا أى جهد .
 وأطلقت « نادية » زفرة غيظ ، وقالت راجية :
 — يا منى يا حبيتى .. اعقلي ودعي الرحلة تمر على خير .
 وهفت « منى » محذرة :
 — اسمعى يا نادية .. أرجوك أن تكفى عن اتخاذ موضع الأم منى .. إنك
 لست أكبر منى ، وأنا أعرف كيف ...
 وقاطعتها « نادية » فى ضيق :
 — انقلقى .. افعللى ما تشائين .. أنت لست صغيرة .
 وانطلقت « منى » من الحجرة .. وعند عبورها القاعة .. سألتها جانباً :
 — إلى أين ؟!
 — إلى البحيرة .
 — ألا تنتظرين حتى تأتى مدام ريمون ؟!
 — وأين هى ؟!

وأجاب العجوز ريمون :
— ذهبت إلى السوق .. إنها ستسر جداً بقدمك .. لقد ضقنا بالوحدة
ذرعاً .

— سأعود بسرعة . إني سأخرج بالقارب في جولة قصيرة .
وتساءل العجوز :

— هل تستطيعين استعماله ؟

— وهل استعماله مشكلة ؟

— أبداً .. إنه خفيف جداً . وليس عليك إلا أن تفكي الوثاق الذي يشده إلى
الشاطئ .. وتضربي بالمجدافين .

ولوّحت « منى » بيدها .. ثم انطلقت تعدو إلى الخارج .
وكان القارب قد ربط في جذع إحدى الشجيرات المتكاثفة على الشاطئ ،
ولم يصعب على « منى » فك الوثاق .. وقفزت إلى القارب في خفة .. واتخذت
مكانها على العارضة وأمسكت بالمجدافين ، ولم تكد تضرب بهما أول ضربة على
سطح البحيرة حتى سمعت هتافاً يصيح بها :
— منى .

والفتفت لتجد جاني وتوني ينحدران من ربوة تشرف على البحيرة بجوار
الكوخ .. وقد أخذوا يلوّحان لها .

وانتظرت « منى » حتى وصلا إلى شاطئ البحيرة .. وهتفت بها جاني
متسائلة :

— إلى أين ؟!

— جولة بالبحيرة .

— وحدك .. يا خائنة !

— وحدي لأنني لم أجده من يأتي معي .. إن « نادية » منهمكة في ترتيب
الملابس وتنظيف الدواليب .

— ٥٠٠ —

— لماذا لم تنتظرينا ؟!

— ظننتكما ستأخران .

واقتربت « منى » بالقارب من الشاطئ وأردفت قائلة :

— هيا بنا .. اهبطا .

وقفز الاثنان إلى القارب .. وكاد توازنه يختل ، ومضت برهة ، وهو يتأرجح ويهتز حتى عاد إلى ثباته .. وقبل أن ترفع « منى » المجذافين لتضرب بهما الماء سمع صوت آخر يهتف ، وظهرت « سالى » تهبط من نفس الربوة وتشير إليهم بالانتظار . وقالت منى :

— إن القارب لن يسع أكثر من هذا .. قل لها يا تونى أن تنتظر حتى تعود .. ونستطيع أن نخرج بها فى جولة أخرى .

ووضع تونى كفيه حول شفتيه كاللبوق وصاح بسالى :

— سنعود حالا .. القارب لا يتسع لأكثر من هذا .. سأخذك أنت ونادية فى جولة أخرى .

وضربت « منى » سطح الماء بالمجدافين فتطاير الرذاذ .. وأصاب بعضه تونى فصاح بمنى ، وهو يقف نصف وقفة :

— ناولينى المجذافين سأجذف أنا :

وصاحت به « منى » أمرة :

— اجلس مكانك .. أنا التى سأجذف .. ماذا تظننى ؟ غشيمة !.

وعادت « منى » تضرب سطح الماء بالمجدافين ، وفى كل مرة يتعالى الرذاذ فيصيب الراكبين ، ويحاول تونى أن يأخذ المجذافين فتهدهده قائلة :

— اجلس مكانك والا قلبت بك القارب .

واستمر القارب .. يجرى على سطح البحيرة ، واستمرت ذراعا « منى » فى حركتهما الدائرية بالمجدافين .. وأخذ صدرها يعلو ويهبط وبدأت أنفاسها

تتلاحق .

وقالت لها جابى متسائلة :

— هل تعبت يا منى ؟ !

وأجابت « منى » بين أنفاسها المتلاحقة فى إصرار وعناد :

— ليس بعد .

وبعد فترة نظرت جابى إلى الساعة ، وقالت لمنى :

— أظن الوقت قد حان لنعود .

وكانت « منى » قد أحست بالتعب فعلا .. فقد أخذت عضلات ذراعيها فى

التصلب وازداد تلاحق أنفاسها

واقترب القارب مرة أخرى من الشاطئ حتى توقف عند مرسى بجوار

الشجرة ، وتركت « منى » المجذافين وأخذت شهيقاً طويلاً ثم أطلقت زفرة

أطول .. ومدت ذراعيها تحركهما حتى تزيل عنهما تصلب عضلاتهما ثم قفزت

من القارب فى خفة وتبعثها جابى ، ووقف تونى فى القارب ينفض عن ثيابه الرذاذ

الذى علاها من ضربات المجذاف .

وقالت « منى » فى تفاخر :

— ما رأيك فى تجديدى ؟ !

وأجاب تونى ساخراً :

— ممتاز .. ممتاز .. جعلنى أستحم وأنا فى القارب . ونظرت إليه « منى »

وتساءلت :

— هكذا !

وبسرعة مدت قدميها ثم ضغطت بها على حرف القارب .. واهتز القارب ،

وأحس تونى بأن توازنه قد اختل فجأة .. وحاول أن يميل ليحفظ توازنه ..

ولكن الدفعة كانت مفاجئة .. ولم يجد هناك ما يتعلق به .. ووجد نفسه مضطراً

إلى أن يقفز فى الماء .

— ٥٠٢ —

وصاحت « منى » ضاحكة وهي تفر هاربة :
— تستطيع الآن أن تستحم في البحيرة .. ما دام الاستحمام في القارب لا
يعجبك

وخرج تونى من البحيرة وقد أغرق بنظونه بالماء .. وانطلق يعدو في أثر
« منى » .. وجرت جابى تتبعهما ضاحكة .

واندفعت « منى » تتسلق الربوة .. وانطلقت تعدو بين الدروب المتلوية التي
تتخلل الشجيرات والأحراش .

وطال بها العدو حتى أحست بأنفاسها تتلاحق في شدة وقلها يدق في
عنف .. وفجأة أحست بأن شيئاً يخز صدرها وأصابها دوار جعل الأرض تميد
بها .. والمرئيات تختلط في ناظرها .

وتوقفت « منى » مكانها .. ومدت يدها تلمس شيئاً تستند إليه وقد
أحست أن ساقها لم تعودا تقويان على حملها .

ومرة أخرى عاد الشيء يخزها في صدرها وأحست بصدرها يتمزق .. و
« بأكلان » يدفعها إلى السعال .. وسعلت بضغ سعلات قصيرة جافة .

ووصل إليها تونى ومد يده فأمسك ذراعها وبدأ يلويها ولكنه لم يكد يشد
عليها حتى وجدها تهاوى بين يديه .. ونظر إلى وجهها فإذا به قد علتة صفرة
شديدة .. فخر بجوارها وهتف في جزع :

— منى !! مالك ؟!

وكانت « جابى » قد وصلت إلى مكانهما وخيل إليها أن تونى قد أوقع
« منى » على الأرض فصاحت به ناهرة :

— اتركها ياتونى . إياك أن تفعل بها شيئاً .

ونظر تونى إلى أخته وقد فغرفاه وملأ الجزع ملامحه .. وهتف في ذعر :

— أنا لم أقرها .. أنا لم أفعل بها أى شيء ، إنها هى التى وقفت مكانها ..
واستندت إلى الشجرة .. ولم أكد أمسك يدها حتى تهاوت على الأرض .

— ٥٠٣ —

ونظرت « جاني » إلى « منى » فوجدتها قد أسندت كتفها اليمنى إلى جذع الشجرة ومالت برأسها عليه وقد أغمضت عينيها وبدأ على ملاحظتها إعياء شديد .. ووضعت يدها اليسرى بالمنديل على فمها .. وقد أخذ جسدها يهتز من السعال القصار التي يكتبها المنديل الملصق بكفها على شفتيها .
وركعت « جاني » بجوارها ومدت كفها لتحسس جبينها وهمت بها في رفق :

— مالك يا منى ؟

وهزت « منى » رأسها هزات خفيفة .. كأنما تحاول أن تنفى أن بها ألماً .
وعاد الشيء الذي يمزق صدرها .
وازدادت السعال شدة .
ولم تقو يدها بالمنديل على كبت السعال .. فانطلقت إحداها .. لتغرق المنديل دماً .

وبدا الروع على وجه « جاني » .. وهتفت بمنى :

— منى .. لا بد أن نعود إلى البيت .. لقد جرح زورك .
وفتحت « منى » عينيها في إعياء ونظرت إلى المنديل وأحست كأن قواها تتسرب منها كما يتسرب الماء من بين الأصابع وقالت في لهجة ملؤها الاستسلام :
— إنه ليس زورى .. إنه صدرى . إني أحس به يتمزق .
وهزت « جاني » رأسها وهي تنفى في جزع :
— لا .. لا .. لا تقولى هذا .. لقد أجهدك العدو .. وجرح الصياح زورك .

والتفت إلى « توني » الذي بدا عليه الذهول وقالت :

— هيا يا توني .. لا بد أن نعود بها إلى البيت .. إنها تحتاج لبضع ساعات راحة .

وأمن « توني » على قولها :

— أجل .. إنها لم تسترح منذ أن غادرنا « جاب » .
ومد « توني » يديه محاولاً رفع « منى » ولكنها هزت رأسها قائلة :
— إني سأسير بينكما ، وأتكيء على كتفيكما .. إني أحس بأني قد تماكنت
قواى .

ومد « توني وجابى » ذراعيهما وساعداها على النهوض .. واتكأت بذراعيها على
كتفيهما وهى تحاول التماسك .. وسارابها برهة حتى اقتربا من الكوخ .
ومرة أخرى .. أحسست بالدوار يعاودها .. وبقواها تتسرب منها .. وكأن
شيئاً يجذبها إلى أسفل .. وعادت السعلات المتقطعة تمزق صدرها .. وأخذ
جسدها يتراخى ، وكادت تنهاوى إلى الأرض .. فأسرع « توني » إلى رفعها بين
ذراعيه .. وحث الخطا تجاه الكوخ .

وعدت « جابى » أمامه تفتح له الباب وتفسح له الطريق .
وكانت « نادية » قد وقفت فى القاعة تتلقى ترحيب العجوز البدينة زوجة
ريمون بعد أن عادت من السوق .. وتحيب على سؤاها عن « منى » بأنها قد
خرجت للتجديف فى البحيرة .. وأنها لا بد أن تكون فى طريقها إلى البيت .
ولم تكذ « نادية » تنتهى من قولها حتى فوجئت باندفاع جابى .. وقد بدا على
وجهها أمارات الجزع .

وقبل أن تستفسر « نادية » عما بها .. فوجئت بتونى يجتاز الباب حاملاً
« منى » بين يديه وقد تدلى رأسها وبدا وجهها فى اصفراره المروع .
وصرخت « نادية » واندفعت إلى أختها صائحة :
— منى !! حبسيتى منى .. مالك يا منى !؟

وسار تونى فى خطاه المتثاقلة حتى وضع حمله على أقرب فراش .
وأجابته « جابى » بمحاولة أن تطمئن نادية :
— لا تخافى يا نادية .. لقد أجهدتها العدو .. إنه مجرد إجهاد .. لا تجزعى
هكذا .. إنها ..

وقبل أن تكمل « جالى » كلامها .. لمحت « نادية » .. بقعة دم على صدر « منى » فانطلقت منها صرخة حادة ، واندفعت تضمها إلى صدرها .. وتقبلها فى لهفة وجزع وتبلل وجهها بالدموع المنهمرة من مقلتيها ، وهتفت فى صوت متشنج باك :

— يا حبيتى يا منى .

وفتحت « منى » عينها وحاولت جهدها أن تتماسك .. ورسمت ابتسامة باهتة على شفتيها وأجابت :

— لا تخافى يا نادية .. ليس بى شىء .. إنه مجرد إجهاد . لقد عدوت كثيراً . وخرت « نادية » على ركبتيها بجوار الفراش ، واستمرت تضم « منى » إليها وتقبلها ، ودموعها لا تكف عن الانهمار ، وهى تتسائل فى صوتها الباكى الأليم :

— يا منى لِمَ فعلت هذا ؟! لماذا لم تسمعى كلامى يا حبيتى ! ثم وضعت رأسها فى كفها وازداد نحيبها .. وقالت وهى تهز رأسها فى يأس : — أنا السبب فى كل هذا .. كان يجب ألا أتركك تخرجين .. بل كان يجب ألا أوافقك على المجئ إلى هنا .

وكانت « منى » قد بدأت تستعيد قواها فمدت يدها لتحسس رأس « نادية » وتقول لها :

— لِمَ كل هذا يا نادية ؟! قلت لك إنى بخير .. وبعد أن أستريح برهة .. سأعود كما كنت .

ونظرت « نادية » إلى بقعة الدم على صدرها ثم عضت شفتيها حتى كادت تدميها ، واندفعت فى بكائها .

واقتربت جانب من نادية ، ومدت يدها ترفعها وتقول لها فى لهجة ناهرة : — نادية .. ما هذا الذى تفعلين ؟! إن أختك بخير .. كفى عن هذا البكاء الأحمق .. يجب أن تكونى أكثر تجلداً . ما هكذا يفعل العقلاء ؟

وحاولت « نادية » أن تكبت بكاءها .. ورفعت يدها تكفكف دمعها وتمسح عينها ، وقالت وهى تزدرد ريقها :
— أنا متأسفة .. أنا فقط .. أنا .. أنا أعلم أنها بخير أجل إنها بخير .. ولكنى أخشى عليها .. أخاف ...

وأقبل العجوز ويمون .. يربت ظهرها قائلاً :
— لا تخافى يا بنيتى .. لقد أرسلت فى استدعاء الطبيب وسيصبح كل شىء على خير ما يرام .. ثقى بالله يا بنيتى .. إنها لا تحتاج إلى أكثر من الراحة .
وأحست « نادية » بشىء من السكينة ، وهى ترى « منى » تستعيد قواها شيئاً فشيئاً ، واستطاعت « منى » بقدرتها على المرح وبالأمل الزاخر الذى يقبض بنفسها ، أن تمنحها بعض الطمأنينة .

وحضر الطبيب .. ولم يغير حضوره من الأمر الواقع شيئاً .. إذ لم يكن هو نفسه .. بهيكلة العجوز المتداعى .. وسمعه الأصم ، ويده المرتجفة .. يمنح فى النفس أى إحساس بالثقة .. وكان كل ما فعله هو أن نصح بأن تنقل إلى المستشفى وتعرض على أخصائى فى أمراض الصدر .

وعاود اليأس « نادية » .. بمجرد أن انصرف الطبيب .. وملاً نفسها حزن قائم مقبض .. ولكنها كرهت أن تستلم للانفعال .. وأن تندفع مرة أخرى فى بكاء متشنج لا يجدى نفعاً .. وأحست أنها يجب أن تقاوم وتتجلد لأن عليها أن تتصرف بطريقة ما .

وتملكها الخوف وهى تجد نفسها وحيدة بعيدة عن أمها وعن بيتها .
وكانت « منى » ترقد فى فراشها .. وقد ذهبت عنها الآلام وانقطع السعال .
وبدا عليها الهدوء والاستسلام .

وكان الجميع قد وقف فى القاعة يتدبر الأمر فى مناقشة تشبه التهامس .
وكان المسيو « كيلي » والدجاني وتونى ، قد وصل عندما أبلغه تونى النيا وجلس مطرقاً فى حزن .

— ٥٠٧ —

وقال العجوز ريمون وهو ينفض غليونه على حرف المدفأة :
— إن أقرب مستشفى نستطيع أن نجد فيه أخصائياً .. يبعد عن هنا مسافة ساعة على الأقل .

وقال « كيلى » وهو ينظر تجاه الحجرة التى رقدت فيها « منى » :
— ساعة أو أكثر .. لا بد أن ننقلها .

وتساءلت مدام ريمون :
— ولكن هل نستطيع نقلها الآن ؟
وقالت جانيت :

— لماذا لا نسأل الطبيب ؟!
وقال « تونى » وهو ينفخ بأنفه ساخراً :

— أى طبيب ؟! إنه يكاد يعيش .
وهز كيلى رأسه .. وقال فى حزم :
— رأى أنا أن ننقلها حالا .

وعقب تونى على قوله :
— والعربة موجودة على الباب .
وهزت العجوز مدام ريمون رأسها قائلة :
— اتركوها تستريح .. وستقوم مرة أخرى كالحصان .. لتلهو وتلعب .
ورفع زوجها حاجبيه وعقب ساخراً :

— وتسقط مرة أخرى ؟
ونفض « كيلى » وهو يقول :
— إذا كانت حالتها تحتل الانتقال فسننقلها .. وإذا لم تكن ، فلننتظر حتى تتحسن حالها ثم ننقلها .

وأطرت جانى وتساءلت :
— وإذا لم تتحسن ؟ أعنى .. إذا لا قدر الله حدثت مضاعفات جديدة ؟

— ٥٠٨ —

ورفع العجوز ريمون كفيه قائلاً :

— يدبر الله أمرها .

وأقبلت « نادية » من حجرة « منى » وكأنها تحمل عبئاً أنقض ظهرها ..
وقد بدت علامات اليأس والذهول في وجهها .. وكانت قد سمعت الطرف
الآخر من المناقشة .

وسألتها جانباً :

— ما رأيك يا نادية ؟

وأجابت « نادية » في شرود :

— في أى شيء ؟!

— لقد اتفقنا أن ننقل « منى » إلى المستشفى بمجرد أن تحتمل ذلك .

وعقب توفى قائلاً :

— إن المستشفى يبعد عن هنا حوالى ساعة .

ورفعت « نادية » حاجبها وتساءلت :

— ولماذا لا ننقلها إلى جاب ١؟

وتساءل العجوز ريمون في دهشة :

— جاب ؟

— أجل .. إن الذى يجعلها تحتمل الانتقال ساعة .. يجعلها تحتمله ساعة

ونصف الساعة .

— وماذا يوجد في جاب ولا يوجد هنا ؟

وارتمت « نادية » على أحد المقاعد في إعياء ووضعت رأسها بين كفيها
وأطلقت تنهيدة حملتها كل ما بها من مرارة ويأس وخوف وألم :

— بها يتتنا .. وبها أمتنا .

واختنق صوت « نادية » واهتز جسدها وربت السيدة ريمون ذراعها وهى

تقول فى لهجة مشجعة :

— ٥٠٩ —

— تجلدى يا بنتى .. إن الله لا ينسانا .
وهز العجوز ريمون رأسه وقال كأنما يحدث نفسه :
— تلك هى المشكلة .. لو أنه ينسانا !!
وقال « كيلي » وهو يقترب من نادية ويتحسس رأسها :
— كفى .. كفى يا نادية .
ثم وجه الحديث إلى الجميع قائلاً :
— إن نادية على حق .. عندما تحتمل « منى » الانتقال ، فسنعود بها إلى
جانب .
وقالت جابى فى أمل وحماس :
— إن شاء الله ستبل « منى » .. وستستطيع العودة إلى « جاب » .. ولن
تحتاج أبداً لكى ندخلها المستشفى .. إنها ستستريح وتقوم كالحصان .
وعقب تونى على حديثها قائلاً :
— أجل .. إن ما بها ليس أكثر من التهاب فى الزور .
وقالت العجوز ريمون :
— جازز جداً .. فأنا لا أثق فى هذا الطبيب المخرف . لقد مضى على خمسون عاماً ..
وأنا أشكو له من غثيان يصينى .. وهو يؤكد لى أنه غثيان حمل .
وعلت من حجرة « منى » ضحكة عالية .. وأحس الجميع كأن ضحكها
نسمة منعشة .. سرت فى نفوسهم .
ورفعت « نادية » المنديل لتجفف عينيها وهمست وهى تضحك :
— يا حبيبتى يا منى !!

(نادية — جـ ٢)

(٤٠)

ليل بلا عويل ...

مرت الليلة الأولى في « بريانسون » دون مزيد من متاعب .. فقد أغفت « منى » في رقدتها المهادئة المستسلمة ، وركدت « نادية » على فراش بجوارها ، مسبلة العينين ، مشدودة الأعصاب .. يقظة الذهن .. تتوهم في كل صوت .. صرخة .. وفي كل همسة سعدة أو حشرجة .. لا تكاد « منى » تتقلب أو تتحرك حتى تنهض فزعة بجذعها الأعلى منصتة في توتر .. مرتقبة في خشية وجزع . ولم يكذب يزغ أول شعاع حتى أخذت تفتح الحقائق وتجمع فيها ما رتبته في الأدراج والأرفف .

وفتحت « منى » عينيها متسائلة :

— ماذا تفعلين يا نادية ؟

— أحزم الحقائق .

— لِمَ ؟

— لأننا سنعود إلى « جاب » .

— ولكنى قد استرحت ولم يعد لى شيء .

— من أجل هذا سنعود .. سنعود قبل أن يحدث لك شيء .. ونحار فيما نفعل .

— ولكننا ستلتف رحلتهم جميعاً .. إنى أعذك بألا أجهد نفسى بعد ذلك ، وأن أظل راقدة في الفراش .. وأن ..

واقتربت « نادية » من فراش « منى » وركعت بجوارها وتحسست وجهها في رفق وقالت في حزام وإصرار :

— سنعود يا منى .. سنعود هذا الصباح .. أرجوك ألا تعارضيني .. كفى ما حدث لك بالأمس ..

وبعد ساعة كان الركب يقف أمام الكوخ على أهبة التحرك إلى « جاب » . وكانت « منى » تجلس بجوار « نادية » ، وقد بدا عليها الحزال والاصفرار .. وعلت شفيتها ابتسامة باهتة وهى تلوح للعجوز ريمون وامراته . ورفع العجوز يده .. وأشار ملوحاً .. وهو يرسم على شفيتها ابتسامة وقال فى مرح مفتعل :

— ستعودين مرة ثانية .

وأجابت « منى » فى ثقة :

— طبعاً سأعود . لقد أحببتكم جداً . أحبيت الكوخ والبحيرة .. وكل شىء عندكم .

ورفعت مدام ريمون يدها ملوحة وأخذ الركب يتحرك وقالت :

— ستعودين قريباً .. لن يحجزوك فى المستشفى طويلا ، فسيكتشف الأخصائى .. خطأ طبيينا المخرف .. وسيصرح لك بالعودة حالا .

وهزّت العجوز رأسها .. وأردفت ساخرة :

— غثيان حمل .. خمسون سنة وأنا أنتظر !

وضحكت « منى » وأشارت ملوحة للعجوز وهى تقول :

— عندما أعود فى المرة القادمة .. أرجو أن يكون الغثيان قد ذهب .. وأن تكونى قد وضعت طفلا .

ورفع العجوز ريمون يديه وصاح محتجاً :

— ليس منى .. على أية حال !

وانحدر الركب فى الطريق المجاور للكوخ .. وبعد بضع دورات .. حول الربا المجاورة .. اتخذ الطريق الأصلى المتجه إلى « جاب » .

وتحركت العربتان وقد خيم على ركبهما صمت ثقيل .. بعد أن انقشعت

سحابة المرح المفتعل الذى حاول العجوز أن يلفا به مرارة الرحيل .. ووجوم العودة .

وعبثاً حاول الفتية والفتيات .. إزالة سحابة الحزن التى حطت عليهم ..
وعبثاً حاولوا إشاعة المرح .. ومواصلة الحديث .. فقد كانت الكلمات تذوب
على شفاههم .. وترتد فى أفواههم .

ولم يملكوا فى النهاية ، إلا الاستسلام للصمت والإغراق فى الشroud .
وكانت « نادية » ترقب وجه « منى » فى قلق وخشية .. وبين آونة وأخرى
تسألها فى حنان :

— أتخسين بتعب ؟

وتهمز « منى » رأسها ضاحكة وتقول :

— أنا مستريحة تماماً .. كل ما أرجوه أن تستريحى أنت .
وفى كل منحدر أو حفرة أو منحنى ، تمسك « نادية » بيد « منى » وتهتف
بتونى راجية :

— على مهلك يا تونى .. حاسب .

ويهز تونى رأسه مطيعاً :

— حاضر .. لا تخافى .

وأحست « نادية » بطول الطريق .. كانت تلهف على العودة إلى البيت ..
وكانت تحس أنها ستكون أكثر أمناً على أختها وهى بجوارها .
وأخيراً لاح « جاب » .. أنبأت عنها ، شجرة السنديانة الضخمة التى
تظل محطة سكة الحديد .. والمداخن المرتفعة الصاعدة من الأسقف الحمر
المنحدرة .

وتوقفت العربتان فى الطريق الرئيسى « لجاب » .. قرب المعطف المؤدى إلى
روميت ، وغادر مسيو كيلى عربته متجهاً إلى منى ونادية وتساءل قائلاً :
— أنتجه إلى المستشفى رأساً .. أم تفضلون العودة إلى المنزل أولاً ؟ .

— ٥١٣ —

وهزت « منى » رأسها متسائلة فى دهشة :

— المستشفى لماذا ؟! لم يعد بى شىء .

ونظر الرجل إلى « نادية » يستطلع رأيها .. وضغطت « نادية » كفها بين ركبتيها وقد بدا عليها القلق والحيرة .. وأخيراً قالت :

— أظن من الخير أن نعود أولاً إلى المنزل .. حتى لا تصدم أمى بعودتنا إلى المستشفى مرة واحدة .

وعادت « منى » تهز رأسها وتقول فى إصرار :

— لن أذهب إلى المستشفى .. لا على مرة واحدة .. ولا على مرتين .. قلت لكم إنى أحس الآن أنى طيبة .

وربت مسيو كيلى على كتفها قائلاً فى عطف

— طبعاً أنت طيبة .. إنها مسألة طمأنينة فقط .. مجرد كشف أشعة وتحليل .. وسخافات مما يفعلون فى المستشفيات .

ونظر إلى ابنه الجالس على عجلة القيادة يرقبه وقد بدا عليه القلق وقال له :

— هيا ياتونى .

— إلى أين ؟

— إلى المنزل .. لنسلم على مدام لورا .. ثم نذهب إلى المستشفى .

وقالت « منى » فى عناد :

— إلى المنزل فقط ياتونى .. وبعدها يخلها ربنا .. لن أذهب إلى المستشفى إلا

عندما أحس أنى فى حاجة إليها .

ومرة أخرى تحركت العربتان .. صاعدتين المنحدر إلى روميت . واتجهت

إحدهما إلى منزل كيلى .. واتجهت الأخرى بنادية ومنى إلى منزلهما .

ووقفت العربة أمام بوابة المنزل .. وانطلق الكلب ينبح ويدور حولها ..

وأطل العجوز بول من كوخه بجوار البوابة وصاح متسائلاً فى دهشة :

— هكذا عدتما بسرعة ؟!

وأحسبت الأم بوقوف العربية .. وسمعت صيحة « بول » المدهوشة ..
فخرجت إلى الشرفة السفلية .. وأبصرت ابنتها تحتازان الباب ، فصاحت
ضاحكة :

— لم يعجبكما الحال بالطبع .. قلت لكما .. إحمدا الله على « جاب » .. لم
تصدقاني .

وأحسبت الأم من طريقة دخول « نادية ومنى » أن في الأمر شيئاً أكثر من مجرد
عدم الإعجاب بريانسون .

لم تكن « منى » تقفز ولا تصيح ، ولا تعدو وراء الكلب ولا تشاكس
العجوز بول .. كانت تسير هادئة .. وقد أمسكت أختها ذراعها .. ولم يبد على
الاثنتين .. الملامح الطليقة .. المرححة .. البهيجة .. كأن ثمة شيء عجيب .. يحيط
بهما .

ثم .. ما هذا الاصفرار بوجه « منى » ؟
. وأحسبت الأم بشيء يفرى أمعاءها .. واستندت على سور الشرفة وهتفت
متسائلة في خشية :

— ماذا بكما ؟

وكانت الأختان قد وصلتا إلى الشرفة .

وابتسمت « منى » وقالت ضاحكة :

— لا شيء .. لقد مللنا بريانسون .. واشتقنا إليك .

ونظرت الأم إلى « نادية » وعادت تتساءل :

— ماذا حدث يا نادية ؟!

وهزت « نادية » رأسها وقالت في شيء من الاستخفاف :

— أبدأ .. لقد تعبت « منى » .

وقاطعتها الأم متسائلة في حدة :

— تعبت ! كيف ؟

وهزت « نادية » رأسها في ضيق وقالت :

— تعبت كما يتعب الناس .

وأردفت « منى » :

— يا ماما لم يحدث شيء .. ألا ترينني أمامك ، كالجن ، لماذا تنزعجين ؟!

لقد ...

ولم تستطع « منى » أن تتم قولها .. فقد شعرت فجأة بالرغبة في السعال ، وحاولت جهدها أن تكبته .. واستحثت الخطأ تحاول الصعود إلى غرفتها .. ولكنها لم تكذب قدمها على أول درجة حتى أصابها الدوار وأحسّت كأن يدا تعصر قواها لتجذبها إلى أسفل .. واتكأت على درابزين الدرج .

واندفعت « نادية » إليها صائحة :

— منى !! ما بك ؟!

وقبل أن تصل إليها .. عاودها السعال الممزق .. ولم تجد من قواها المتسربة ما يعاونها على كبته . فانطلقت من شفيتها .

سعلة جافة !!

ثم سعلة أخرى .

ثم ثالثة .. تحمل معها .. سيلاً من الدماء !!

وصرخت الأم ، واندفعت إلى « منى » لتضمها إلى صدرها .

وتهاوت « منى » على درجة السلم .. وأسندت رأسها على درجة أخرى ، ونزيف الدم يتسرب من شفيتها .

وتهاوت « نادية » بجوار أختها على الدرج .

ومدت يداً مرتجفة لا تعرف ما تفعل ، وأحسّت بشيء من الدهول أمام الدماء المتدفقة التي أغرقت الدرج .

وهمست في أنين متحشرج منادية :

— منى !! منى !.

واندفعت جانيت من الباب على أثر الصيحة واندفع وراءها جاني وتوني ،
وخرجت الجدة العجوز تستند مذعورة إلى ضلفة الباب .

ومضت لحظة ذهول .. لم يسمع فيها سوى نسيج وبكاء .. واندفع توني
يعدو إلى الخارج صائحاً :

— سأذهب وأحضر عربة المستشفى .

واقتربت جانيت من « منى » ورفعتها من الدرج فأسندتها فوق الأريكة ..
وأحست بها تتهاوى في يديها كالخرقة البالية ، لا مقاومة ولا جهد .. وبدأ وجهها
كالبفتة البيضاء ، ونبضها لا يكاد يحس .

وظلت الأم منهارة على الدرج وقد أصابتها نوبة من التشنج والأنين ..
والهتاف باسم « منى » .. هتافاً يمزق القلوب .. وتهاوت الجدة على أقرب مقعد
وقد أخفت وجهها المجدد بكفيها وأخذت تتمم بكلمات خافتة .

وبعد دقائق ، وقفت عربة المستشفى أمام المنزل ، وهبطت منها ممرضتان
لباسهما الأبيض وصليهما الأحمر .

وبعد دقائق أخرى .. كان البيت قد سادته صمت القبور وخلا من كل من
به .. إلا العجوز المتهاوية على مقعدها ، مخفية وجهها بكفيها كأنما تحجب عنه
شراً .. وتحاول دفعه بدعواتها المبهمة .

وكان الكل قد انطلقوا في إثر العربة البيضاء .. حتى الكلب النابح .. لم يكف
عن عدوه حتى وقف معها أمام باب المستشفى .

واستقر الجميع في حجرة الاستقبال ، وتشاغل جانيت في العناية بالأم
المتشنجة الباكية .. وأصرت « نادية » على ألا تترك « منى » .. ودخلت معها
في حجرتها .. واندست بين الأطباء والممرضات .

وكانت « نادية » تحس بأن أعصابها قد شددت ، وأن مشاعرها قد جمدت ..
ولم تعد لديها القدرة على الإحساس بأى شيء .. لا ألم ولا حزن ، ولا قلق ولا
ضيق ، وباتت كأنها تتحرك في ضوء ساطع قد سلط على عينيها .. فهي لا ترى

غير الفراغ .

وكانت « منى » .. قد أخذت تفيق . وفتحت جفניה في تناقل .. ولم تستطع أن تميز شيئاً من الأشباح البيض الملتفة حولها ، وأمسكت « نادية » يدها وضغطت عليها وهتفت بها :

— منى .. حبيبتي .. أنا نادية .

وبللت « منى » شفتيها بلسانها وحاولت الكلام ، ثم عادت فأطبقتها .. وهمت « نادية » أن تقول لها شيئاً عندما سمعت الطيب يسألها :

— أأستطيعين أن تقدرى الكمية التى نزفتها ؟

وأحست « نادية » بمرارة فى حلقها .

لقد نزفت كثيراً .

نزفت ما أغرق الدرج .

نزفت ما جعلها تحس أن وعاء من الدم قد سكب .

ولكن أى لها أن تقدر كمية النزيف !!

وعاد الطيب يسأل فى رفق :

— بالتقريب .. كم لترأ ؟!

كم لترأ ؟! إنها لا تعرف اللتر .

وهي عرفت .. هل تستطيع تقدير النزيف .. هل تتصور أن تضع دم

« منى » العزيز فى أثناء لتعرف .. كم لترأ !

واندفعت تنشج باكية .. وهي تتمتم فى نحيبها :

— لا أعرف .. لا أعرف .

وربت الطيب ظهرها برفق :

— لا تنزعجى .. أنا متأسف .

وصمت برهة وهو يرقب دموعها المنسابة على خدها .

وعاد يسألها راجياً :

— لماذا لا تذهبين ، لكي تستريحى فى غرفة الانتظار ؟ !
وهزت « نادية » رأسها .. وأجابت فى إصرار :
— لا .. لا . لن أتركها .. أبداً .. إننا لم نفترق لحظة واحدة .
وأجس الطبيب بأنه يحتاج لشيء من الجهد كي يقاوم الدموع التى تتصاعد
إلى مقلتيه ، ومد يده وشد على ذراعها مشجعاً وهو يقول :
— إذاً ابقى إلى جوارها ، سنبدل كل ما فى وسعنا .
ثم التفت الطبيب إلى إحدى الممرضات متسائلاً :
— أسرعى لإحضار نتيجة التحليل .
وقبل أن تخرج الممرضة كان أحد الأطباء قد أقبل ويده ورقة .. بها عينة
الدم .. والكمية التى نزلت .
ورفع الطبيب حاجبيه فى دهشة وتمتم فى نفسه قائلاً :
— كل هذا قد نزل ؟ . عجيبة !
ثم وجه القول إلى الممرضة :
— أخبرى الدكتور « مانر » أن يحضر لينقل إليها دماً وأعطية نتيجة التحليل
وأسرعت الممرضة إلى الخارج .
وعادت « منى » تفتح عينيها .. وتبلل شفثيها بلسانها .. ثم التفتت حولها ..
وعندما أبصرت « نادية » بجوارها .. همست فى صوت خافت :
— أنت هنا يا نادية ؟
وحاولت « نادية » جهدها أن تكبت النحيب فى صوتها المختنق وقالت :
— أجل يا حبيبتى .
— أما زلت غاضبة منى .. أن لم أستمع إلى كلامك ؟
— أبداً يا حبيبتى .
— لن أجهد نفسى بعد الآن .. سأسمع نصيحتك دائماً .
ثم صمتت لتستجمع قواها .. وعادت تبلل شفثيها وتساءلت :

— أين ماما ؟

— فى حجرة الانتظار .

— لم أكن أريد أن أتسبب لها فى كل هذا الإزعاج .. أخبريها أنى متأسفة جداً .. أخبريها أنى سأعقل ، وأنى لن أجهد نفسى أبداً .

— حاضر يا منى . إنى ..

ونظر الطبيب إلى « نادية » وهز رأسه مقاطعاً :

— لا داعى لإجهادها بالحديث .

ومدت « نادية » يدها وتحسست جبين « منى » برفق قائلة :

— استريحى يا منى .. لا داعى للكلام .

وأقبلت الممرضة .. بأنبوبة الدم وعلقتها فى الحامل .. وأمسكت ذراع « منى » فكشفته ، وبدا الذراع أصفر متخادلاً ، ولفت الخرطوم جوله كى تبرز العروق ، ثم دفعا الإبرة فى عرق نافر ، وكشت « منى » ذراعها ، ثم أرختها ، وامتد الخرطوم لينقل الدم من وعائه إلى عروقها .. نقطة .. نقطة .

ووقفت « نادية » ترقب فى شرود ، قطرات الدماء .. تقطر فى ذراع « منى » لتعوض السيل الذى سكب منها على الدرج .

وانتهت عملية نقل الدم .

وبدت لنادية .. عملية طويلة مزعجة وبدت لها « منى » مسبلة العينين .. شاحبة الوجه ، وكأن الدماء التى تسكب فى عروقها .. تتسرب فى ناحية أخرى .

وأخيراً ساد السكون الحجرة .. ونظر الطبيب إلى « نادية » قائلاً :

— من الخير ، أن ندعها تستريح .

وبدت « منى » كالنائمة .

وغادرت « نادية » الحجرة متسللة على أطراف أصابعها وذهبت إلى حجرة

الانتظار وأقبلت على أمها تحتضنها باكية .

وتساءلت الأم في صوتها المتشنج :

— أين منى ؟. أريد أن أراها .

— إنها بخير يا ماما .. لقد نقلوا إليها دماً ليعوض الدم الذى نزفته .

وعادت الأم تقول فى تشنجها :

— أريد أن أراها .

— إنها نائمة الآن ، وقد أمر الطبيب أن نتركها لتستريح .

— أريد أن أراها يا نادية .. حرام عليكم !! أريد أن أرى ابنتى .

— سترينها يا ماما .. بمجرد أن تصحو ، سأخذك إليها .

وتوقفت « نادية » عن الحديث ، فقد أحست بحركة غير طبيعية فى الممر المؤدى إلى حجرة « منى » . وأبصرت إحدى الممرضات تهرول ، ثم رأت الطبيب يغادر حجراته .

وأحست « نادية » بشيء يعتصر جوفها ، واندفعت تجاه الحجرة ولحقت بالطبيب وسألته فى خوف :

— ما بال « منى » يا دكتور ؟!

وهز الطبيب رأسه قائلاً فى ضيق :

— لا شيء .

ثم وجه الحديث إلى الممرضة وأردف قائلاً :

— أبدلى الملاعة .. واطلبى من الدكتور « مانر » أن ينقل إليها كمية أخرى .

وأحست « نادية » أن قدمها ستخذلنها ، وأن جدران المستشفى تميد بهما ،

ثم تعلقت بذراع الطبيب ، وقالت باكية :

— هل نزفت ثانية ؟!

وربت الطبيب رأسها متسائلاً :

— لماذا لا تذهبين لتستريحى ؟

وعادت « نادية » تسأل فى أنينها المؤلم :

— أحقاً نرفت ثانية ؟!

وأجاب الطبيب ، وهو يحس بقلبه يتمزق من أنيها :
— إننا سننقل إليها دفعة أخرى من الدم .. لا تنزعجى من النزيف ، لا بد أن
يتوقف بعد هذه المرة .

ولكن النزيف لمن يتوقف .
لقد وضع وعاء الدم على حامله وامتد الخرطوم يستقطر الدم في ذراع
« منى » .. وعندما انتهى من عملة الإفراغ .
عاد السعال .. وعاد النزيف .
وبدت العملية كأنها إفراغ دم في وعاء مثقوب .
دم يصب .. ونزيف يفرغ .
حتى من الله عليهم بفترة راحة .
وهذا السعال .. واستقرت « منى » في فراشها بضع ساعات وأقبل الليل .
وساد السكون ، حجرات المستشفى .
وبدت « منى » راقدة على فراشها .. هزيلة صفراء .. كأنها عود ييس أو
ورق جف .. وعلى مقعد بجوارها استقرت الأم فاعرة الفم .. شاردة العينين ،
وفي ملاحظتها أمارات ذهول .
وعلى مقعد آخر جلست نادية .

وحاولت « نادية » أن تغمض عينيها .. وأن ترخي أعصابها .. وأن تريج
ذهنها من يقظته .

ولكنها أحست أن الضوء الساطع ما زال يغمرها ، وبدأت لنفسها كأنها
مخلوقة أخرى .. مشدودة .. متوترة .

ونبح كلب خارج المستشفى .
ودقت ساعة الميدان تعلن انتصاف الليل .
وأحست « نادية » بخوف من دقائق الساعة ، ومن نباح الكلب .. بل

خوف من الليل كله .
. وتذكرت .. صرخة .. أيقظتها ذات ليله .
وتذكرت العويل .. وتذكرت النواح .
وتذكرت أباه .. المسترخى على الأريكة فى حجرته .
وبرغمها .. اندفع الشريط المروع يطوف بذهنها .
الكبش المذبوح .
النعل المحمول على الأكتاف .. والموكب السائر .
وشواهد القبور ، والفقهاء يرتلون على حافتها ، والكل ينفذ ، ولا يبقى ألا
كلب ينبع وراء العربة الفارغة .
وعضت شفتيها .
لماذا تذكر نفسها بمثل هذا ؟!
ليس هناك أثر لهذه الأشياء .
لا يوجد فقهاء . ولا توجد « كباش » تذبح .
ولكن .. توجد حقيقة الموت .. إنها هنا وهناك .. وفى كل مكان .. والأمر
لا بد أن يجرى ، بطريقة ما .
بلا كباش تذبح ولا صلاة تقام ، ولا فقهاء يقرءون .
أف !! ما لها تذكر كل هذا ؟!
إنه شئ مروع .. شئ غثيف .
وهذا الليل .. لماذا لا ينتهى ؟
لماذا لا تشرق الشمس .. قبل أن تسمع الصرخات .. والنواح ؟!
ومرة أخرى ، عاد الشريط يطوف بذهنها ، الكبش المذبوح ، والعويل ،
والنعل المحمول ، والموكب السائر ، والقبور المقفرة ، العفراء المترية .
وتذكرت القبور .. المصفوفة أسفل الهاوية ، التى تبدو من منحدر الجبل
وراء القصر الخرب .

— ٥٢٣ —

وأحست بيد تعنصر جوفها وتفرى عظامها .. وأسقطت رأسها على
صدرها ، وراحت في إغفاءة .
وعندما استيقظت ، كانت الشمس تتسلل من النافذة .. وأصوات العصفير
ترزق في الأشجار المحيطة بالمستشفى .
ونظرت إلى « منى » فإذا بها راقدة كما هي في شحوب واستسلام ، ونظرت
إلى أمها فإذا عيناها شاردتان في ذهول وقد قرّح جفونها البكاء والسهرة .
وأحست « نادية » بنوع من السكينة .
لقد مرّ الليل الخفيف .. بلا صراخ ولا عويل .

(٤١)

صلاة ...

فتحت « منى » عينيها في ضعف ، ودارت بهما في سقف الغرفة .. في شيء من الدهشة والاستفسار .

وشيحاً فشيحاً بدت عليها سيماء الإدراك .. وكانت « نادية » قد اقتربت منها وأمسكت كفها بيدها وضغطت عليه برفق ، وأقبلت الأم من الجانب الآخر من الفراش ومالت على الجسد الواهن وضمته إلى صدرها في لهفة وحنان وهمست في دعاء يقطر أسى :

— يارب .. لا ترينى في إحداهما مكروهاً .. يارب اجعل يومى قبل يومهما .

وضمت « منى » أمها ضمة واهنة وقالت في استخفاف :

— لا يومك ولا يومنا .. هوّنى عليك .. فالمسألة لا تستحق .

ورفعت عينيها إلى « نادية » وقالت وقد رسمت ابتسامة منحتها كل ما استطاعت من مرح وسعادة :

— كنت أحلم أننا في مصر .

وكانت « نادية » ترقب الوجه الذابل .. والابتسامة الباهتة .. وتحاول أن تطرد من نفسها الأسى واليأس .. وأن تستجمع قواها لتمنح أختها أملاً وثقة .

وأجابته وهى تحاول أن ترد على أختها مرحاً بمرح وابتسامة بابتسامة :

— حقاً !! وكيف حالهم في مصر ؟!

ولم تجب « منى » وإنما حولت عينيها إلى أمها وقالت في لهجة جادة راجية :

— اسمعى يا ماما .. عدينى عندما أترك المستشفى أن نعود إلى مصر ؟

— ٥٢٥ —

وتساءلت أمها في لهجتها الحزينة اليائسة :

— إلى مصر ؟

— أجل . عدينى .. لا تتصورين كم كنت سعيدة في الحلم . لقد رأيتم جميعاً .. عمى سليمان يضحك معنا كما تعود أن يضحك ، ورأيت زوجته .. لم تكن تشبه الصورة التي أرسلها لنا .. كانت بديئة وبين يديها طفل جميل .. ورأيت عمتي كذلك .. « مجرمة » كما هي ، ولكنني شتمتها بما فيه الكفاية .

وكان صدرها قد بدأ يعلو ويهبط وأنفاسها تتلاحق .

وقالت « نادية » وهي تتحسس رأسها في حنان :

— لا تجهدي نفسك بالكلام يا منى .

ولم تأبه « منى » باعتراض « نادية » واستمرت تروى حلمها في اندفاع

مرح :

— ورأيت الدادة ، تماماً كما تعودت أن أرها تغازل مرسى « يساع الكازوزة » ، ورأيت من أيضاً ؟ رأيتم جميعاً حتى محمود صبي المكوجي ، لم أجد شيئاً قد تغير في البيت ، وقفت في الشرفة ، وقد تكاثفت حولها الياشمينة ، وذهبتنا سوياً إلى النادي .

وصمتت برهة ثم هزت رأسها ومصمصت شفتيها في إعجاب وأردفت

قائلة :

— كان النادي جميلاً ، وكانت الشلة كلها هناك . عصام .. وصبرى ..

و ..

وتوقفت وقد اتسعت ابتسامتها ، ثم نظرت إلى أمها قائلة :

— ماما ! لقد تعبت من الوقوف .. لماذا لا تستريحين ؟!

وازدردت الأم ريقها .. وانحنى مرة أخرى تضم ابتها إلى صدرها في إشفاق

شديد .. وعبراتها تنحدر من مآقيها في صمت .

وأحست « منى » بالعبرات الساخنة على وجهها .. فمدت كفها ومسحت

— ٥٢٦ —

برفق دموع أمها وقالت في لهجتها المازخة :

— ألم نقل إن المسألة لا تستحق يا ماما .. وفري دموعك وقت الحاجة .

وردت « نادية » وهي تحس بمرارة في حلقها :

— إن شاء الله لن تكون لها حاجة .

واستدارت الأم تسير بخطواتها المتثاقلة متجهة إلى خارج الحجرة ، وقبل أن تبلغ الباب هتفت بها منى في صوتها الضعيف :

— سنعود إلى مصر يا ماما .. بمجرد خروجي من المستشفى ؟

وهزت الأم رأسها وهي مستمرة في خطواتها المتثاقلة :

وعادت « منى » تقول :

— عدينى .. قولى نعم .

والتفتت الأم إليها وسيل العبرات مازال ينهمر وقالت :

— نعم يا حبيبتى .. سنذهب حيث تشائين .

وخرجت الأم ، ونظرت « منى » إلى « نادية » وقالت بأوسع ابتسامة

استطاعت أن ترسمها على شفيتها :

— رأيت .. هل تدرين من ؟

وابتسمت نادية وتساءلت وهي تتحسس شعر « منى » :

— من ؟

— رأيت صاحبك .. رأيت مدحت .. تماماً كما هو .. بقامته الطويلة ..

ومنكبيه العريضين ، وجبينه المتسع .. ورأسه الذى نخل من الشعر .. رأيت في

ملعب « الكروكة » هل تدرين مع من كان يلعب ؟

وهزت « نادية » رأسها ، وأحست بأن أنفاس « منى » قد ازدادت تلاحقاً

فربت يدها قائلة :

— استريحى برهة يا « منى » .. لقد تعبت من الحديث .

ولم تأبه « منى » لها ، بل استمرت تتساءل :

— ٥٢٧ —

— خمنى .. مع من كان يلعب ؟

« وتساءلت « نادية » لتجارها في الحديث :

— مع من ؟

— معك .

— معى أنا ؟

— أجل .. كنت تسيرون بجواره على بساط النجيل الأخضر .. عارية

القدمين .. بلا إشارب .

ورفعت « نادية » يدها في حركتها اللا إرادية تتحسس الإشارب الملتف حول عنقها .. وتساءلت وهى تهز رأسها ساخرة :

— كان .. بلا إشارب ؟ .. كان يجب أن أعطيك جيداً قبل أن تنامى .

وضغطت « منى » على كف « نادية » بكل ما تملك من قوى خائرة .. وتساءلت فى دهشة :

— حتى فى الحلم .. ترين هذا مستحيلاً ! لماذا يا نادية .. لماذا لا تقابلينه ..

بلا خوف .. ولا حجاب .. أو كدلك أنه سيحبك كما يحبك من رسائلك .. إنه يحبك أنت يا نادية .. أنت بشخصيتك .. التى يحس بها فى كل كلمة كتبها ... إنه ...

وربت « نادية » كتف « منى » وقالت مقاطعة :

— ليس هذا وقته يا منى .. دعينا من مدحت الآن .

— بل دعينى أتحدث كما أريد .. إنه يحب شخصك أكثر مما يجب صورتي ..

ولن ينقص من حبه أن تكون بعنقك بعض آثار حروق .. أو كدلك ...

— يا منى يا حبيبتي أرجوك أن تستريحى .. ليس هذا وقته .. ستحدث فى

كل هذا عندما تشفين .

— عندما أشفى .. سأكتب إليه أنا .. وأقول له الحقيقة وأرسل له

صورتك .

وهتفت بها « نادية » متسائلة في دهشة :

— منى !؟

— وإذا أتى فسألقاه وأقول له إنك نادية .. وإنك أنت التى تستحقين حبه ..
وسأنزعه عنك الإيشارب ، رغم أنفك وأريه وجهك كما سيراه دائماً .
— لماذا تقولين هذا يا منى ؟

— وسيحبك كما كان يحبك .. وسيعجب بك كما أعجب بك « جمال » عندما
أسقطت الريح الإيشارب على ظهر السفينة . هل تذكرين !؟
وهزت « نادية » رأسها وتهدت في يأس .. وقالت في صوت خافت :
— يحبنى أو لا يحبنى .. المهم أن تشفى أنت .
— على أية حال إني أنذكرك من الآن .. إذا قدّر الله وشفيت .
وردت « نادية » من قلبها :
— افعل كل ما تشائين .

ورفعت « منى » عينها إلى سقف الحجرة وتمتت داعية :
— اللهم اشفنى .. لقد حصلت على وعدين خطيرين إذا شفيت .. وعد من
أمى بالعودة إلى مصر .. ووعد من نادية بأن أصلح حالها .. وأردها إلى
صوابها .. اللهم اشفنى .. فإن شفائى سيحقق أحداثاً خطيرة فى الأسرة
ونظرت إلى « نادية » وابتمت فى أمل وأردفت قائلة :
— سنعود إلى القاهرة .. وسأتزوج من عصام .. وستزوجين من مدحت
هل هناك أحداث أخطر من هذه ؟

وبدت « منى » فى حديثها كأنها تلهث .. وازدادت شدة كفها على يد
« نادية » .. وبدأ وجهها يزداد شحوباً .. وأخرجت لسانها تبلل شفتيها ،
وازدردت ريقها بصعوبة .

وأحست « نادية » أن شيئاً فى جوفها يعتصر قواها .. وهتفت بمنى :
— مالك يا منى !؟ مالك يا حبيبتى ؟

ولم تجب « منى » فقد منعها سعدة قصيرة حاولت أن تكبتها كعادتها .. وسعدة أخرى .. انطلقت جامدة .. وثالثة .. اندفعت تحمل معها .. نزيهاً جديداً .

واندفعت « نادية » إلى الباب صائحة بالمرضة .. وقد روعها السيل القاني المتدفق فوق الأغطية البيض .

ومرة أخرى تكهرب الجو .. وأحست كأنها تدور في دوامة عميقة . ممرضات يدخلن ، وممرضات يخرجن ، وأطباء يهايمسون ويتشاورون ، ووعاء الدم يعلق في حمائله ، وخرطوم يمتد بإبرة تغرس في ذراع « منى » لتقطر الدم في عروقها .

وأحست « نادية » بأعصابها تتوتر حتى تكاد تمزق .. وأخذت أصابعها تقبض على ثيابها في عنف كأنما تريد أن تمزق شيئاً .. وخرجت من الحجره .. ثم أطلت مرة أخرى . واندفعت إلى آخر الممر .. ثم عادت دون أن تدري لماذا اندفعت .

وسمعت نحيب أمها في غرفة الانتظار ، كأنه أنين الجروح . وتذكرت نفس النحيب في منتصف ليلة سوداء .. في القاهرة . وأحست به يمزق نياط قلبها .. وودت لو تكف أمها عن هذا الأنين . ولكنها لم تجسر على الذهاب إليها . وعادت مرة أخرى إلى الحجره التي احتشد فيها الأطباء .. وتسلفت من بينهم وألقت نظرة على « منى » ، فإذا هي فاقدة الوعي ، مسبلة العينين ، قد كست وجهها صفرة عجيبة . وعادت كفا « نادية » تقبضان على ثوبها في عنف كأنما تود أن تمزقه .

لماذا يتركونها هكذا ؟!

شيء ما لا بد أن يفعل .

شيء أكثر من هذه الدماء التي تقطر في عروقها .

أليسوا أطباء ؟

— ٥٣٠ —

لماذا يقفون هكذا يرقبون في صمت وعجز ؟

لماذا لا يقول أحدهم شيئاً ؟

وفجأة نطق أحدهم .. نطق أحدهم بعد أن أمسك برسغ « منى » ثم ترك يدها تسقط على الفراش .

نطق وقد تقطب جبينه وزمت شفاته واحتلجت زاويتا فمه ، وبدا وجهه مكفهراً مريداً .

نطق ليقول للممرضة في نبرات متبرمة يائسة .. وهو يشير للوعاء القاني الذي يقطر الدم :

— انزعيه .. لا فائدة .. لقد انتهت الصبية .

نطق الرجل .. ليعلن في كلماته القصيرة .. انطفاء الذبالة ، وجفاف العود . وجئت « نادية » على ركبتيها بجوار الفراش .. وأطبقت بأسنانها على حافة الحشية .. ملقية رأسها على الجسد المسجى ، ومطبقة بقبضتها على الأغطية في استماتة .. كأنما تحاول أن توقف شيئاً .. أو تمنع شيئاً وهتفت في صوت متحسرج :

— منى .. حبيبتي .. لن تذهبي يا حبيبتي .. ستشفين .. وستحقق لك الوجود .. ستشفين ، ونفعل لك ما تشائين .. ستخرجين من هنا يا منى ، لكي نعود إلى مصر .. منى .. حبيبتي .

ونطق الطبيب مرة أخرى ، ووجهه يزداد إرباداً .. وملاحه تزداد تقلصاً وانفعلاً ، ووجه القول إلى الممرضة مشيراً إلى نادية :

— خذوها خارجاً .

ومدت الممرضة يدها تربت كتف « نادية » في رفق .. محاولة إبعادها عن الفراش .. ولكن « نادية » ازدادت تشبثاً به .. وردت في صوتها المختق وهي تدفن وجهها في الأغطية :

— لا أستطيع تركها .. إنى لم أتركها أبداً .. أبداً .

وقال الطيب المريد الوجه في نبراته المقتضية الحزينة :

— دعها .

وتركتها الممرضة .. وتفرق الجمع الحاشد .. رويداً .. رويداً .. تفرقوا في
سكون وصمت .. بلا صراخ يشق أجواز القضاء ، ولا نجيب يدوى في أنحائه .
انفضوا عن الحجرة .. كأن حدثاً لم يقع .. كأن كارثة لم تحدث ، وكأن
الصبية الراقدة قد أغفت إلى حين .

وأحست « نادية » بالخوف الشديد يسرى في أعماقها .
لقد كانت تخشى الضجيج الذى صاحب موت أبيها .. فإذا بها ترتجف من
الصمت الذى حف برحيل أختها .

لماذا لا يصرخون ؟

لماذا لا يولولون ، ويضجون ؟

إن في ضجة الصراخ .. أنساً من وحشة الموت .. وتمويهاً لصمته الخفيف .
لماذا يتركونها هكذا .. بمثل هذه السكينة القاتلة !

— لعلها .. لم تذهب .

أجل .. الأمر كله خدعة وغيث .

أو لعل الأمر كله .. لا يعدو كابوساً أطبق عليها حين غفوتها .
ورفعت رأسها المدفون في الأغطية ببطء .. فإذا بالغطاء الأبيض قد غطى
الجسد كله .

ومضت لحظة وهى ترقب الغطاء الأبيض المشدود على وجه أختها فى ذعر
شديد .. وهى تتنفض كريشة فى مهب الريح .

وقبل أن تمديدها لتزج الغطاء .. سمعت نحيباً يقترب من وراء الباب .. سمعت
نحيباً يشبه أنين كلب جريح .
نحيباً لا تخطئه أذناها .

وفتح الباب ، وبدت أمها تترنخ وترنخ الذبيحة سرقها السكين .

واندفعت « نادية » .. لترتمى فى أحضانها .. متشنجة صارخة ، وتعلقت
بصدرها تعلق الطفل المدعور ، وهى تصيح بصوتها المختنق :

— ماما .. ماما .. لن نترك « منى » .. لم تكن تريد أن تموت .. كانت تريد
العودة إلى مصر .. لقد وعدناها يا ماما .. ألا تذكرين ؟

وضمت الأم ابتها إلى صدرها .
وتواترت الأحداث بعد ذلك .

وتزاحمت الأشباح فى الحجرة .. باهتة ، واهية .

وسمعت « نادية » أصواتاً معزية ، وأحست بربرات رقيقة .. سمعت صوت
جانيت تبكى ، وصوت مسيو كيلى يأمرهم بالخروج ، ورأت وجه تونى محمر
العينين ، وأحست بجائى تضمها باكية .

وأناس كثيرون .. راحوا وجاءوا ، وجاءوا وراحوا ، وأشياء كثيرة
حدثت .

وهى تحس كأن دوامة شديدة تدور بها .. لتتركها بلا وعى ولا إدراك ولا
قدرة على التصرف .

لا شئ سوى الاستسلام العاجز .. اليأس .. الراضخ لكل ما يملئ عليه وما
يساق إليه .

وأخيراً .. انتهت بها الدوامة إلى نفس المنظر المخيف .

منظر الركب .. السائر فى بطء وتناقل ، وقد حمل العزيز الراقد فى صندوق
خشبى ليواريه حفرة بباطن الأرض .. ثم يهيل عليه الثرى ، ويتفرق عنه بعد أن
ينفض منه يديه .

ولم يكن الطريق مقفراً فى هذه المرة .. كانت الخضر تكتسو جوانبه وقد
بدت أسقف البلدة الحمراء على يمينه .. وعن يساره بدا سفح الجبل بأشجاره
المتكاثفة .. ومياهه المنحدرة .. ومن أقصى الأفق بدت القمم البيض التى تناطح
السحاب .

وبدت لها المقابر الرخامية المصفوفة في سفح الجبل .. نفس المقابر التي كانت
تطل عليها من أعلى الجبل .. عندما تجلس عند حرف الجرف وراء البيت
المهجور .

وكانت رائحة الزهور .. تعطر الجو ، ورطوبة الأشجار والحشائش تبلل
هبات النسيم .

وتوقف الركب بحمله العزيز .. كما توقف في أرض الغفير .
وأحست بقواها تخور .. وبالأرض تميد بها .. ومدت يدها لتستند إلى شيء
قبل أن تنهوى ، وأحست « بجأى » تقترب منها وتضمها إليها .
وسمعت من القوم لغطاً ، وأحست أن شيئاً ما يعوق العملية الشاقة المخيفة ..
عملية إيداع « منى » باطن الأرض .

ورأت التردد في وجوه الجميع .

وسمعت أحدهم يسأل :

— لماذا لا تسألون الأم ؟

وأجاب آخر :

— حرام عليكم .. لقد فقدت وعيها مرتين خلال الطريق .

وأردف صوت ثالث :

— أتركوها في حالها .. إنها لا تكاد تتنفس .

وسمعت صوت بول العجوز :

— وماذا تعرف هي عن شعائرهم .. افعلوا ما يحلو لكم إن إلها واحد .

وهز مسيورينو رأسه وتتم قائلًا :

— أجل .. الإله واحد ، والمصير واحد .

وأبصرت « نادية » الصندوق الخشبي يحمل ثم يوضع على الأرض .

وأحست كأن شيئاً ينزع من جوفها .. ولم تستطع أن تكتم صرخة حادة .

انطلقت من شفتيها ، واندفعت نحر راکعة بجوار الصندوق وتحتضنه بين

ذراعها ، وهى تهتف فى شبه حشرة
— منى .. منى .. يا حبيبى .. كيف أتركك وحدك .. لماذا لا تجيبين يا
منى ؟!

ثم نظرت إلى الجميع ، وهم واجهون من حولها .. وهتفت :
— لا تتركوها .. إنها تخشى الظلمة .

وانحنى مدام كلود فوق « نادية » ، ورفعتها فى رفق قائلة :
— تجلدى يا نادية . اذكرى الله .. اذكره .. يشدد من أزرك .

وضمتها مدام كلود إليها ، وهى مازالت تتمتم :
— اذكرى الله يا نادية .. إلها جميعاً .. اطلبى الرحمة لأختك .. أليست لكم
صلوات .. إن لديكم القرآن .. لماذا لا تقرئين بعضه .. ألا تظنين أختك فى
حاجة إليه الآن ؟!

ودفنت « نادية » رأسها فى صدر السيدة ، واندفعت فى نوبة من البكاء ..
أحست بعدها بشئ من السكينة .

وعادت السيدة تربت ظهرها وتضمها فى رفق قائلة :
— اذكرى الله يا نادية .. اذكره يا حبيبى .. اقرئى بعض صلواتكم ..
سترخ نفسك كثيراً ، وسترخ أختك .

وازدردت « نادية » ريقها ، وأحست من قول السيدة بمزيد من السكينة ،
وأخذت تتمتم بلا وعى .. ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب
العالمين .. الرحمن الرحيم .. مالك يوم الدين .. إياك نعبد وإياك نستعين ..
اهدنا الصراط المستقيم .. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ، ولا
الضالين ﴾ . آمين .

وعادت السيدة تضمها ، وهى تقول :
— لا تكفى . قولى كل ما تعرفينه من صلواتكم وقرآنكم .
وعادت « نادية » تتلو كل ما تحفظه من آيات القرآن .. أخذت ترددها فى

— ٥٣٥ —

أول الأمر بلا وعى .. والسكينة تدب في صدرها شيئاً فشيئاً .
وكان الصندوق قد وورى الثرى .. ووقف الجميع ، وقد بدت عليهم
الحيرة .

وهمت « نادية » بالتهاولى مرة أخرى .
وعادت السيدة كلود تشد أزرها قائلة :
— لماذا لا تصلين لأختك يا نادية ؟ .. إنى أعرف أن عندكم صلاة للموتى .
والتفتت « نادية » حولها فى عجز ، وقالت وهى تتهز باكية :
— إنى .. إنى .. إن الصلاة لا تنفع بلا وضوء .
— الصلاة تنفع دائماً يا نادية .. إن الله لا يحاسبنا على الصغائر .. صلى يا
نادية .. صلى يا حبيبتى .

وعادت « نادية » تنظر حولها مترددة وجلة وتمتمت قائلة :
— إنى لا أعرف أين القبلة
— الله موجود فى كل مكان يا حبيبتى .. صلى له .. إنه لن يحاسبك على
اتجاه .. صلى يا حبيبتى .

وفى وجل وحيرة .. نظرت « نادية » إلى الجمع الواقف حولها .. يرقبها فى
صمت كأن الطير على رأسه .

وكما تعودت « نادية » أن تصلى صلبت جسدها .. ورفعت سباتيها إلى
أذنيها .. ثم هبطت بكفها مطبقتين أسفل صدرها .
وبدأت شفتاها تتمتم بالفاتحة وقل هو الله أحد .. ثم ركعت وسجدت ..
وركعت وسجدت ، والجميع يرقبون فى خشوع شديد ، وقد انحدرت الدموع
فى مآقيهم .

وأخيراً تلفت نادية .. بمينة وحيث .. ثم تلفت يسره وحيث مرة أخرى .
وانحنى عليها السيدة الطيبة .. تضمها إلى صدرها فى حنان شديد .
ومرة أخرى .. عاد الراكب إلى المدينة .. فى بطئه وتناقله .. وصمته الحزين .

(٤٢)

لم يعد وهماً

كان مدحت قد أعد كل ترتيبات السفر ، وكانت عربة جاد الله تجتاز بهما نفق العباسية .. بعد أن حزم حقائبه .. وودع أمه مكفكفاً دمعها .. مؤكداً لها أن سفره ضروري لنجاته من متاعب معدته .. وأنه سيعود لها سليماً معافى .
ولمح جاد الله عقرب الساعة في ميدان العباسية يشير إلى التاسعة .. فالتفت إلى مدحت متسائلاً :

— متى ستقوم بالباخرة ؟

وبدا مدحت شارد الذهن .. مما جعل جاد الله يعيد سؤاله ساخراً :

— إنـت يا أخيـنا .. متى ستقوم بالباخرة ؟

والتفت إليه مدحت .. وأجاب في اقتضاب الكاره للحديث ، المحب للشرود :

— الرابعة .

— بعد الظهر ؟

ونظر مدحت إلى جاد الله مغيضاً .. ورد في سخرية :

— لا .. بعد منتصف الليل .

— ولماذا إذن أقلقـتـنـي بهذا التبـكـير ؟ .. دعنا نعود إلى النادي .

وهز مدحت رأسه وقال في استخفاف :

— أنت فائق ورائق .

— أنا ؟ أنا اللي فائق !.. أنا الذي أرحل للنزهة في جبال الألب في عز المعمة ؟

— أى معمة ؟

— ٥٣٧ —

— معمعة القنال .. ألا تحس بالأساطيل التي تتحرك والقوات التي تحشد ؟
— ألم تعرض المسألة على مجلس الأمن ؟
— أجل .

— ألم يتفقوا على الاجتماع في جنيف في آخر هذا الشهر ؟
— اتفقوا .. ولكنهم مستمرون في هياجهم .
— مسيرهم يخشعوا .

وكانت العربة قد اقتربت من مستشفى الدمرداش .. فأردف مدحت وهو
ينظر إلى ساعته قائلاً :

— ادخل بنا على المستشفى .
— أستمكث كثيراً ؟

— المفروض أن نكون في الإسكندرية قبلها بساعة .. من أجل إجراءات
الجمرك .

— أى نكون هناك في الثالثة .

— ومن هنا إلى الإسكندرية أربع ساعات .. بما فيها نصف ساعة غداء في
الرسـت هاوس .

— يعنى نتحرك من هنا في الحادية عشرة .

— وساعة احتياطى للطوارئ .

— يعنى تستطيع أن تمكث في المستشفى ساعة إذا شئت .. ألا تكفيك
ساعة ؟

— تكفى جداً .. سأمر على بعض المرضى .. وأعطى بعض التعليمات
للدكتور أنيس .

— وإذا رزقك الله بعملية ؟

— لقد قلت لهم إني سافرت فعلاً .. وقد وزعت كل العمليات على أنيس ،
وإبراهيم زكى .

— ٥٣٨ —

- وتوقفت العرب في فناء المستشفى .. وهبط الاثنان متجهين إلى الدرج .
- وقال جاد الله محذراً .. وهما يجتازان المدخل :
- إياك أن تأخذك الجلالة وتضيع السفر .
- غير معقول ، لن يستغرق مروري أكثر من ربع ساعة .. إني أريد أن أطمئن على الرجل الذي أجريت له العملية أمس .
- الذي قطعت زوره .. أم الذي نزلت معدته ؟
- الذي قطعت زوره مات في منتصف الليل .
- يا ساتر !
- كان مفروضاً أنه سيموت .
- لماذا لم تتركه يموت وحده ؟
- لأن المفروض أن أبذل كل ما في وسعي .
- للقضاء عليه ؟!
- لإنقاذه يا حيوان .. أنا لست جبناً ، حتى أترك المريض يموت وحده لجرده خوفاً من أن يقول الناس إن عمليتي كانت السبب في موته .. مادام هناك أمل في أن أنقذه ولو واحداً في الألف ، فلا بد أن أجرى العملية .. إن ثلاثة أرباع الأطباء يتركون ..
- وقاطعه جاد الله وهو يدفعه من ذراعه قائلاً :
- مفهوم .. مفهوم .. أسرع بالمرور وسأنتظرك في المكتب .. بعد أن أمر على « تيتي » .
- ألم تخرج بعد ؟
- ولماذا تريدها أن تخرج .. دعنا نتسلى معها .
- وافترق الاثنان .. وبعد ربع ساعة التقيا مرة أخرى في المكتب .. وأخذ مدحت يجمع الأوراق المتناثرة على المكتب ويضعها في الأدراج قائلاً لجاد الله :
- لا تدع أحداً يعيث في المكتب .

— ٥٣٩ —

— هل به شئ يخشى عليه ؟

— به محاضرات .. وبحوث

— إذن لن يقربه أحد .

ونظر جاد الله إلى الساعة في يده وتساءل :

— أبقى لديك شئ تفعله ؟

ونظر مدحت حوله كمن يحاول التذكر .. ثم قال :

— أبدأ .. هيا بنا .

وقبل أن يهما بالخروج . سمعا وقع أقدام خارج الحجرة ، ثم بدا بالباب بضع جنود يرتدون ملابس كاكية .. وقد وضعوا على رؤوسهم الكاب وحزموا خصوصهم بالقوايش الكاكية العريضة .

وبدت الدهشة على وجه مدحت وجاد الله . وهما ينظران إلى الحشد الكاكي الذى وقف بباب الحجرة .

وما لبث أن ميز مدحت تحت المظلات الكاكية وجوه طلبته .. ومن بينهم وجه صبرى النحيل بمنظاره السميك .

وهتف جاد الله ضاحكا :

— يخرب بيتكم .. ما الذى عملتموه فى أنفسكم ؟

وأجاب صبرى ضاحكا :

— تطوَّعنا فى جيش التحرير .

وقطب مدحت جبينه .. وتساءل فى دهشة :

— جيش التحرير ! وماذا تفعلون به ؟

ورد أحد الطلبة :

— نتدرب على ضرب النار ، وعلى الطواير العسكرية .

وهز مدحت رأسه .. متسائلا فى استخفاف :

— ضرب نار ؟. أتجدون من وقتكم فراغاً لضرب النار ؟! هل انتهيم من

دروسكم كلها ؟

ورد صبرى فى نوع من الاحتجاج :

— الدروس تستطيع الآن أن تنتظر يا دكتور .

— تنتظر !. وضرب النار لا يستطيع الانتظار ؟

— بالطبع لا .

— لأن العدو على الأبواب !!؟

— طبعاً على الأبواب يا دكتور .. لقد جئنا نحتج على سفرك فى مثل هذا

الوقت .

ورفع مدحت حاجبيه فى دهشة .. وأطلق من أنفه نفخة سخرية وتساعل :

— ما هذا الوقت ؟

وأجاب صبرى وقد بدت على وجهه سيماء الجذ :

— نحن نحبك يا دكتور مدحت .. نحب رجولتك وشجاعتك .. ونود أن

تكون إلى جانبنا تشد من أزرنا فى كفاحنا .

وتضاحك مدحت متسائلاً :

— أى كفاح !! لقد انتهت الأزمة .. لقد اتفقوا فى مجلس الأمن على الاجتماع

فى جنيف لحل المسألة . إنها فورة هدأت وزوبعة مرت بسلام .

وعاد صبرى يقول فى لهجة الواثق :

— لم تمر بعد .. إنهم مستمرون فى تحركاتهم وتجمعاتهم .

— مجرد تهويز ، فلم يكن من المعقول أن يتلقوا الصفعة على خدهم الأيمن

ليديروا لنا فى استسلام خدهم الأيسر .. هل كان هذا معقولاً ؟

ورد جاد الله قائلاً :

— طبعاً لا .. كان لا بد لهم من الهياج والتلطيش والتشليق .. والتهديد .

بالويل والثبور وعظائم الأمور .

وأجاب مدحت :

- وهذا هو ما فعلوه .. ولا أظنهم سيجرعون على أكثر منه .
وتسأل صبرى :
— ولِمَ لا .. هل هناك ما يمنعهم من القيام بأكثر ؟!
— مثل ؟
— استعمال القوة .
— من أجل ؟
— احتلال القناة .
— هل تتصور هذا ؟
— ولِمَ لا ؟
— إنهم لن يفعلوها إلا إذا فقدوا عقولهم .
— أظنهم لم يفقدوها بعد ؟
— ليس إلى الحد الذى يدفعهم إلى القضاء على مصالحهم وتعطيل القناة .
— ألم يحاولوا تعطيلها بسحب المرشدين ؟
— كانت مجرد مناورة .. لإظهارنا أمام العالم بمظهر العاجز المتعنت .
— ولو نجحت .. هل تظنهم كانوا سيقفون مكتوفى الأيدي .. أم كانوا سيتدخلون ؟
— ليس بالقوة .. لأنهم يعرفون معنى التدخل بالقوة .
— إنهم لن يكفوا عن خلق فرصة التدخل بأية وسيلة . لقد عقدوا مؤتمر لندن .. وأرسلوا بعثة « البغل الأسترالى » لعرض قرارات يعرفون سلفاً أنها مرفوضة ، لكي يظهرونا بمظهر المتعنت المتجبر ، الذى يحتاج إلى تأديب .. فلما فشلوا أقدموا على مناورة سحب المرشدين .. لكي نبدو بمظهر العاجز المفسد .. فلما فشلت .
— اضطروا إلى التسليم .. والشكوى لمجلس الأمن .. وقبول التفاوض فى جنيف .. أليس كذلك ؟

— لا أظن .. إنهم يعتبرون جلاءهم عن القناة غلطة كبرى يجب إصلاحها .

— بأى شىء ؟

— بالعودة .

— إلى هذا الحد ؟

— أعتقد هذا .. لقد ظنوا جلاءهم رشوة لطاعتهم .. فلما عصيائهم ندموا

على رشوتهم .. وأجسوا أننا لا نستحقها .

وتساءل مدحت ضاحكا :

— وسيسحبونها منا ؟

وأجاب صبرى مؤكداً :

— سيحاولون .

— أنت متشائم جداً .. إن الزمن لا يعود القهقري .. لقد مضى عهد

القرصنة .. ولم تعد حريات الشعوب رشاوى تعطى وتسحب ، بل باتت

حقوقاً لا تملك قوة أن تسلبها بعد أن كافح أصحابها في الحصول عليها .

• ورفع مدحت معصمه بالساعة .. فإذا بها قد قاربت العاشرة .. فقال للصبية

المشدودين في ثيابهم الكاكية :

— لقد أزف الوقت .. لا بد أن نرحل الآن ..

ومد يده فربت بها كتف صبرى .. وقال فى ثقة :

— لا تتشائم هكذا .. إنها زوبعة فى فنجان ، لا تنسوا دروسكم .. فلن

أرحمكم عندما أعود .

وهز صبرى رأسه وقال فى أسف :

— خسارة .

وتساءل جاد الله قائلاً :

— ما هى هذه الخسارة ؟

— كنا نود أن يبقى معنا .. إنه مقاتل بطبعه

— ٥٤٣ —

وضحك مدحت وأجاب :

— إن شاء الله .. لن يكون هناك ما يستحق القتال .

ومد يده يشد على أيديهم مودعاً .. ثم أردف يقول :

— على الأقل حتى أعود .. إن لدينا فرصة أمان حتى آخر الشهر .. فلا أظنهم

سيستعملون معنا القوة قبل أن نجتمع ثم نختلف .

ثم وجه القول إلى جاد الله ضاحكاً :

— وإلا إيه يا جاد الله ؟

وأجاب جاد الله بطريقته المهرجة :

— إيه !

وبعد لحظات كانت العربية تنطلق بهما .. متجهة إلى طريق الإسكندرية

الصحراوى .

وفي الساعة الرابعة .. كان مدحت يقف على سور السفينة .. ملوحاً لجاد

الله . ووقف جاد الله يثير له ملوحاً . وقبل أن تبدأ السفينة تباعدها على

الرصيف .. صاح جاد الله :

— اكتب لى عن كل ما يحدث

وهز مدحت رأسه .. وعاد جاد الله يصيح مؤكداً :

— بصراحة .

وضحك مدحت وعاد يلوح بيده .. ومرة أخرى انطلق صياح جاد الله من

الرصيف قائلاً :

— بلغها سلامى .

وهز مدحت رأسه ضاحكاً .

وعاد جاد الله يقول :

— وعرفها فضلى عليها .. فلولأى ما كتبت إليها .. ولا كنت الان فى

طريقك إليها .

وعاد مدحت يهز رأسه ضاحكا .
وعاد جاد الله يصبح متسائلا .. والسفينة تتباعد رويداً رويداً .. والصوت
يتضاءل :

— أستخطبها ؟!

وفغر مدحت فاه في دهشة .. وبسط كفيه كأنما يقول لجاد الله :

— ما هذا الجنون .. أهذه طريقة للسؤال ؟!

ثم لَوَح بيده .. واختفى داخل السفينة حتى يوقف سيل أسئلة جاد الله
الحمقاء .. التي اندفعت تتدفق منه في اللحظة الأخيرة .

واستمرت السفينة تتباعد عن الشاطئ .. وعاد مدحت ليرقب مباني
الإسكندرية وهي تتضاءل وتنكمش ، وهبت نسمة من نسيمات البحر الرطبة في
صدره .. وأحس بشيء من الاتعاش ، وأطلقها في استرخاء .. حامله معها ما
تبقى في صدره من متاعب السفر ومشكلاته وتعقيداته .

واستلقى فوق مقعد طويل .. على ظهر السفينة ، وأحس وهو يلقي رأسه
على حافة المقعد .. ويمدد ساقيه ويرخي ذراعيه ، أنه مخلوق سعيد بلا هموم ولا
مشكلات ، بل أكثر من هذا .. إنه ينتظر أشياء جميلة .

لقد ملأه إحساس الطفل يلقي بكراساته وكتبه ، ويستلقى في انتظار عيد ..
أو نزهة .. أو أمنية توشك أن تتحقق .

وبدأ يتذكر .. كيف بدأ الأمر .. بقلم على خريطة .. يرسم طريقه من
مارسيليا تجاه الشمال ، باحثاً عن المدينة الصغيرة .. ذات الحروف الثلاثة ..
القائمة وسط التضاريس البنية اللون التي تناثرت عليها الأحرف الكبيرة « الألب
العليا » .

لقد مارس الرحلة أياماً على الخريطة .. استقرت في ذهنه .. وتأكدت في
نواياه .

وقبل ذلك .. كيف بدأت المسألة كلها .

رسالة من مجهولة في بضع كلمات .. تخبره أن حياتها معلقة .. في رده .
ردّ عليها .. ردّ إحسان .. كما تمنح السائل الذي تمر عليه بعربتك حسنة .. لا
لأنه يستحقها .. بل لأنها لن تضيرك
وردت عليه .. ورد عليها .
وهز رأسه في دهشة :

عجيبة !! كيف حدث كل هذا ؟
كيف باتت هذه المخلوقة المجهولة .. جزءاً من حياته ؟
كيف أضحت أعز أمانيه .. وأجمل آماله ؟
كيف أمكن أن يتجسد هذا الوهم .. هذا الطيف .. هذا اللاشيء .. المكوّن
من حبر على ورق .

كيف أمكن أن يتجسد ليلاً قلبه .. ويملك مشاعره ؟
كيف باتت واضحة .. مثل هذا الواضح ؟
كيف برزت ملامحها .. وتأكدت تفاصيلها .. حتى أضحت على بعدها
أقرب من أقرب الناس إليه ؟
وفجأة .. مر بذهنه خاطر أحقّ مجنون .. مر بذهنه كما تمر الطلقة الطائشة ..
تصيبنا بالدعر .. دون أن نعرف من أين أتت ولا أين تستقر :

ترى ماذا يفعل .. إذا لم يجدها ؟
يعنى إذا لم يلق لها وجوداً !!
إذا ذهب إلى البلدة .. وإلى البيت .. ولم يجد هناك مثل هذه المخلوقة التي
رست في حناياه .. وتدقت في أعماقه ؟
ونفض عن نفسه هذا الخاطر الطائش
نفضه تماماً .. كما ينفض ذرة غبار .
ورفض أن يفكر فيه .
إن « نادية » موجودة .

موجودة .. كما هو موجود .

إن ثقته في وجودها .. كثقته في وجوده .. فإذا جاز له أن يتصور أنه مخلوق وهمي .. وأن كل هذه العمليات التي أجراها .. والمرضى الذين مزق أجوافهم .. شيء لا وجود له .. وإذا جاز له أن يعتبر أن هذا الكائن المسافر على ظهر السفينة .. والذي يسترخى على المقعد في سعادة الطفل .. كائن من ابتكار الفهن .. وخلق الأوهام .

إذا جاز له هذا .. فله أن يتصور أنها مخلوقة غير كائنة .
وسمع دقات الساق تودن بالمشاء .. وجذب من الهواء الرطب نفساً طويلاً .. وأطلقه حاملاً معه سخافة شكوكه .. وحمق ريته .

ثم نهض هو ليتحسس صدره في ثقة .. ويشد عضلات ساقه في قوة .
واتجه إلى حججته .. ليبدل ملابسه .. ومرتب أيامه الخمسة بالسفينة .. استمتع بها بقدر ما سمحت له لفته على الوصول .. وفي بعض هنيهات القلق .. كان يتعنى لو اتخذ طريقه بالطائرة إلى مارسيليا .. أو باريس .. أو جنيف .. أو إلى أقرب مطار يوصل إلى « جاب » .. ولكنه كان يهده لفته بأن هذا الطريق أسلم .. وأقرب إلى العقل .. فالمفروض أن أساس السفر هو علاج معدته في لندن .. وأنه قد اتخذ طريق البحر ليسترخ ويستجم .. وأنه في طريقه — عفواً وبلا قصد — وجد نفسه قريباً من « جاب » .. فوجد من باب النوق واللياقة أن يغور صديقه التي ترأسه .

أجل .. إن هذا أمر معقول .. ولا يمكن أن يلومه عليه أحد .
وهبط في مارسيليا .

وحدث له فيها ما يحدث لكل مسافر « جديد » .. تكأناً عليه الحملون .. وسائقو التاكسي .. وحصلوا منه خمسة أمثال ما يجب أن يدفع .
وبعد بضع ساعات .. كان القطار الصاعد إلى الشمال ينهب به الأرض ، وتملكه إحساس بالخشية .. والقلق .. وهو يجد نفسه وحيداً .. وسط الركاب

المتفرقين في القطار .. الذين بدا عليهم الوجوم وخيم عليهم الصمت ، وتمنى لو استطاع أن يحدث أحداً .. أن يقول له كلاماً أو يسأله عن أمر .. ولكنه لم يحس في لغته الفرنسية من الثقة ما يدفعه إلى المغامرة بجذب أطراف الحديث . ولم يجد خيراً من النافذة يدفع فيها بوجهه .. ويركز كل اهتمامه .. ولم يجد في أول الأمر من المناظر ما يثير اهتمامه .. اللهم إلا الأرض الحمراء .

ولكن القطار ما لبث أن بدأ صعوده وسط الجبال .. وما لبثت مناظر السفوح الخضراء .. ومساقط المياه .. أن أخذت بلبه .. وأضاعت وحشته حتى بدأت الشمس تنحدر . للغيث .. ومضت برهة والكون يرفل في كساء مغربها الأرجواني .. ثم بدأت الرمادية الشاحبة تتسلل فوق المرتبات جارة وراءها كساء الليل الأسود تحجب به الكون . فلا تبقى من ملامحه إلا عيون المصابيح المتناثرة تنفذ من ورائه .

وأخيراً .. وبعد أن بدأ النعاس يلعب بأجفان بضعة الركاب الذين ضمتهم العربة .. وقف القطار

وبدت لافتة « فين » بجوار كشك المحطة .. فنهض مدحت واقفاً .. ومد يده فقذف إلى أحد الحمالين بمقايئه .. ثم هبط في عجلة إلى الرصيف . وبنفس الطريق الذي حمل به قطار « جاب » .. نادية وأهلها منذ عام مضى .. حمل القطار مدحت .. بعد أن أمضى بضعة الساعة في انتظاره وسط « الشابورة » الثقيلة .. وأشباح المحطة المتحركة في صمت . وأخيراً .. تحقق الحلم .

وهذا القطار قليلاً .. ليقراً مدحت اللافتة ذات الحروف الثلاثة التي تكوّن أعز أسماء المدن إلى نفسه .. وأقربها إلى قلبه .. « جاب » . وهبط مدحت إلى الرصيف .. وأحس بالبرودة تلسع أطرافه .. وهو يقف متلفتاً حوله في حيرة .

وأشار إلى حمال عجوز .. نفس الحمال الذي تعودت « نادية » أن تصفه له

من نافذة حجرتها في المدرسة .
أجل .. إنه هو بظهره المحنى .. ومعطفه الكاكي .. وقبعته على أذنيه ..
ويديه في جيبه .
وأقبل الحمال .. يهز رأسه مستفسراً .
وكاد مدحت يمد يده إليه مصافحاً .. إنه يعرفه جيداً .. ويعرف كل ما
حوله .. يعرف كشك المحطة .. والسنديانة التي تحيطه بذراع .. وترفع ذراعها
الأخرى إلى السماء .
أجل .. إنها هي بلا شك .
لشد ما أجادت « نادية » وصفها .
وناظر المحطة البدين .. وكلبه الأعرج .
وعاد الحمال يرفع إليه عينيه مستفسراً .
وبدأ مدحت يتحدث بالفرنسية .. سائلاً عن فندق .
وأجاب الحمال العجوز :
— يوجد فندق في الميدان .. وفندق آخر بجوار المحطة .
وكاد مدحت يقول له :
— أعرف .
ولكنه هز رأسه قائلاً :
— أى فندق .. يقضى
وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، والضباب قد
تكاثف حتى كاد يخفى أشباح الشجر والدور .
وقال الحمال :
— لا ضرورة للتاكسي .. فالمسافة قريبة .
وهنا لم يملك مدحت إلا أن يجيب :
— أجل .. أجل .. أعرف !.

ورفع إليه الحمل عينيه من الدهشة .. ثم انحنى ليحمل الحقيتين .. ولكن
مدحت تناول إحداهما قائلاً :

— لتتقاسم الحمل .

وضحك العجوز ، وقال متسائلاً :

— ونتقاسم الأجر ؟

وربت مدحت ظهره ضاحكاً .. ثم سارا سوياً يطرقان أرض الطريق
الصامت بكعوب حذاءيهما .

وسار الحمل إلى الميدان .. وهو يقول لمدحت :

— هذا الفندق أحسن .. وأهدأ ..

ودلف الاثنان من الباب الزجاجي .. ولكن قبل أن يضعوا الحقائب من أيديهما

أطل وجه امرأة من وراء الباب .. وقد غلبها النعاس .. وهى تقول :

— لا حجرات خالية .

ورفع الحمل العجوز الحقيبة فى صمت .. وقال لمدحت :

— لم يبق أمامنا إلا فندق المحطة .. إنه قديم .. ولكنه محتمل .

وعاد الاثنان إلى الفندق المطل على المحطة .. والملاصق للمدرسة .

وتساءل مدحت على سبيل التأكيد :

— أهنا مدرسة بجوار الفندق ؟

وأجاب الحمل العجوز :

— أجل .. مدرسة الأب رينو .

وأخيراً استقر مدحت فى حجرته بالفندق .. حجرة عتيقة سميكة الجدران ..

ذات فراش نحاسى .. وحوض قديم فى أحد أركانها .

وأحس مدحت بأنه مجهد .. وأنه لم يعد له من سبيل .. سوى النوم ، وأبدل

ملابسه والنوم يغالبه .

ولم يكد جسده يستقر على حشية الفراش .. ويتدثر بأغطيته .. حتى راح فى

سبات عميق .

واستغرق في نوم طويل .. لم يفق منه إلا وشعاع من الضوء الأصفر يتسلل من النافذة .

. وتمطى في فراشه .. ورفع رأسه ليرقب النافذة المواجهة التي تسلك منها الضوء .. فإذا بمنظر يبهره .

منظر طالما حملته إليه « نادية » في رسائلها .

منظر السفوح الخضراء .. ذوات القمم البيض التي تبدو في أقصى الأفق .. وقفز من الفراش .. وفتح زجاج النافذة .. وأحس نسمة الصبح البليلة الباردة .. وأطل منها على السنديانة وسقف المحطة .. وبدأ أمامه بقية الأسقف الحمر المنحدرات .. ومداخنها التي لم تلفظ بعد أنفاسها .

وبدا كل شيء لعينه كما تعود أن يعرفه .. وأن يراه .

وبدا الطريق نظيفاً .. وأوراق الشجر يتساقط منها الندى .

وأشعة الشمس المشرقة تداعب قمم الدور وأطراف الشجر .

وكل عصفور يزقزق .. أو نسمة تهب .. تشعره بأن « نادية » هنا .. وأنها

باتت منه على مد ذراع أو خطوة قدم .

إنه معها في نفس المدينة .. لم يعد لقاؤهما وهماً ولا حلماء .

(٤٣)

ضمة على قبر ..

مرت الأيام القلائل الأولى بعد وفاة « منى » .. والبيت يسوده صمت
القبور ، ووحشة الليل ، وسكنية الأطلال .

لا صراخ ، ولا عويل ، ولا أنين .. والحديث — إذا تحتم — يسرى همساً ..
والحركة — إن وجبت — تجري تسلاً .

وسكان البيت .. يبدون كالأشباح المذعورة النافرة .

« الأم » منطوية في حجرتها .. جسداً بلا حس ولا حراك ، ولا أثر فيها
للحياة إلا زفرات حارة تنطلق من صدرها بين آونة وأخرى .. كأنها تنفس عنه ما
تراكم به من حمم الوجيعة وسعير اللوعة .

و « الجدة » قابعة في مقعدها ... شاردة الذهن ، جاحظة العينين ، فاعرة
الفم .. تتمم شفتاها بكلمات يفهم منها بين حين وآخر « يرحمنا الله » .

وبقية أهل البيت .. يتحركون في وجوم وشروء ، وفي عيونهم ذهول من
الضربة المفاجئة التي اختطفَت الصبية اليانعة .. التي كانت تملأ البيت مرحاً
وتغريداً

و « نادية » .. حبيسة في غرفتها .. مستلقية في انهار ، أو متشنجة في
نحيب .. أو شاردة في ظلمات من الكآبة والوحشة .

و لم تفلح محاولات « جاي » وبقيّة الشلة في انتزاعها من سجن أحزانها ،
والتخفيف من لوعتها .

كانت أحياناً لا تصدق أن « منى » قد فارقتها إلى غير عودة .

كانت تتوهم أن كل ما حولها كابوس مزعج لا تفتأ أن تفيق منه .. وكانت

تتوقع من آونة وأخرى أن تسمع نداءها ، وتبصر بسمتها وهي تدخل عليها صاحكة .. لتدعوها للخروج ، وتؤنّبها على انطوائها في غرفتها ، وتخبرها أن الحياة جميلة .

كانت تملأ تفكيرها في اليقظة ، وأحلامها في النوم .. تارة تدعوها للحياة .. وتارة تستغيث بها من الموت .. تارة ناضرة يانعة ، وأخرى زاوية ذابلة .
ورأتها ذات ليلة تقبل عليها لاهثة وقد افترثغرها عن ابتسامتها المرحّة .. لتنبئها أنها قد رأت مدحت مقبلا من المحطة .. وأنها قد أخبرته أنها « منى » .. وأن « نادية » تنتظره في البيت ، وأنه قد أقبل لرؤيتها ، وأخذت تجربها من ذراعها لتبسط بها إليه ، وأخذت « نادية » في المقاومة وهي تصيح بها حانقة ، وقد صمّت ألا تراه .

وأفاقت « نادية » من نومها ، وهي تصيح « بمنى » أن تتركها وشأنها .. وفتحت عينيها على ضوء القمر يتسلل من النافذة ، وأحسّت أن ما مر بها أضغاث أحلام .. فدفنت رأسها في الوسادة .. واندفعت في نحيب أليم .. حتى أغرقت عبراتها الوسادة .

وعندما هدأت نوبة البكاء .. جلست في فراشها ترقب الضوء المتسلل من وراء الأفق ، وعادت تفكر في الحلم .

ترى ماذا يمكن أن تفعل .. إذا أتى مدحت !!

يأتى .. في مثل هذه الظروف المليئة بالحزن واليأس والوجيعه !

هل يمكن أن يحدث هذا ؟!

هل يمكن أن تبلغ سخرية القدر بها .. إلى هذا الحد ؟!

أن ترسل إليها مدحت .. في هذه الظروف البغيضة المشؤومة ؟!
وأطلقت من صدرها زفرة حادة .

لقد كانت « منى » .. الوحيدة التي تستطيع أن تنقذها من ورطة اللقاء .

وتذكرت دعابة « منى » . وكيف عرضت عليها أنها ستلقاه .. وماذا تنوى ،

أن تقول له .

وعاد الدمع ينهمر من عينيها في صمت .. ومدت طرف لسانها ليلعق السائل الملح المنحدر على ملتقى شفتيها .

ثم مسحت عينيها وأنفها بطرف كمها .. وعادت تفكر مرة أخرى .
أحقاً ينوى مدحت الحضور ؟

لقد أرسلت له رسالة تلمح له فيها بأن سفرهم محتمل في وقت حضوره ، ولكنه أرسل إليها مازحاً ليقول إنه سيأتى حتى ولو كانت غير موجودة .. لمجرد أن يرى البلدة ، وكتب إليها لأول مرة في حياته بيتاً من الشعر « أمر على الديار .. ديار ليلي » .

فحضوره إذن غير مستبعد .

ماذا يمكنها أن تفعل .. إذا فعلها هو وحضر ؟

أليس من الأفضل أن تكتب إليه الآن لتنبئه بطريقة قاطعة أنها قد سافرت إلى جنيف .. أو أى مكان .. لأنها مريضة ، وأنها ستكتب إليه من عنوانها الجديد ؟
أجل .. إن هذا خير ما تفعله .

أن تنبهه بأنها سافرت .. وأنها ستكتب إليه مرة أخرى ، وهو لا شك سينتظر حتى يعرف عنوانها الجديد .. فلعله يستطيع زيارتها فيه .

وعليها أن تكف عن الكتابة إليه .. حتى تستطيع أن تدبر أمرها معه .
إن كل ما تريده الآن .. هو الفرار من لقائه .

على الأقل حتى تلتقط أنفاسها ، وتهدى من روعها .. أثر الكارثة المؤلمة .
ونفضت من فراشها ، وأحضرت كراستها الزرقاء .. وبدأت في الكتابة .
وأنهت الرسالة في بضعة أسطر .. رسالة مقتضبة تنبه فيها بأنها ستسافر الآن إلى جنيف لأرتها مريضة .. وستكتب إليه بمجرد وصولها .

وأطبقت الظرف على الرسالة .. وكتبت العنوان ، وأحست بشيء من الارتياح والطمأنينة .

ونظرت إلى ساعتها .. فإذا بها الساعة .
بعد نصف ساعة .. ستستدعى « بول » وتأمرة بوضعها في صندوق
البريد ، وينتهى الأمر .
وستكف بعد ذلك عن الكتابة .. شهراً .. شهرين
وسيتوقف هو عن الكتابة ، وعن الحضور .. و .. وفجأة .. دق جرس
الباب .

وعادت تنظر إلى الساعة .. في شيء من الدهشة !!
من يكون الطارق المبكر !؟
إن « بول » لا يدق الباب قبل الساعة والنصف .
وأحسست أن عليها أن تنزل لفتح الباب .. فأمرها وجدتها لا تفتحان ،
وجانيت لا بد أن تكون مستغرقة في النوم .
وأسرعت تهبط الدرج .. بعد أن دق الطارق ثانية .
ومدت يدها تفتح الباب .. لترى الطارق .
وبدا لها الطارق طويلاً ، عريض المنكبين ، غير مقطب الجبين ، ولا متجههم
الوجه .. بل مبتسماً في رقة ، مطرقاً في حياء .
وفغرت « نادية » فاهها .. ووقفت لحظة ترقب في ذهول ، كأنها قد رأت
شبحاً مخيفاً .. ثم انطلقت من شفتيها صيحة ارتياح واندفعت تعدو هاربة إلى
أعلى .

وبلا وعى ولا إرادة ، وقبل أن تفكر في أي شيء ، أو تفعل أي شيء ،
أمسكت بالإشارب تشده حول رأسها ، ثم أبدلت ثياب نومها في سرعة البرق
بسويتر عالى الياقة .. وأحكمت الياقة جيداً حول عنقها .
ثم عادت تهبط السلم في بطء ووجل .. مذعورة القسمات .. مرتعدة
الأوصال ، لاهثة الأنفاس ، يكاد قلبها من فرط دقاته يقفز من ضلوعها .
وكان ذهنها يعمل بهرعة .

— ٥٥٥ —

إنه يقف أمامها بالباب .. بلحمه ودمه .
مدحت نفسه .. لا طيفه ولا صورته .
ماذا تقول له ؟
وماذا تفعل به ؟
إن المفروض أنها ليست « نادية » .
فهو يعرف « نادية » من صورها ، ويعرف أنها ليست « نادية » .
وحتى لو لم يعرف ، فهي لا تجسر أن تقول إنها « نادية » .
ولكنه قد أتى ليقابل « نادية » .
فأين « نادية » إذن ؟
أتقول له إنها سافرت ؟
أين ؟ .. إلى جنيف للعلاج ؟ .. كما كتبت له منذ لحظة . أين عنوانها ؟ .. لا
تدرى !
أمعقول هذا ؟
ولكن أين « نادية » فعلا ؟
« نادية » التي يعرفها من صورها .
لماذا لا تقول له الحقيقة ؟
لماذا لا تقول له إن « نادية » التي يتخيلها في ذهنه .
« نادية » التي أتى ليراها ، والتي كان مفروضاً أن يلقاها .
قد ماتت .
لماذا لا تقول له الحقيقة ؟ ! وتنتهى !
ولكن أحقاً أن « نادية » قد ماتت !
أيمكن أن يقضى على حبا .. على مشاعرها ، على إحساسها بالزوال والفاء !
إن « نادية » التي في الصورة قد ماتت .
لم يعد لخلق على ظهر الأرض أن يريه إياها .

ولكن « نادية » التى تحبه ، والتى دعت له ليطوف معها بقمم الجبال وشاطئ
البحيرة .. لم تمت بعد .
إنها على قيد الحياة .. تحبه كما كانت تحبه دائماً .
ولكنها لا تجسر أن تلقاه ، وأن تخبره بأنها هى التى تحبه ، وهى التى كتبت
إليه .

بل إنها تخشى ألا يعترف بها .. وأن تكون « نادية » قد ارتبطت فى ذهنه
وقلبه .. بصورتها أكثر مما ارتبطت بحبها ومشاعرها .
إنها لا تجسر .. إنها لا تستطيع .
ووصلت إلى الدرجة الأخيرة من السلم .
وبدأ لها مرة أخرى يقف بالباب .. بشبحة الطويل ، وكتفيه العريضتين ..
وملامحه التى تبدو فوقها الابتسامة الرقيقة ، والحيرة الوجلة .. نظرة عتاب
ودهشة .. من هذا الاستقبال العجيب .
وتقدمت « نادية » تجاه الباب ، وهى تحس أن قدميها تلتفتان إحداهما حول
الأخرى ، وأنها توشك أن تتعثر فى كل خطوة .
وقبل أن تفتح فمها لتقول شيئاً .
هز رأسه متسائلاً فى صوت رقيق :
— أين نادية ؟

وأحست « نادية » أن سؤاله قد اعتصر قلبها .
ولم يعد أمامها مجال للتردد .. فقد قطع سؤاله كل شك ، وأكد لها أنها ليست
« نادية » .

وازدردت « نادية » ريقها .. وبللت شفثيها الجافتين بطرف لسانها ، وقبل
أن تتمالك كى تقول شيئاً .. عاد مدحت يتمم معتذراً :
— آسف على هذا الإقلاق المبكر .. ولكنى فى الواقع لم أستطع الانتظار فى
الفندق .. ولم أعرف إلى أين أذهب ، وخيل لى أن حضوري لن يقلق « نادية » .

وساد الصمت مرة أخرى .. وبدأت « نادية » عاجزة عن النطق ، وهي تنظر إليه في ذهول .

وعاد هو يسأل في شيء من القلق :

— أأستطيع أن أرى نادية ؟!

وفجأة رفعت « نادية » كفيها إلى وجهها ، وأجهشت بالبكاء .

وذهل مدحت ، وتملكه إحساس بالخوف .. وعاد يسأل الصبية المجهشة

بالبكاء في نبرة قلقة وجلة :

— هل .. هل حدث شيء ؟!

ورفعت « نادية » كفيها عن وجهها .. وبدأ لها مدحت من خلال عبراتها ،

وهو يتساءل في إلحاح :

— هل حدث شيء لنادية ؟!

وأجابت « نادية » في صوت مختنق :

— إنها ماتت .

وفغر مدحت فاه .. وهو يحس كأن شيئاً في بطنه يلوى أمعاءه .. وتساءل في

همس مبجوح :

— ماذا تقولين ؟!

وأجابت « نادية » في لهجة يائسة مريرة .. وهي ترقب هيكله المترنخ .. وقد

استند بذراعه إلى الباب :

— نادية .. ماتت .

وأحسن مدحت بأنه لا يريد أن يصدق أذنيه .

إن المسألة لا يمكن أن تنتهى بهذه الكيفية .

غير معقول أبداً .. أن تصل سخرية القدر إلى هذا الحد .

كل شيء كان محتملاً .. إلا هذا .

لقد خطر بباله لحظة ، وهو في السفينة .. أنها قد تكون خدعة ، وأنها بعد كل

ما تركته من أثر في نفسه قد تكون غير ذات وجود .
ولكنه لم يطف بذهنه أبداً .. أن يجدها ، وفي اللحظة التي يجدها .. يعرف
أنها قد أصبحت شيئاً غير موجود .. أنها ماتت .
وعاد يردد في ذهنه ، وهو يحس بالأرض تميد تحت قدميه :
— ماتت ؟! ماتت ؟

وأحست « نادية » بحركة في الداخل ، وتملكتها حيرة شديدة ، ولم تعرف
ماذا يمكن أن تفعل بعد أن قالت ما قالت . بعد أن أصابت أعز ما عندها .. في أعز
ما عنده .

وتمنت لو استطاعت أن تضمه إليها .
أن تتعلق به ، وتمسح دموعها في وجهه .. وتخبره أنها « نادية » .. وأنها لم
تمت .

ولكنها أحست أن هذا آخر ما يمكن أن تفعله .
وبدا لها أنها يجب أن تتصرف بطريقة ما .
أن تدعوه إلى الدخول مثلاً .. بدل أن تظل واقفة أمامه وهو يترنح مشدوهاً
أمام الباب .

ولكن ماذا يفعلان في الداخل ؟
يجلسان في صمت .. لتقدم إليه فنجاناً من القهوة !
وقد يخطيء أحد من البيت ويناديه « نادية » .
ثم ما الفائدة من إدخاله ؟ .. أمها لا تلقى أحداً ، وجدها لا تحدث أحداً
ولكن الواجب أن تدعوه إلى الدخول .. غير معقول أن تتركه يرحل في نفس
الدقيقة التي رآته فيها .

ولكن أمعقول أنه سيرحل ؟!
وأحست أنها لا بد أن تقول شيئاً .
فتراجعت خطوة مفسحة له الطريق ، وقالت في صوت يملؤه الأسى :

— ٥٥٩ —

— تفضل .

وأجاب مدحت وهو يرفع كفه ويضغط به على جبينه في شيء من العنف ..
كأنما يحاول أن يفيق من صدمته :

— متشكر .. أظن من الخير أن أعود إلى الفندق .. لآخذ أول قطار .

وردت « نادية » في مرارة :

— ولكن .. ألا تمكث برهة .. ألا .. أعني .. ألا تريد أن تعرف .

— أعرف ماذا ؟!

وهز رأسه كأنه غريق في دوامة ، وأردف يقول :

— لا أستطيع أن أصدق أبداً .. غير معقول .

ثم رفع رأسه وقال في حدة ، وهو يضغط على نواجذه كأنما يبذل جهداً لكي
يمنع نفسه من الانهيار :

— كيف حدث هذا ؟! كيف ؟.. لقد أتيت لألقاها ، وأحدثها .. كنت

أنوى أن أقول لها أشياء كثيرة .

وصمت مرة أخرى وهو يحاول أن يكبت دمه .. ويوقف اختلاجة وجهه

الباكية .. ثم أردف يقول :

— وكنت أحس أنها تود أن تراني .

وعاد مرة أخرى يردد كالمأخوذ :

— كيف !! كيف !!

واستدار في بطاء . وسار في ثاقل متجهاً إلى باب الحديقة ، وقد بدا وجهه
مكفهرأ مشدوهاً .

وسارت « نادية » وراءه .. وهي تحس أنها لا تستطيع تركه ، وهتفت

متوسلة :

— تفضل .. استرح برهة .. غير معقول أن تتركنا هكذا .. ابق قليلاً من

أجل « نادية » .

— ٥٦٠ —

واستمر مدحت في خطواته المتثاقلة ، وقد تهدلت كتفاه ، وانحنى ظهره كأنما حط عليه فجأة عبء أثقل كاهله .. وهدقواه .

وعادت « نادية » تقول له في لهجة بين الدموع والرجاء :
— إذن أسير معك حتى أوصلك .

والتفت مدحت إليها ، وزفر زفرة حارة .. ثم سأها في صوت مختنق :
— أأنت منى ؟

— أجل .

— كانت تتحدث عنك كثيراً .. كانت تحبك .

وبلغ مدحت باب الحديقة الخارجى .. وقبل أن يجتازه التفت ورائه ، وألقى على البيت نظرة شاملة استقرت على أحواض القرنفل المستقرة على جانبيه المدخل .. ثم تتم كأنما يتحدث نفسه :

— كل شيء كما وصفته .

وهز رأسه في أسى ، وهو يرفع بصره إلى الأفق .. حيث بدت سفوح الجبال تعلوها القمم .. ثم أردف في مرارة :

— كان مفروضاً .. أن نصعد الجبل سوياً .

وأطلق زفرة ، ثم تتم في يأس :

— كان مفروضاً أن نفعل أشياء كثيرة .

وهمّ مدحت بالسير . ولكنه توقف فجأة .. وتساءل في لهجة مترددة :

— هل .. هل .. أستطيع ...

ثم توقف ، وبدا كأنه يغالب نوبة بكاء .

وعندما سيطر على خلجات وجهه وكبح دمه .. عاد يقول :

— منى .. هل أستطيع أن .. أن أزورها ؟!

ولم تستطع « نادية » أن تكبح نحيبها .. كان منظره ، وهو يكتب دمه ..
مثيراً مروعاً .

— ٥٦١ —

وأجابته في صوت يقطعه النشيج :

— سأذهب معك إلى هناك .

ورفع مدحت عينيه وأخذ يرقبها في أسى وقال :

— لست أريد أن أزعجك .. صفى لى الطريق .

وردت « نادية » في إصرار :

— بل سأذهب معك .

وسارا برهة وسط الحقول ، ومدحت مطرق .. شارد الذهن .. حتى بلغا

الطريق .. وتوقفت « نادية » برهة ثم قالت ، وهي تنحدر إلى طريق المقابر :

— إن الطريق طويل بعض الشيء .

ولم يجب مدحت ، ولكنه أطلق تهيدة مريرة ، وهز رأسه هزة المشدوه ،

وتتم لنفسه قائلاً :

— عجيبة هذه الدنيا .. كان مفروضاً أن نطل سوياً على هذا الوادى من فوق

الجرف .

والثفت إلى « نادية » ، وتساءل قائلاً :

— ألا تقع هذه المقابر في أسفل الجرف ؟

وهزت « نادية » رأسها بالإيجاب .

وعاد مدحت يتمتم قائلاً :

— كانت دائماً تطيل تأملها من حافة الجرف ، وراء البيت المهجور ، وكانت

تقول لى إن شيئاً ما يجذبها إلى هناك .

وصمت برهة .. ثم أردف في صوت خافت ، وهو يرفع قدميه في تناقل :

— ولم أتصور أبداً .. أن هذا الشيء سيجذبها قبل أن أصل .

ولاحت المقابر أسفل المنحدر .. وأحست « نادية » عند رؤيتها بما يشبه

الغثيان .. وخيل إليها أنها توشك أن تسقط .. ولكنها حاولت التجلد .. لأنها

كانت تود أن تطيل السير معه .

كانت تحس بشيء من العزاء ، وهى تسير بجواره .. ولم ترد أن تفقد هذا العزاء .

وتمت لو طال الطريق .. إلى المقابر .. إلى ما لانهاية .. فبنايته ينتهى سيرها إلى جواره .. وهو أقصى ما استطاعت أن تصل إليه .
سخرية عجيبة !!

أن يمنحها القدر أعز ما ترجو .. وأقصى ما تمنى .. بهذه الطريقة المذهلة .
أن يجعل أول نزهة لها بجواره .. زيارة لقبرها .
أن تكون المرة الأولى والأخيرة التى تصحبه فيها .. لا يكون لها وجود إلا كمخلوقة ميتة .. لم يبق منها سوى قبر يزار .. ولم يعد لها من أمل سوى دمة تسكب .. أو آهة تصعد .

وانتهى الطريق .
وانتهت آخر رحلتها معه .
وانتهى معه آخر أمل لها فيه .
حتى الأمل الموهوم .. الذى كانت تعدو وراءه .. لم يعد لها فيه مطعم ولا مرتجى .
حتى الكتابة .. حتى الأمنية السراية التى كانت تتعلل بها .. قد باتت عليها مستعصية .

كيف تكتب إليه .. يعد أن مات ؟
وبدا لها قبر « منى » .. أو قبرها .
وانحنى عليه تيكى الاثنين .. أختها ونفسها .
ووقف مدحت فترة يحاول التجلد .. والتماسك .. وبدا المكان من حوله ،
وقد تكاثفت به الأشجار .. وكستته الخضرة .. وهبت نسائم الصباح رطبة تهز فروع الزنبق الأبيض التى أغرقها ندى الفجر .. وتحمل عيره فى كل هبة من هباتها الرقيقة العليلة .

ولم يحس مدحت بوحشة المقابر .. وبدت الطبيعة من حوله وكأنها تؤنس
وحشة الموتى ، وتملكه حنين إلى الجلوس بجوار الراحلة الموهومة .. التى أحبها
وهماً .. وفقدوها وهماً ، ولم يعرف منها إلا وهماً فى وهم ؟ .

ماذا يرضيه الآن أن يجلس إليها .. ويؤنس وحشتها ؟ .
إنها على الأقل أقرب إليه منه فى أى وقت مضى .. إنها منه على بعد
خطوات .. ولو صدق حديث الناس عن الروح الباقية .. لكانت الآن تراه ..
وتحس به ... وتسمعه .

فلماذا لا يناجيها .. ويدللها .. ويقول لها ما لم يجرؤ من قبل على قوله .. يقول
لها إنه يحبها .. وإنه جاء لخطبتها .. وأنه سياتخذها معه إلى مصر .
وازدرد مدحت ريقه .. وبلبل شفثيه .

وأحس بنفسه ضعيفاً .. متخاذلاً .. لا يقل ضعفاً وتخاذلاً .. عن هذه
الصبية الجاثية فوق القبر .

وهز مدحت رأسه .. كأنما يحاول أن ينفذ عنه خذله وضعفه .

وانتفض فى وقفته .. كعصفور بلله القطر .

جنون .. فى جنون .. وحمق .. فى حمق .

ألم يكفه كل ما فعل .. من سخافات وتفاهات ؟

يفرق فى حب موهوم .. ويقطع كل هذه المسافات من أجل مخلوقة .. لا
يعرف عنها إلا تصورات وخيالات .

من أجل طيف .. أو خيال .

وبعد هذا يقف منهاراً متخاذلاً .. فى هذا المكان الموحش القصى .. ليهرق

كالخجولين .. ويهذى كالمجازيب !

عد من حيث أتيت ، وانس كل ما كان من أمرها وأمرك .

إنها تجربة فى وهم .. فكأن أشد من التجربة ، وكن أقوى من الوهم .

رفع رأسه .. وأطلق زفرة حارة ، وهمّ بالتراجع .
وأحسّت « نادية » بحركة قدميه على الحشائش .. فرفعت إليه رأسها .
والتقت عيناه بعينيها .
وأبصر مدحت الدمع المنساب على وجنتيها .. المنزلق على زاويتي شفتيها .
وأحس بوجهها شيئاً حبيباً .. إلى نفسه .
شيئاً أذاب تجلده .. وفكك تماسكه .
وتملكته رغبة جارفة في البكاء ، واختنق صوته .. وامتنع وجهه .! وتصاعد
الدمع إلى عينيهِ .
وعاد يجد نفسه ضعيفاً .. عاجزاً .
أضعف وأعجز .. من الفتاة الرقيقة الراكعة أمامه .. وانساب الدمع في
سكون على خديهِ .
وتصلب في وقفته ، وعيناه تحدقان في عينيها .. والدمع ينهمر من مقلتيهِ في
صمت .
وفجأة ، أحس بها تندفع إليه لتدفن وجهها في صدره ، وتنكمش فيه كأنما
تحمي نفسها من خطر داهم ، أو تقى نفسه من عاصفة عاتية
ومد ذراعه يحيط به كتفيها في عطف ويتحسس رأسها في حنان ، وسيل
دموعه ما يزال يتدفق من مآقيه في سكون وصمت .
وبعد فترة ، أحس كلاهما بالهدوء .
ورفع ذراعه بهدوء عن كتفيها ، وانسحبت من صدره في رفق ، وبف نفسها
إحساس عجيب بالقناعة .
لقد ضمها إليه .
لقد أحست برأسها على صدره .
حسبها هذا ، فقد فاق كل ما كانت تحلم به .

— ٥٦٥ —

لقد حنا عليها ، وكفكف دمعها .
ورفعت إليه عينين تفيضان بالشكر والامتنان .
ومد يده فأمسك كفها ، وباليد الأخرى قطف أحد أعواد الزنبق ووضع
فوق القبر ، وهمس لنادية :
— سأعود كل عام لأضع زهرة على قبرها . وعندما أعجز عن العودة ..
ضعي لي أنت الزهرة .

(٤٤)

وداع له معالم ..!

غادر مدحت المقابر وكفه مطبقة على كف « نادية » .
متخذين طريقهما صوب البلدة ، وقد خيم عليهما الصمت ، وكسا
ملامحهما الأسى والوجوم .
وكان الطريق يمتد أسفل الجبل .. وقد انبسط الوادى على يساره ، وقام
السفح المنحدر على يمينه .
ورفع مدحت بصره إلى أكداس الأشجار المتكاثفة فوق السفح .. ووصل
إلى أذنيه خرير المياه تتدفق بين أخاديده وتنساقط على رباه .
وتذكر جولاته مع « نادية » على السفح .. وانزلاقهما على الجليد ،
وجلستهما على شاطئ البحيرة ، وتملكه حنين شديد لأن يطوف بكل تلك
الأماكن التى دعتة إليها ، وأن يراها رأى العين .. لا رأى الوهم والخيال ، وأحس
بأنه سيطفئ برؤيتها بعض شوقه ويروى بعض غلته .
وأكثر من هذا .. أحس بأنه سيحقق لها بعض أمنياتها ، سيطوف بكل مادعته
إليه ، وسيرى كل ما كانت تود أن تراه . سيجلس فيه ، ويتحسس حصاه
وأحجاره ، ويشم نسائمه ، ويعمل منه فى نفسه حقيقة ملموسة .. لا تبهت
صورتها من ذاكرته ، ولا يمحي أثرها من ذهنه .
سيطوف بالسفح .. ويمشى على شاطئ البحيرة ، ولن يحس بنفسه وحيداً ،
فسيدعوها هو هذه المرة ، سيدعوها إلى موطنها ، إلى شجيراتنا وأزاهيرها ...
وسيجلس معها على المقعد الحجري .. وراء المنزل المهجور ليطل وإياها على
الوادى .. وعلى صفوف المقابر المنتظمة ، حيث كانت تحس بشئ يجذبها إليها ،

والتي لا شك سيحس هو إليها بنفس الجاذبية .
 والتفت نصف التفاتة إلى الصبية المطبقة على كفه .. وبدأ له رأسها وقد لفه
 الإيشارب ، وخصلة من الشعر تتدلى على جبينها ، وياقة « السويتر » قد
 أحكمت حول عنقها ، وبدأت له مخلوقة قريية إلى قلبه ، وأحس لها بشعور
 عجيب من السكينة والارتياح .

ولمح جانب وجهها ، فأحس برجفة تسرى في أطرافه ، لشد ما كانت تشبه
 أختها .. بأرنبه أنفها الدقيق ، وحواجبها المقرونة ، وخصلة الشعر المدلاة على
 جبينها .

لولا هذا الإيشارب الذى شد حول وجهها ، ولولا هذا الشحوب حول
 عينيها ، و« الحسنة » التى فى جانب ذقنها .
 ولولا أنه يعرف أن « نادية » العزيرة قد ماتت
 لظن أنها هى التى تسير بجواره .

وعاد صوت الخريز المتدفق فوق السفح يضل إلى مسامعه وزاد به الحنين إلى
 مراتع ذكريات « نادية » ، وملاعبها .. وسفوحها وشواطئها
 والتفت إلى السائرة بجواره و« تنحنح » ليجد صوته ، ثم قال فى شبه تمتمة :
 — هل .. هل .. أستطيع أن أصعد الجبل ؟
 وأحست « نادية » برجفة تهزها من أخصصها إلى أعلاها . ومضت فترة قبل
 أن تتمالك نفسها لستطيع الرد .

وعاد مدحت يتمتم فى شبه اعتذار :
 — أنا أعرف أن هذا ليس وقته ، ولكنى أحس بخنين شديد إلى أن أطوف بكل
 ما دعتنى إليه « نادية » .

وازدرد ريقه كالطفل المذنب ثم عاد يقول :
 — لقد تعودنا أن ندعو بعضنا دعوات وهمية فى رسائلنا . كنت أدعوها إلى
 النادى للغداء ولعب الاسكواش ، وكانت تدعونى للصعود معها إلى الجبل

والسير على شاطئ البحيرة ، إلى أكاد أعرف منها كل بقعة هنا . وأحس بأني ..
وعاد مرة أخرى ليزرد ريقه .. ثم صمت برهة . وأردف يتمم راجياً :
— إلى أحس بلهفة إلى أن أرى هذه الأماكن التي دعنتي إليها . أحس بخنين
شديد إليها ، كأني سأرى نادية فيها .
وصمت مرة أخرى ، وغلب انفعال « نادية » قدرتها على الرد . أحقاً يجب
أن يرى مراتع نزهتهما معاً ؟! أحقاً سيمنح لها القدر فرصة اصطحابه إليها ؟!
وعاد مدحت يتمم في لهجة المعتذرة :
— لو كنت تسمحين باصطحابي إليها .. إلى لا أريد أن أضايقك ..
ولكن ..

يضايقها !!
يضايقها .. باصطحابها إلى كعبة أو هامها !!
يضايقها .. بمنحها فرصة العمر التي كانت تنوق إليها !!
يضايقها .. بإطالة أول وآخر لقاء ينعم القدر به عليها !!
إنها لم تحس بحاجتها إلى شيء .. قدر هذا الشيء الذي يطلبه منها .. وأن
تطوف به .. مرة واحدة . مرة واحدة .. قبل أن يتبدد كل شيء .. حتى الأمل
السرابي الذي كانت تحيا من أجله .. والأمانى الوهمية التي كانت تعيش بها في
رسائلها إليه .
ورفعت « نادية » رأسها إليه وهي تمد يدها الخالية لتحكم الإشارب حول
رأسها وتتمت بقدر ما سمح لها انفعالها :
— لن يضايقني أبداً .. ليس لدي ما أفعله .
واشتدت ضربات قلبها وهي تردف قائلة بعد فترة صمت :
— ليس أحب إلى نفسي من اصطحابك ، حيث شئت .
وبدا الارتياح على وجه مدحت وهو يتمم قائلاً :
— لست أدري كيف أشكر لك .. إلى بلا شك قد سببت لكم إزعاجاً ،

وأعتقد أن لديكم ما يكفيكم .

وأطلقت « نادية » تهيدة .. وأجابت قائلة :

— بالعكس .. لقد منحتنا زيارتك كثيراً من العزاء .

— كانت زيارة مفاجئة .. كنت أريد أن أفاجئ بها « نادية » .. ولكن القدر

كان أسبق منى بالمفاجأة .. مفاجأة قاصمة قاضية .

— قاصمة لنا جميعاً .

— لقد كانت تعرف أنى سأتى .. وقالت لى فى آخر رسائلها إنها ربما

سافرت .

وتتمت « نادية » قائلة :

— أجل .. لقد كنا على وشك السفر .. قبل أن يفاجئنا مرضها .

— لم تقل لى أبداً أنها مريضة .

— كان أمراً مفاجئاً .. نزيف فى الصدر ، لم يمهله سوى بضعة أيام .

— بلا أى سبب ؟

— إجهاد .. تجديف فى البحيرة . وعدو .. و ..

وأطلق « مدحت » تهيدة أليمة .. وتتم قائلاً :

— لو عجلت بالحمىء .. لاستطعت أن أمنعها .. ولما تركتها تجهد نفسها

أبداً .

وكانا قد وصلا إلى مفترق الطريق حيث يتفرع الطريق إلى طريقين : أحدهما

يؤدى إلى الجبل ، والآخر إلى البلدة .

وتوقفت « نادية » قائلة وهى تشير إلى الطريق المتجه إلى اليمن :

— هذا هو الطريق الصاعد إلى الجبل .

وبدا عليها التردد برهة .. ثم أردفت قائلة :

— أتحب أن نصعد الآن ؟

— إذا لم يكن فى ذلك ما يعطلك .. أو يجهدك .. أو يضايقك .

— أبداً .. أبداً .

ومرة أخرى بدا عليها التردد .. ثم قالت وهى مطرقة :

— ليس أحب إلّى من الصعود معك .. ولكن يخيل إلّى أنى كان يجب أولاً أن أقدم لك فنجاناً من القهوة .. لقد أذهلتنى زيارتك ، إلى الحد الذى أفقدنى القدرة على التصرف . كمخلوقة .. رشيدة عاقلة .. والأيام التى مرت بنا كانت أياماً سوداً .. تركتنا جميعاً بلا وعى ولا إدراك .

— كان الله فى عونكم .. لا داعى للكلفة .. أنا لست غريباً .. لم أكن قط غريباً عن « نادية » وبيتها وأهلها .. لقد كان ما بيننا شيئاً عميقاً وثيقاً .. لقد كانت كل شىء فى حياتى .

وأحسّت « نادية » برعدة تسرى فى كيائها ، وبدا الخفقان فى صدرها كأنه يوشك أن ينفذ من بين الضلوع .. وهمست فى صوت مختنق :

— وكنت كل حياتها .

وخطت تجاه الطريق الصاعد .. وكفها فى كفها .. وكأن طيراً يحملها على أجنحته .. وينساب بها فى يسرولين .

ووصلا إلى منحنى فى الطريق ، وتوقف « مدحت » وهو ينظر إلى درب بين الأحراش يختصر المنحنى ويصعد مباشرة إلى الجبل .

وتساءل قائلاً :

— أليس هذا الدرب يؤدى إلى القمة مباشرة ؟

وهزت « نادية » رأسها .. وعاد « مدحت » يتساءل :

— وعلى يمينه صخرة تبدو كأنها توشك أن تنقض .

وتتمت « نادية » كأنها تكمل قوله :

— وعلى يساره شجرة بجذعها ثنية كأنها المقعد .

وردد « مدحت » فى صوت خافت كأنما يحدث نفسه :

— أعرفها جيداً .. طالما دعتنى إلى الجلوس عليها لنتلقط أنفاسنا .. وفوقها

شلال كان يبلل ثيابنا .
وأشاحت « نادية » بوجهها .. حتى لا يرى الدموع في مآقيها .. وخطت
تجاه الدرب قائلة :
— هيا بنا .

واستمر في الصعود .
ومدحت يتفقد بعينيه كل بقعة في الدرب .. ويتلمس كل فرع وكل ورقة ..
كأنما يحتزنها في ذهنه ، ويحفرها في ذاكرته .
و« نادية » تسير كالمأخوذة الحاملة .. وبنفسها إحساس الذي يعيش في
معجزة لا يصدق إمكان حدوثها .. فهو أقرب إلى المذهول منها .. منه إلى
المستمتع بها .

وإحساس المبهور بسنا برق .. غلب يأسه من الظلمة الموشكة بعده .. انبهاره
بسناه الخاطف البراق .

إحساس المغمور في الشفق الأحمر .. الذي يعرف ما وراء الحواشي
الأرجوانية الرقيقة من ليل معتم .. لا مفر من سواده ، ولا منجاة من وحشته
ومع ذلك .. فهو يحس بالسكينة إليه .. ولا يستطيع أن يمنع نفسه من العيش
فيه .. حتى آخر ضوء ، وحتى يجد نفسه ولا شيء حوله ، سوى الظلمة
المعتمة ، والفراغ الموحش .

وبهذا الإحساس كانت تسترق النظر إلى الشبح الطويل السائر بجوارها ،
القابض بكفه على كفها .

وكان يملؤها نحوه خليط عجيب من مشاعر الحزن والرضا ، والقلق
والخوف .

الحزن على حزنه واللوعة على لوعته .
والرضا والطمأنينة .. مما أحسته من لهفته عليها ، وحينه إليها .
والقلق الدائم الذي كان يحيرها في مشاعره نحوها .

— ٥٧٢ —

لمن كانت اللوعة التي أصابته !؟
لأية نادية ؟

« نادية » التي راحت ، والتي ستنعم بحزنه ولوعته . كما نعمت بحبه ولهفته !
أم « نادية » الكائنة .. الحائرة .. التي لا تعرف موقعها عنده ، ومركزها في
قلبه !؟

لمن كانت هذه الدموع الصامطة المحرقة !؟
لأية « نادية » فيهما ؟

لها هي !!
إنها قطعاً .. لا تستحق منها قطرة واحدة .
حتى دموعه عليها ، لا تستطيع أن تنعم بها .
حتى موتها ، عندما قررت ، لم تجسر على أن تأخذ ما منحها من آهات
وأنات .

كل إحساس نالته .. كانت في شك من ملكيتها له .
حتى أحاسيس اللوعة والحزن ، لا تجسر على أن تتلقاها في ثقة ، بلا حيرة أو
شك .

وكيف تثق في إحساس تتلقاه ، وهي لا تثق فيمن تكون هي بالنسبة لصاحب
الإحساس !؟

ولا تملك إلا أن تطلق إحدى زفرتها ، وهي تعلل نفسها بحقيقة قائمة ، هي
الشيء الوحيد الذي لا تستطيع الشك فيه .

وهي أنه موجود بجوارها .

وأن كفها ، هي ، في كفها .

وأنها تطوف معه كعبة حبها .

تتسلق وإياه الجبل . وتسير بجواره على شاطئ البحيرة ، وتجلس معه كما تعودا
أن يجلسا سوياً في رحلتها الوهمية .

كل هذه حقائق لا جدال فيها .
أما من تكون هي بالنسبة إليه ؟
وإلى متى يمكن أن يدوم هذا ؟
فأمر لا معنى لمناقشته .

إنها هي .. هي .

وأما إلى متى تدوم ..

فإن لحظات دوامة أقصر من أن تضيعها في التساؤل عن نصيبها من الدوام .
ووصلا إلى قمة الجبل ، وبدا شاطئ البحيرة ، أملس ساكناً ، قد انعكست
فيه صور الأشجار المحيطة ، تهتز في خفة ، كلما هبت نسمة ، أو سقطت فيه
ورقة .

ووقف « مدحت » يرقب المنظر في صمت المأخوذ . واسترق البصر إلى
خصلة الشعر المظلة من الإيشارب وأرنية الأنف الدقيقة التي بدت من جانب
الوجه .

وأحست « نادية » بنظراته المسترقة ، ومدت يدها في حذر تشد الإيشارب
على عنقها .

وتساءل « مدحت » في صوت خافت ، وهو يرنو إلى البيت المهجور في
الناحية الأخرى من البحيرة :

— أنستطيع أن نظوف حول هذا البيت ؟

وهزت « نادية » رأسها بالإيجاب .

وأردف « مدحت » قائلاً وهما يسيران تجاه البيت :

— أريد أن أرى الكوخ ، والمقعد الحجري .

وأردفت « نادية » تتم قوله :

— والوادي الأخضر ، والمقابر البيض المصفوفة .

ووراء الدار بدا الوادي ممتداً أسفل الجرف العميق .

ووقف الاثنان يرقبان الوادى الفسيح ، وقد بدت منه الدور والأشجار كأنها
دمى الأطفال .

وأحس « مدحت » بالغثيان ، وهو ينظر إلى الهوة العميقة ، وقد بدت المقابر
الصغيرة مصفوفة في أسفلها ، وشد على يد « نادية » هو يتراجع ، وقد بدا في
عينيه حزن عميق ويأس مرير .

وهمس بها قائلاً :

— كانت تخاف منها . كانت دائماً تحس بشيء يجذبها إليها وكانت دائماً
تحدثني عن الفارسة التي ألقى بها الجواد من هذه الهوة .

وهز « مدحت » رأسه ، وهو يكبت دموعه وأردف يقول :

— ولم يخطر ببالى قط .. أنى عندما أقف ، سأجد الهوة ابتلعها ، وأجد
خوفها قد تحقق .

ودار الاثنان حول البيت وطافا بشاطئ البحيرة مطرقين حزينين . قد
أغرقيهما الأمسى واليأس .. ثم أخذوا في الانحدار إلى الطريق المؤدى إلى بيت
« نادية » ، ووقف الاثنان ، وخيم عليهما الصمت . وبدأ « مدحت » في انفعالة
وأساء كأنما يبحث عن كلمات يقول بها معنى للشكر والوداع .

وقبل أن يفتح شفثيه ليتكلم . قالت « نادية » في تردد ووجل :

— أما كان يجب أن أدعوك إلى البيت ، لتناول فنجاناً من القهوة ؟

وشد على يد « نادية » قائلاً :

— لا .. يكفى ما فعلت من أجلى .

— لست أشعر أنى قد فعلت شيئاً .

— كل هذا أجهدتك به ، ولم تفعل شيئاً ؟!

— كنت أود أن أفعل شيئاً أكثر ، ولكنى أحس بنفسى عاجزة ، ولست

أعرف ماذا يمكن أن أفعل .

— عودى إلى البيت ، واستريحى .. لقد دفعتنى لهفتى على لقاءها ، إلى حماقة

الأطفال .. فحضرت إليكم ، وخدم الفندق ما زالوا نياماً ، والبلدة كلها لم تستيقظ بعد .. لا شك أنى قد أخرجتك بلا إفطار .

— وأنت أيضاً لم تتناول إفطارك . كان يجب أن أدعوك إلى الإفطار في البيت ، ولكن البيت يبدو مزعجاً ومشوشاً ، ولقد تركتنا الكارثة أشبه بالعجزة .. لا نستطيع أن نستقبل إنساناً . إني أشعر بالأسف لأنى ...

وقال « مدحت » وهو يهز رأسه :

— ليس هناك ما يدعو أبداً للاعتذار .. أنا أقدر جيداً ظروف الصدمة ، وسأعود إلى الفندق لأخذ حقائبي ، وأرحل في أول قطار .

وأحست « نادية » بشيء يعتصر قلبها وقالت في شيء من التردد والوجل :

— أظن أول قطار إلى « فين » لن يقوم قبل ساعتين .. أستطيع أن أدعوك إلى تناول الإفطار في النادي . ثم أوصلك إلى المحطة بعد ذلك .

— لا .. لا .. لست أريد أن أثقل عليك أكثر من هذا . أرجوك . كفى كل ما فعلت .

— ليس هناك أبداً ما يثقل على .

— ولكنى أستطيع أن أتناول الإفطار في الفندق . ثم أرحل من هناك إلى المحطة . فلماذا أسبب لك كل هذا الإزعاج ؟

وأطرقت « نادية » وقالت في صوت مختنق :

— ليس هناك إزعاج . إني أحس أنى أفعل شيئاً من أجل « نادية » .

وصمتت برهة تحاول خلالها كبت دموعها ثم أردفت تقول :

— شيئاً كانت « نادية » تتمنى لو فعلته لك .

ورمق « مدحت » الوجه الصغير الملتف بالإشارب ، وقد ملأ الأسى ملامحه ورفع عينين بهما نظرة رجاء وتوسل .

وملأ « مدحت » ذلك الشعور العجيب بالألفة نحو الصبية الراجية ، وأبصر بوجهها ذلك الشيء الحبيب الأليف ، الذى يحس به كلما رنت إليه بعينها .

ولم يملك إلا أن يطرق ثم يجيب :
— هيا بنا .

وجلس « مدحت » في النادي أمام « نادية » ، وبدا له المنظر من وراء النافذة الزجاجية العريضة .. محبباً مألوفاً .. كأنما قد تعود الجلوس إليه في كل يوم .. الأسقف الحمر المنحدرة ، والمداخن التي بدأت أنفاسها تتصاعد ، والأشجار المتلفة المتكاثفة ، ووراء كل هذا جدار ممتد من الجبال ذات القمم البيض .. الجدار الذي كانت تحس « نادية » أنه يقف حائلاً بينها وبينه ، والتي كانت تتخيل من ورائه النيل العريض ينساب في هدوء ، والمزارع الخضرة تنبسط ممتدة بلا حدود إلا التقاء الأفق بالسما .

وتتم « مدحت » وهو ينظر من الشرفة :

— كانت « نادية » تحب هذه الجلسة ، كما كانت تحب الجلسة الماثلة في نادي مصر الجديدة . كانت دائماً تقارن بين شجرة الكافور القائمة بجوار « النافورة » ، وشجرة السنديانة القائمة وراء هذه الشرفة .
وردت « نادية » بنفس اللهجة الشاردة :

— كانت « نادية » ...

وصمتت ولم تقل شيئاً ، وعادت تردد في أسى وحزن :

— كانت « نادية » .. كانت .. وكانت ..

وأحس « مدحت » أنه قد نكأ في نفسها جرحاً .. فتمتم في أسف :

— لم أكن أحب أن أملك .

وهزت « نادية » رأسها ، وهي تكبت دمعها :

— أبداً .. إن هذا لا يؤلنى .

وانتهى الإفطار ، ووقف « مدحت » ليمد يده مودعاً « نادية » ولكنها هزت رأسها قائلة :

— سأذهب معك إلى المحطة .

— لا داعى أن تتعبى نفسك .

وقالت « نادية » فى إصرار حزين :

— سأذهب معلك .

وسار الاثنان فى صمت ، منحدرين فى الطريق المؤدى إلى الفندق .. وعندما

عبرا سكة الحديد . تساءلت « نادية » :

— أتسير فى الطريق الرئيسى ؟

وقال « مدحت » متنهداً :

— كما تشائين :

— مازال أمامنا متسع من الوقت . هل لديك شىء تريد أن تعمله ؟!

— أبداً لم يكن لددى هنا من شىء .. سوى « نادية » .

وكانت البلدة قد استيقظت والحوانيت قد فتحت أبوابها .

ووصلوا إلى الميدان ثم انحذروا فى الطريق المؤدى إلى المحطة .

وبنادية إحساس .. السائر فى جنازة .. المسيح لنعش .

وكانت الجنازة هذه المرة . جنازتها هى .

والنعش .. نعشها .

كانت تحس أن الحواشى الأرجوانية تنقرض ، وأن كل خطوة تخطوها إلى

المحطة .. تحملها إلى الليل المعتم الموحش الذى لا فجر له .

كان الشىء الباهر البراق يوشك أن ينطفىء ، كأنه الذبالة تترنخ فى مهب

الريح .

كانت الحقيقة الوحيدة التى استمتعت بها .. توشك على الانتهاء .

الحقيقة المؤكدة . أنها هى .. هى .. وأنه هو .. هو .. وأنهما يسيران معاً ..

جنباً إلى جنب .. ليطوفا بجنة أحلامهما .. وكعبة أوهاهما .

وبعد ذلك .. لا شىء

لا حقائق ولا أوهام .

لن تعود هي .. هي ..
لأنها هي .. قد ماتت ..
ولن يعود هو .. هو .. لأنها قد انمحت من عالمه .
ولن يعود بينهما شيء ... لا كتابة .. ولا دعوات .. ولا آمال سرابية .. ولا
أحلام بَرّاقة .

لا شيء إلا أحرزانه .. على .. على من ؟
عليها ؟! أبداً ..
فالراقدة في القبر .. هي الأحق بأحرزانه .. وهي الأحق بزهرته .. التي سيأتي
كل عام كي يضعها على قبرها .

يا للقدر العجيب !! يجرمها حتى نعمة الرثاء والبكاء !!
يجرمها .. حتى من زهرة على قبرها !!
وبلغ الاثنان الفندق ، وانتظرت « نادية » في وجومها الشارد وصمتها
الخزين ، حتى هبط الخادم بالحقائب .
وقبل أن يطلب منه مدحت حملها إلى المحطة .. مدت « نادية » يدها فحملت
الحقية الصغيرة .. قائلة :

— لا داعي للحمال .. سنحملها إلى المحطة معاً .
وحمل مدحت الحقية الأخرى ، وسار الاثنان إلى المحطة .
ورفع مدحت عينيه ليرقب بناء المدرسة ، وأشار إلى إحدى النوافذ وتساءل
في أسي :

— أهذه هي نافذتها المطلة على فناء المحطة ؟!
وأطرقت « نادية » وهي تغالب دمعها .
وعاد « مدحت » يتساءل وهو يشير إلى السنديانة :
— وهذه السنديانة التي تنمو على المحطة بذراع ، وتبتهل للسماء بأخرى ؟!
وعلى المقعد الخشبي بجوار « كشك » المحطة ، استقر الاثنان وقد خيم عليهما

سكون عجيب .
 وفجأة علا صفير .
 وأحست « نادية » من صفيـره .. بما يشبه طرقات المعول .. على فتحة القبر .
 وأقبل القطار يتهادى حتى وقف فى فناء المحطة . وأقبل الحمال العجوز يحمل الحقيتين ليضعهما فى القطار ، ونظر إلى « مدحت » رافعاً حاجبيه الأشيبين الكشيفين فى تساؤل ودهشة :
 — لم تمكث سوى سواد الليلة .. ألم تجد ما جئت من أجله ؟!
 وهز « مدحت » رأسه وقال كأنما يحدث نفسه :
 — وجدته رحل .
 ووقف مدحت .. بقامته الطويلة ، ومنكبيه العريضين ، والأسى يملأ وجهه .. والحزن يفيض من عينيه .
 وشد على يد « نادية » فى صمت .. وازدرد ريقه وهو يحاول أن يكبت انفعاله .
 ولم يعرف ماذا يقول .
 وأحست « نادية » أن الثواني القادمة هى خاتمة المطاف ، وأن أنفاس القطار اللاهثة نستحمل معها كل شىء .
 وتركت يدها تستقر فى راحته فى سكونة يائسة .
 ومدحت و « نادية » .. واقفان فى صمت عاجز ، وكل منهما يحاول التماسك والتجلىد .
 وفجأة .. علت دقات .
 لم تكن دقات جرس المحطة ، ولكنها دقات ، تنبعث من بعيد .. دقات واضحة .. محدودة ، تنساب إلى النفس انسياً متصلاً عميقاً .
 وأحس كلاهما من الدقات البعيدة المناسبة .. بشىء يذيب قلبه .. ويفتت

فؤاده .

لقد انبعث اللحن العجيب من نافذة المدرسة .. ليصهر كل ما حاولاه من جمود ، ويهزم كل ما استعانا به من مقاومة وتجلد .
ومرة أخرى انساب الدمع من عيني مدحت في صمت وهو يقول في صوت
مختنق :

— أسمعين فالس الوداع ؟ كانت دائماً تطلب مني أن أسمع .
واندفعت « نادية » في نشيج هز كل بدنها .
ودق جرس المحطة مرة أخرى .. وعلا صفير القطار .. وصاح الحمال
بمدحت :

— اصعد القطار قبل أن يرحل بحقائبك .
وسار مدحت إلى القطار محني الهامة مهذل الكتفين .
ووقف من النافذة يلوح « لنادية » .
ووقفت « نادية » ترقبه يتباعد من خلال دموعها .
وتلوح له مودعة .
وانساب اللحن المتقطع الحزين يختلط بصفير القطار .. وطرقات عجلاته على
القضبان .. والقطار يتباعد .
وأخيراً اختفى القطار .. وخفت الأصوات .
وانتهى كل شيء .
وعادت كأنها الشبح السارى ، وهي تحس أنها قد ودعت حياتها .. وكان
وداعها هذه المرة .. وداعاً له معالم .

(٤٥)

امر تكليف !..

انساب القطار بمدحت من المحطة الصغيرة واستمر يلوح للفتاة ذات الإيثارب .. وقد بدت ، وهي تلوح بيدها كمثل للأسى والحزن واليأس .
وأخذ شبحها يتضاءل رويداً رويداً .. ومدحت يرقبه في ذهول .. وهو يحس أن الحوادث مرت به بطريقة خاطفة مذهلة .. وكأن المسألة كلها حلم مروع .. وود لو يتمهل القطار فلا ينتزعه من البلدة العزيزة بمثل هذه السرعة والعنف .

وود لو يتوقف القطار ليعود إلى الفتاة الحزينة الرقيقة .. ليقول لها شيئاً أكثر مما قال .. ويعبر لها عن حزنه وأسفه .. بأوضح مما فعل .
لقد فاجأها بزيارته كأنه شبح .. ثم مضى بها في صمت ووجوم بين المقابر .. وأخذ يجوب معها الجبل والمدينة .. ثم انساب منها إلى المحطة ، واختفى به القطار كأن لم يكن .

وتباعد شبح المحطة بالسنديانة الضخمة ، وأخذت الأسقف الحمر المنحدرة تنكمش وتتضاءل .. واتسع الأفق وانبسط صدره ، حتى ضاعت فيه معالم البلدة .

واستقر مدحت على المقعد مجهداً ، ومضت به فترة ذهول ، كأن ذهنه قد أصابه شلل أعجزه عن التفكير ، ثم أحس بشبح يقف أمامه ، وبداله كأنه يسأله شيئاً ، ورفع إليه عينيه ، وبدأ في زيه مفتش التذاكر .
وأحس مدحت كأنه عاجز عن التصرف .. لا يريد أن يسأله أحد شيئاً أو يكلفه بشيء .

وطالت وقفة الرجل ، ومدحت مغرق في عجزه المشلول ، لا يتمنى شيئاً أكثر من أن يتركه الناس في صمته ووحدته .

وتحدث الرجل .. وأحس مدحت أن عليه أن يجيب .. وأن يتصرف ، وأن يقاوم هذا اليأس المشل ، فهو يتحرك في قطار في بلد غريب ، وما زالت أمامه رحلة طويلة .. عليه أن يجابه كل ما فيها من التزامات ومشكلات ما بين مواصلات وإقامة وإبدال عملة ، و .. و ...

ومد يده في جيبه فأخرج دفتر تذاكر حصل عليه من مكتب السياحة في القاهرة ، وسلمه للرجل .

وقلب الرجل الدفتر ، ثم سألته :

— إلى أين ؟

إلى أين ؟ .. لقد كان في ذهنه برنامج لرحلة طويلة ممتعة مليئة بالأمانى الرائعة ، والآمال العريضة .

ولكنه أحس أن دعامة الأمانى ، قد تقوّضت ومحور الآمال ، قد زال .

والبرنامج الممتع قد بهت في ذهنه حتى انمحق .

إلى أين ؟

كان المفروض أن يذهب إلى لندن لعلاج معدته .

ولكن هذا لم يكن إلا إطاراً لبرنامج وتبريراً لرحلته .

أما الغرض الرئيسى فكان « نادية » .

كان قد صمم في ذهنه .. على أن يخطبها .. ثم يسألها ماذا تريد منه أن يفعل ..

يبقى معها في « جاب » .. يرحل بها إلى سويسرا . يذهب إلى لندن ، ثم يعود إليها ، ليرجعاً إلى القاهرة .

أشياء كثيرة كان يمكن أن يفعلها ، بعد أن تقرّها هي .

ولكنها هي نفسها ، لم يعد لها كيان .

وعليه أن يقرر ، إلى أين يحمل نفسه .

— ٥٨٣ —

لو استطاع .. لبقى حيث رقدت .
ولقد كان عليه أن يفعل ذلك .. أو يبقى على الأقل بضعة أيام .. ولكنه وجد
نفسه يفر من البلدة خائفاً مذعوراً .
والآن عليه أن يجيب ، إلى أين ؟
إلى لندن ؟
ليعالج معدته ؟!
أحقاً ، هو يريد علاجها ؟!
أيحتمل بقية الرحلة ، وملل العلاج . ورقدة المستشفى ؟!
لا .. لا .
إنه يستطيع أن يعيش بمعدته كما عاش دائماً ..
ولكن ماذا يقول لهم في القاهرة ؟!
يقول لهم إنها ماتت ؟!
من هي ؟
الطيف الذى لم يره مرة واحدة .
ساكنة الألب التى كانت حياتها معلقة بكلمة منه .. فلما أقبل عليها وجد
حياتها قد ضاعت ، وأحلامه قد تبددت !
وكان الرجل ما يزال يقف أمامه ممسكاً بالدفتري فعاود السؤال :
— إلى أين ؟!
ورفع مدحت كتفيه قائلاً فى نبرة يائسة :
— إلى جنيف .
أجل .. ليس أمامه الآن سوى هذا ينزل فى « فين » حيث هبط أول مرة .. ثم
يأخذ نفس القطار الذى هبط منه .. حتى يصل إلى جنيف ، ومن هناك يأخذ
الطائرة إلى أى مكان يستقر عليه رآيه .. إما إلى لندن .. أو القاهرة .
وانصرف عنه الرجل بعد أن أعاد إليه الدفتري

ومرة أخرى عاد إلى شروده اليأس ، وذهوله الحزين .
واستمر القطار ينهب به الأرض .. دون أن يعي شيئاً مما حوله .. ودون أن
يميز وجهاً من الوجوه المحيطة به .. أو منظراً من المناظر الأخاذة التي يمر بها القطار
وسط الجبال .

ووصل إلى « فين » .. ولم يطل به الانتظار حتى أقبل القطار المتجه إلى
جنيف .

وتحرك القطار مرة أخرى بمدحت تاركا محطة « فين » .. وهو مستلق في
مقعده في جلسته اليائسة العاجزة .. وعينه قد شردتا بعيداً بين القمم البيض التي
تلوح وراء النافذة الزجاجية .

ولم يعد مدحت يحس بتفاصيل المراتب .. أو يأبه لمر الزمن .. كان يجلس في
صمته الكئيب ونظره معلق بالأفق .. لا يأبه لوقفة القطار أو لسيره .. ومرت به
المحطات .. وهو يحمل في لافاتها بلا وعي .

واجتاز القطار « جرينوبل » . عبر الحدود الفرنسية .. ومد مدحت يده
بالجواز في حركة مستسلمة عاجزة .. وفحصه البوليس ثم أعاده إليه ..
واستغرق مدحت بعدها في سكونه المطبق .. وشروده التائه .. حتى توقف
القطار به أخيراً .. في جنيف .

وأيقظه الضجيج من شروده ، وبدأت له المحطة متسعة .. صاحبة .. وتمنى لو
بقي في مقعده .. وأحس بالعجز عن التصرف وسط هذا الخضم المتلاطم من
البشر .. الخافل بكل جنس .. الناطق بكل لغة .

ومضت برهة وهو ينظر إلى الأفواج السائرة في المحطة .. نظرتة اليائسة
المكشبة .. وهو يتمنى لو أغمض عينيه وفتحهما ليجد نفسه .. على فراشه في
البيت .. أو أمام منضدة العمليات في المستشفى .

أجل .

لقد أحس بنحني إلى مرضاه ، وإلى أدوات جراحته .

إنه سيجد فيها شيئاً يملأ نفسه اليائسة الحزينة ، وذهنه المكدود العاجز .
وتسللت إلى نفسه بعض الحياة .. وأحس بالرغبة في المقاومة .. مقاومة ذلك
الشلل المعنوى الذى تركه عاجزاً مقهوراً .
ونفض من مقعده وحمل الحقيتين بكلتا يديه .. ثم اندفع إلى باب القطار
وهبط على الرصيف .

وتناول منه أحد الحمالين الحقيتين فوضعهما فوق عربة صغيرة .. كدست
فوقها الحقائق ثم أعطاه تذكرة برقميهما ، وتركه وسار بالعربة .. واجتاز
مدحت فناء المحطة ، ووقف فى الصف ليستبدل بعض أوراق النقد بفرنكات
سويسرية .

وبعد لحظات كان يقف أمام أحد « التاكسيات » بحقيتيه على الرصيف وقد
توقف الحمال بجوارهما .

وسأله سائق التاكسى :

— إلى أين ؟ .

— إلى أين ؟

كلهم يسألون إلى أين ؟

إلى القاهرة .. إلى حجرة العمليات بمستشفى الدمرداش .

هل يستطيعون نقله إلى هناك فى الحال ؟!

إن مرضاه فى حاجة إليه .. ليدفع عنهم خصمه وخصمهم الذى لا يجروء على
مواجهته سواه .. خصمه المروّع الذى تعود الأطباء أن يهربوا منه ، ويعتلوا
مرضاهم عن مكافحته .. بالأشعة ، والكهرباء ، أو الرمال التى يدفنون فيها
رعوسهم ، وجثث مرضاهم .

ومرة أخرى سأله سائق التاكسى :

— إلى أين ؟

— إلى أقرب فندق .

— ٥٨٦ —

- أقرب فندق لا يحتاج إلى عربة .
- ثم رفع سبابته مشيراً إلى بناءين يواجهان المحطة ، وقال :
- عليك أن تختار أحدهما :
- ورفع الحمال الحقيقيين قائلاً :
- سأحملهما إلى هناك .
- وسار الحمال يتبعه مدحت حتى وصل أمام باب أحد الفندقين ، وتسلم الخادم الحقيقيين واتجه مدحت إلى مكتب الاستعلامات .
- وحياه الرجل الواقف وراء المكتب في رقة .. ثم مَدَّ يده بورقة مطبوعة ليملاً مدحت ما بها من بيانات .
- وتردد مدحت لحظة قبل أن يملأ البيانات .. ثم سأل الرجل :
- هل أستطيع أن أعرف بعض المعلومات عن مواعيد الطائرات ؟!
- إلى أين ؟
- مرة أخرى إلى أين ؟!
- وأجاب مدحت في تردد :
- إلى القاهرة .. أو لندن .
- وأشار الرجل إلى مقعد بجوار المكتب قائلاً :
- تفضل .. لحظة واحدة ، وسأخبرك بما تريد .
- وقال مدحت وهو يجلس على المقعد في قلق :
- وأريد أن أعرف هل يمكن الحجز ؟!
- وهز الرجل رأسه وهو يرفع سماعة التليفون .
- ولم يطل حديث الرجل حتى وضع السماعة قائلاً :
- إلى لندن .. ستقوم إحدى طائرات « السويس إير » في منتصف الليل .
- ويمكن الحجز فيها . على أن تنبهم خلال نصف ساعة .
- ومرت بمدحت لحظة وجوم وتفكير .. وما لبث أن تساءل :

— والقاهرة ؟!

— القاهرة .. ستقوم طائرة بعد ساعة ، ولكنها كلها محجوزة .

— والتي تليها ؟!

— غداً في نفس الموعد .

وصمت مدحت ، وأشار الرجل إلى النموذج المطلوب ملؤه وأخرج مدحت قلمه .. ليكتب البيانات .

إلى أين يذهب ؟

إلى لندن ؟

هل لديه الصبر على الرقاد ، والقدرة على الاستسلام للعلاج ؟ لا .. لا .. إنه لا يستطيع .

إن الوحشة ستقتله .. قبل أن تشفى معدته .

إنه يريد أن يفعل شيئاً يشغله عن التردد والتفكير ، ويوقفه عن الاستسلام العاجز اليأس .. القاتل .

إنه في حاجة إلى المقاومة .

ورقده المريضة لن تمنحه أية مقاومة .

أما الشيء الذي يمنحه أياها .. فهو النضال ، والكفاح .

لو استطاع أن يرتدى إحدى تلك البدل الكاكية ، ويمسك بالسلاح ، ويفعل كما فعل هؤلاء الطلبة .. الذين لقيهم قبل سفره ، لكان ذلك خير علاج له .

أو .. إذا لم يستطع .. فليمسك سلاحه ، وليستأصل خصمه التقليدي .. السرطان .

ودق جرس التليفون بجوار الرجل الواقف وراء المكتب ينتظر في أدب :

ورفع الرجل السماعه وأجاب متسائلاً :

— الذاهبة إلى القاهرة .. انتظر . سأرد عليك حالا .

ثم وجه الحديث إلى مدحت قائلاً :

— مكتب « السويس إير » يقول إن أحد ركاب الطائرة التي ستذهب إلى القاهرة قد أعاد التذكرة ، ويسأل هل تريد أن يحجزوا لك المحل ؟! القاهرة ؟!

بهذه السرعة ..!!

أيمكن أن يشرق عليه أول شعاع للشمس .. بين ربوع القاهرة ؟!

ماذا يقولون عنه !.. وماذا يقول لهم .. و ...

ونظر إليه الرجل نظرة استفسار متعجل .

وبلا إرادة .. أجاب :

— أجل .

ومعدته !! لقد باتت أسوأ مما كانت .. إن الصدمة التي تلقاها ، والأحزان التي أغرق فيها .. لا شك قد جعلت القرحة الموهومة .. قرحة حقيقية .

واستمر جدله مع نفسه .. جدلاً داخلياً سلبياً .

واستمرت إجراءات السفر .. عملية إيجابية .. حجزت التذكرة ،

ووضعت الحقيقتان في العربة ، وانطلقت العربة إلى المطار ، واتخذت إجراءات السفر بطريقة سريعة خاطفة .

وأخيراً وجد نفسه قد استقر على مقعده في الطائرة .. والجدل الداخلي السلبي ما زال دائراً .

أى حمق أعاده إلى القاهرة ؟

لماذا لم ينتهز الفرصة ليطير إلى لندن ؟!

لماذا تركه الصدمة عاجزاً خائراً ؟!

ولكن لماذا يستمر في السفر ؟! إنه يعرف أن أصل السفر .. كانت هي ، هي

وحدها .. التي دفعته إلى هذه الرحلة .

لقد بدأت .. على الخريطة .. بالخط الذهاب من مرسيليا إلى « جاب » .. ذلك

هو الخط الأساسي في رحلته ، وبعد ذلك رسمت بقية الخطوط .. لتعطي الرحلة شكلاً مستساغاً ، ومظهراً معقولاً .

ثم .. كيف يسافر في هذه الظروف الدولية القلقة ؟
الظروف الدولية !!

ومنذ متى كان يعترف هو بالظروف الدولية .. أو يحس بها ؟
أترى هذه الظروف الدولية القلقة ، لم تظهر له غير الآن ؟
ألم يقولوا له جميعاً : إن هذه ليست ظروفًا ملائمة للسفر ؟
ولكنها كانت موجودة ، ومن أجلها كان يمكن أن يصبح كل شيء ملائماً .
ودار محرك الطائرة ، وأحس مدحت بالأرض تنزلق تحتها .. بدأت الطائرة ترتفع في تودده ، وأبنية المطار تنكمش وتتضاءل .. كما انكمش بناء انخطة في « جاب » وتضاءلت شجرة السنديانة .

ولم يتسع الأفق وحده هذه المرة ، وإنما اتسعت رقعة الأرض كلها .. مبرزة آفاقاً جديدة وراء حافة الأفق .

واسترجع مدحت بصره من النافذة الزجاجية .. بعد أن بهت ما وراءها من معالم ، واختلط ما بها من مرئيات ، وأضحت لا تطل العين منها إلا على مساحات ضخمة من الزرقة والخضرة والبياض .
واسترخى مدحت في مقعد الطائرة ، وأسند رأسه إلى حافته اللينة .. ثم أغمض عينيه .

وتواترت في ذهنه .. حوادث اليوم .

اليوم ..! اليوم فقط !!

أيمكن أن يكون كل هذا قد حدث اليوم فقط ؟!

أيمكن أن يكون يومه هذا .. هو نفس اليوم الذي أشرق فيه أول شعاع عليه .. في « جاب » .. الشعاع الذي ملأ نفسه بالأمل ، والتفاؤل ؟!
أهذا اليوم هو الذي وقف فيه ليرقب من نافذة الفندق ، أول منظر تقع عليه

عيناه في « جاب » .. منظر الجبال الرائعة .. بسفوحها الخضر ، وقممها الناصعة ؟!

أيمكن أن يكون صباح اليوم .. هو نفس الصباح الذى لم يطق من فرط ما به من سعادة وفرح .. أن يصبر فيه حتى تستيقظ البلدة .. فانطلق كما ينطلق الأطفال في يوم عيد .. ليطلق بابها في طيش وخفة .. حتى يفاجئها .. بزيارته ، وحتى يكون أول شيء تقع عليه عينها في هذا الصباح ؟!

غير معقول أن يكون ذلك قد حدث هذا الصباح .

إنه يبدو كأنه قد حدث منذ شهور أو سنين .

إن حوادث كثيرة قد حدثت بحيث لا يمكن أن يتسع لها يوم واحد .

واستمرت الجوادث تترى على ذاكرته .

واستمرت الطائرة تشق الفضاء ، وأخيراً .. أغفى .

ومرت به رحلة الجو .. بين إغفاءة .. يقضى بأحلام النوم ، ونوم مثقل بأحلام اليقظة ، وهو في نومه ويقظته .. لا تفارقه اللوعة ، ولا ترحمه الفجیعة والياس .

وأخيراً هبطت الطائرة في مطار القاهرة .

وغادر المطار دون أن يحس به أحد .. أو يميزه مخلوق .

وبعد برهة كان يطرق باب البيت ، ويقف أمام « أمه » التى شهقت مشدوهة ، وأقبلت عليه تضمه ودموعها تنساب على خديه .

وتضاحك وهو يربت ظهرها ، وينبئها أنه قد عاد فجأة لأن الطبيب الذى كان سيعالجه قد أبرق إليه في جنيف ليخبره بأن ظروفاً قاهرة قد اضطرتته إلى السفر إلى أمريكا .

وحمدت الله أمه على عودته ، وسألته ألا يعاود السفر مرة أخرى .. حتى يأخذها الله إلى جواره ، لأنها لم تعد تحتمل وجیعة فرقه بعد هذا .

ولم يمكث مدحت في البيت إلا بقدر ما استحم وأراح جسده المرهق

المكدود ، وقبل الظهر كان يصعد درج المستشفى متجهاً إلى مكتبه .
وقبل أن يستقر على مقعده وراء المكتب .. اندفع الباب وبدا « جاد الله » منه
وعلى وجهه علامات الدهشة والذهول ، وهو يهتف متسائلاً :
— ما هذا ؟! ما الذى جاء بك ؟! وكيف حضرت ؟! ولماذا لم تكتب لى ؟!
ماذا حدث ؟!

واندفع سيل الأسئلة يتدفق من شفتيه ، ومدحت ينظر إليه فى وجوم .
وأحس « جاد الله » خيفة من شرود مدحت وصمته ، وأحس من ابتسامته
الباهتة التى توشك أن تفر من شفتيه .. أن حدثاً لا بد أن يكون قد وقع .
هذه العودة المفاجئة ، والوجه الذابل ، والسيماء الحزينة . لا يمكن أن يكون
وراءها خير .

وتوقف سيل الأسئلة ، ونجا حماس جاد الله ، واقترب من مدحت فى
خطوات بطيئة ، وتساءل فى صوت خافت :
— ما بالك .. ماذا بك ؟

ورفع مدحت كتفيه فى شيء من الاستخفاف ، وأجاب وهو يحاول إعادة
الابتسامة إلى شفتيه :

— لا شيء .. لقد عدت .

— حمد الله على السلامة .

ثم صمت لحظة ، وأردف معيداً تساؤله :

— ولكن .. لماذا عدت ؟

وهبط مدحت مسترخياً على مقعده ، وعاد يرفع كتفيه بنفس الحركة
المستخفة وقال :

— عدت .. لأنى أردت أن أعود .

— ولماذا أردت أن تعود ؟

ولم يجب مدحت ، وبدا من خلجات وجهه كأنه يقاوم انفعالا يوشك أن

— ٥٩٢ —

يفيض به ، ويغلب هدوءه ، ويقهر مقاومته .

وانحنى جاد الله أمامه فوق المكتب ، وتساءل في شيء من السخرية :

— لماذا أردت أن تعود ؟. إنك ذهبت لكي تذهب .. لا لكي تعود .. أم تراك قد ضللت الطريق إلى جاب ؟

واستمر مدحت يقاوم انفعاله ، وهو ينظر في شرود إلى جاد الله ، وأحس جاد الله أن شيئاً يضطرم في باطنه .. فازدادت انحناءته .. وتساءل في لهجة أكثر جدة .. وأشد حناناً :

— مالك يا مدحت ؟! لماذا لا تنطق ؟

و لم يجب مدحت ، وعاد جاد الله يتساءل فيما يشبه الهمس :

— هل رأيتها ؟

وهز مدحت رأسه في شرود بالنفي ، واستمر جاد الله في تساؤله الخفيض :

— لماذا ؟! أكانت قد سافرت ؟

وعاد مدحت يهز رأسه بطريقته الذاهلة .

وازدادت دهشة جاد الله ، وأخذ يلح في تساؤله :

— إذن لماذا لم ترها ! أرفضت لقاءك ؟

وانطلقت نفخة ممرورة من أنف مدحت ، واستمر صمته الواجم الحزين .

وأخذ جاد الله يرقب ملامحه ، وقسمات وجهه .

ثم طاف بذهنه خاطر جعله يبدو كأنه قد وجد الإجابة ، وانحنى على مدحت وهو يتساءل في حذر :

— ألم تجدها ! أعني وجدتها خدعة ؟

ورفع مدحت عينيه ، وأطلق زفرة حارة ، ثم خرجت الكلمات من شفثيه تقطر أسي ، وهمس كأنما يحدث نفسه .

— بل وجدتها ، حقيقة ، ولكنها حقيقة زائلة .

— ماذا تعني ؟

— وجدتها ، ماتت .
ولم تستطع مقاومة مدحت أن تحجب طبقة لامة من أن تكسو مقلتيه ، وهو
يحدق في وجه جاد الله .
وهتف جاد الله كالملسوع :
— ماتت ! غير معقول !
وأطرق مدحت ، وأخفى جبينه وعينه في كفه ، وبدأ رأسه يهتز .
وذهب جاد الله فأغلق الباب . وجذب مقعداً وجلس بجوار الجسد القوى ،
والملاح الصارمة ، التي رآها لأول مرة تنتحب في ضعف وخور .
وهز جاد الله رأسه كالذهول ، وهو يحدث نفسه :
— عجيب ! غير معقول .. غير ممكن .
وطرق الباب ، وربت جاد الله على كتف مدحت المهتز قائلاً :
— مدحت ، لا فائدة من هذا ، لقد كنت دائماً تكره البكاء ، والضعف ..
تجلد .

وعاد الباب يطرق ، ونهض جاد الله ليفتح .
وجفف مدحت عينيه بكفه ، وضغط على جبينه في شيء من العنف .
وبدا أحد الكتبة بالباب ، وتسلم منه جاد الله خطاباً ، ثم أغلق الباب وعاد إلى
مدحت .. وعيناه تجرى بين سطور الخطاب بطريقة خاطفة .
وهز كتفيه ثم قلب شفته السفلى .. وقذف بالرسالة على المكتب وهو يقول :
— أمر تكليف من القوات المسلحة .
وأطلق مدحت زفرة .. ثم أخرج منديله وجفف به عينيه وأنفه ، وتساءل
وهو ينظر إلى الخطاب الملقى على المكتب :
— لمن ؟
— لنا جميعاً .. أنا وأنت ورشاد ومحمود .
— وماذا سنفعل ؟

— ٥٩٤ —

— نقدم أنفسنا لرئاسة الخدمات الطبية .

— وبعد ؟!

— أظنهم سيحولوننا إلى مستشفى الجمعية الخيرية بالعجوزة ، فقد استولى عليه الجيش .

وهز مدحت رأسه في ضيق وملل ، وتساءل :

— لماذا ؟ لِمَ كل هذه اللخطة ؟

— تنفيذاً لأوامر التعبئة .

وأطلق مدحت زفرته .. وعاد يتساءل في حدة :

— تعبئة لأجل من ؟! ألم تنته المسألة ؟! أليس مفروضاً أن يجتمعوا بعد بضعة

أيام ؟

— أجل .

— إذن لماذا كل هذه الاستشارة ؟! لماذا لا نهضاً .. ونترك أمورنا تجري في

هدوء ؟! لماذا يستولى الجيش على مستشفى كمستشفى العجوزة ، والبلد في

حاجة إلى سرير في مستشفى ؟

وأزاح مدحت الخطاب بطرف أصابعه في ضيق وقال :

— لن أذهب .

— غير معقول .

— لماذا ؟! المفروض أنى مازلت مسافراً .. إن إجازتى لم تنته بعد .

— لقد ألغوا جميع الإجازات .

— وكيف كان يمكنهم أن يلغوا إجازتى ، وأنا فى « جاب » !

— الذى حدث أنك الآن فى القاهرة ، ولست فى « جاب » ..

— إن لدينا مرضانا وعملياتنا .. ليس لدينا وقت نضيعه .

وربت جاد الله ذراع مدحت ، وقال فى رفق :

— على أية حال .. يجب أن تعود إلى البيت لكى تستريح ، إن أعصابك لاشك

— ٥٩٥ —

مرهقة ، وأنت في حاجة فعلاً إلى الراحة .

ورد مدحت بعصبية وحدة :

— إن الراحة تقتلني .. لقد عدت إلى القاهرة .. لأنني أريد أن أهرب من

الراحة والتفكير الذي يصحب الراحة .. أريد أن أفعل شيئاً

— انتهينا .. إذن اذهب معنا إلى الجيش .

— لن أجد ما أفعله هناك .

— من يدريك !!

— ماذا يمكن أن أفعل في الجيش ؟

— تفعل ما يفعله أطباء الجيش .

— أحرر تذاكر لصرف الدواء .

— ألا يفعل الأطباء في الجيش سوى هذا ؟

— في وقت السلم .. ليس لديهم أكثر من هذا .

ولم يملك جاد الله أن يكتفم ضحكته قائلاً :

— إذن ادع الله أن يدخلنا حرباً .. حتى تجد عملاً يريح أعصابك .

ومد جاد الله يده فجذب مدحت من ذراعه قائلاً :

— هيا بنا .. وكف عن هذا اليأس والانهيار .. قل لي ماذا حدث ؟!

— ٥٩٦ —

(٤٦)

جريح !..

مرت بضعة أيام بعد صدور أمر التكليف حتى استقر مدحت وجاد الله في مستشفى العجوزة .. وفي مساء ٢٩ أكتوبر جلس مدحت في مكتبه بحجرة الأطباء وقد بدا عليه الوجوم الطبيعي الذي كان يلازمه ، والحزن الدائم الذي كان يغرق فيه .

وهف جاد الله ضاحكا وهو يدخل الحجرة :
— وحدوه .

ولم يجب مدحت ومد ساقيه واسترخى في مقعده بعد أن فك أزرار سترته الكاكية التي استقر النسر على كتفها .
واستمر جاد الله يثرثر وهو يركز على حرف المكتب وقد ألقى الكاب على طول ذراعه فاستقر على ظهر الدولاب .
قال جاد الله متسائلا في سخرية :

— ماذا يحزنك ! ألم تجر اليوم أربع عمليات أعور ؟!
ونفخ مدحت من أنفه نفخته القصيرة الساخرة وتساءل :
— أعور !!

— شوية ؟! الحق عليك ، لماذا لم تنزع معه نصف المصارين ، والكل ، والمرارة ، حتى تشعر أنك فعلت شيئا .
ولم يجب مدحت وتثاءب في ملل ، ومضت فترة صمت قبل أن يقول في غيظ :

— وإلى متى تنوى أن تستمر هذه الطوارئ ؟

— ٥٩٧ —

— احمد الله على أنك تبنت نصف الأسبوع في البيت ، إنها ليست طوارئ ،
إنها تكاد تكون نوبتجية .

— ومالى أنا والنوبيجية ؟!

— إنك رجل عسكري .. أنسيت أنك « صاغ » ، على سن ورمح . إن
الجيش في حاجة إلى خدماتك .

— لا أظنه يحتاج إليها كثيراً .. فلديهم كثيرون يستطيعون عمل الأعور .
— إذا دخلنا في حرب ..

وقاطعه مدحت صائحاً في حق :

— حرب .. حرب .. فلقتمونا .. أين هي هذه الحرب ؟! لا أكاد أرى أحداً

إلا وقد ارتدى البدلة الكاكي .. حتى الوزراء .. قد ألبسهم « الكاكي »
وحملوهم السلاح .. وصوّروهم يطلقون النيران . لِمَ كل هذه الهيصه ؟!

— ردأ على هيصتهم .. كل يوم يحركون سفناً ويحشدون قوات .
وهز مدحت رأسه ورد في غيظ :

— تهويش في تهويش .

وجذب ساقيه ثم نهض وهو يتمطى قائلاً :

— سأذهب لأنام .. لا تدع أحداً يقلقنى .. لقد مررت على مرضى
جميعاً .. ولا أحد منهم يحتاج لشيء .. إلا البكباشى الذى رقد في الحجرة رقم

٩ .. إنه دائم الصراخ .. يتوهم أنه مصاب بسرطان في الزور .
— ولماذا لا تقطع زوره ؟!

— لأنه ليس عنده سرطان .

— اقطعه من باب الشبرقة .. أنظن أن كل ما تقطعه من أزوار الناس كان حقاً

به سرطان ؟

ونظر إليه مدحت في غيظ .. ثم قال مؤكداً :

— المهم .. لا تدع أحداً يوقظنى .

— حتى ولو قامت الحرب ؟!

— لن تقوم . غداً سيجتمعون في جنيف ، وينهون المسألة .

واتجه مدحت إلى حجرة النوم .. وفي دقائق خلع ثيابه واستلقى على الفراش .
وكعادته كلما خلا إلى نفسه ، انطلق به الذهن إلى « جاب » ليطوف
بربوعها في حزن ومرارة .. حيث المحطة الصغيرة ذات السنديانة .. والسفوح
الخضر .. والقمم الناصعة .. والقبر الأبيض الذى ضم الأمية الراحلة .. وقد
جثت أمامه الفتاة الرقيقة ذات الإشارب .

والدقات الحزينة التى انبعثت .. والقطار يوشك أن يتحرك .. دقات
الوداع .. التى كانت تمنح لها .. وترجوه أن يشاركها في الإنصات إليها .
وأخيراً .. راح في إغفاءة .

ولم يدر كم طال .. وإنما أحس بدقات ملحة على باب الحجرة .. وصوت
يهتف به :

— دكتور مدحت .

وفتح عينيه ثم ضغط على زر « الأباجرة » .. ونظر إلى الساعة الملقاة على
« الكومودينو » فوجدها ما زالت الرابعة .
وأحس أن الطارق قد حرمه من غفوة .. كان في أشد الحاجة إليها ، فصاح به
حانقاً :

— من ؟

— أنا محمود .

— محمود مين ؟

— الثورجى .

— اذهب من هنا .. لعنة الله عليك .. لو عدت لإيقاظى فسأكسر لك
رقتك .. لقد قلت لكم لا أريد أن يوقظنى أحد .. حتى ...
وقبل أن يكمل حديثه .. دفع الباب .. وبدأ منه جاد الله وهو يصيح :

- حتى ولو قامت الحرب ؟
وأحس مدحت : أن سيماء جاد الله تحمل شيئاً ، فنهض متسائلاً :
— ماذا حدث ؟
— لقد وقعت الحرب .
— كيف ؟
— هجم اليهود .
— يهود !!؟ أتسمى هجومهم حرباً ؟!
— اسمع يا مدحت ليس هناك وقت أن نختار لهجومهم أسماء . إن المستشفى يعج بالجرحي .
— غير معقول ؟
— الذى حدث !
— كيف ؟ ومتى ؟!
— وصلوا بالطائرة منذ ساعة . لقد بدأ هجوم اليهود من الساعة الحادية عشرة .. نفس الساعة التى كنت تسخر منى فيها .
— وما زلت أسخر .. وما زلت أقول إن هجوم اليهود ليس حرباً .. فالذى أعرفه من الضباط أنهم لا يجرون على الهجوم علينا .. لأن لدينا تفوقاً فى الجو ، وفى المدرعات .
— اسمع يا مدحت إنهم ينطلقون الآن فى الطريق الجنوبى صوب القتال .
— غير معقول .
— لا تقل غير معقول .. لأنه حدث فعلاً ، هذه أنباء المرافقين للجرحي .
لقد هجم اليهود فى الكونتيتلا . وانحدروا فى الطريق الخالى ، وهم ينزلون قوات بالمظلات عند مر « ميتلا » .
— ولكن كيف يجرون على ذلك ؟! ألا يخشون من عزل قواتهم فى الجنوب والقضاء عليها ؟!

وَأتم مدحت ارتداء ثيابه وخرج متعجلاً بجوار جاد الله الذى أجاب قائلاً :
— هذا هو ما يريب فى الامر كله .

— كيف ؟!

— لا بد أن يكون وراءهم سند .

— مثل ؟!

— الإنجليز والفرنسيون . غير معقول أن يقوم اليهود بهذا العمل الجرىء .. فى هذه الظروف من تلقاء أنفسهم .. إنهم مخلصون قط .

— وماذا يستفيد الإنجليز من حركتهم هذه ؟

— أى شيء .. ولو مجرد إثارة اضطراب وقلق .. يضعف مقاومتنا لهم .. ويلهينا عن كفاحهم .. وتجعلنا أميل إلى أرضائهم .. وتجعلهم أقدر على كلفتنا .

— على أية حال ، سنقضى على اليهود قبل أن ينالوا مرامهم ، فأغلب الظن أننا قد تعودنا على هذه الألعايب الإسرائيلية .

واتجه مدحت إلى حجرة العمليات . وهو يحس بالضجيج والصخب من حوله ، وقد بدا المستشفى أشبه بالسوق .. وقد اختلطت فى ردهاته الأنات بالصرخات .. وبدا كل إنسان يتحرك فى عصبية وعجلة .. وكل إنسان يطلب شيئاً أو يرجو شيئاً .. ولا أحد يعرف بالضبط ماذا يفعل .. ولا لمن يفعل .

وعلى طول عهد مدحت بالجراحة .. وعلى فرط تعوّده منظر الدماء والجراحات .. فقد أحس بدوار وهو يرى منظر الأجساد المرصومة .. بوجوهها المعفرة وجلدها الممزق .. وأطرافها المبتورة .

ونفض مدحت عن رأسه دواره .. وأقبل على عمله .. بطريقته الجبارة ، وقدرته الخارقة ، وجلده العجيب .

ومضت به الساعات الطويلة فى عمل متواصل .. حتى أحس أن قدميه لم تعودا تقويان على حمله .. وأن يديه توشكان على التصلب .. وطلب مقعداً ،

ليجلس عليه في غرفة العمليات كي يواصل إخراج الشظايا ورأب الجروح ..
ورم الأشلاء .

وعندما غادر حجرة العمليات ، كانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً ،
وكان العرق يتصبب من جبينه ، وعلامات الإعياء قد بدت على وجهه .
وفي الردهة ، التقى بجاد الله .. وقد كسا الجد وجهه وبدا مهموماً محزوناً .
وحاول جاد الله أن يغلب طبيعته المرحية على الجو المشحوب بالجروح والأنات
والكد والإرهاق ، فقال متضحكاً :

— مبسوط .. أظن ليس مثل هذا شغل !

واتجه الاثنان إلى حجرة الاستراحة ، وقال جاد الله :

— أقرأت الصحف ؟ .

وهز مدحت رأسه وأجاب :

— لم أترك غرفة العمليات من الساعة الرابعة حتى الآن . ماذا بها ؟

— كل الأنباء التي رويتها لك .. وزاد عليها ، أن قواتنا الجوية .. دقتهم
بعنف ، وأن هجومهم على « أبو عجيله » قد صد بعد أن كبدهم خسائر
فادحة .

ومد مدحت يده فتناول إحدى الصحف الملقاة على المنضدة وقرأ العناوين

الرئيسية ، ثم ألقاه جانباً واسترخى في إعياء .

وقال جاد الله :

— ألا تريد أن تتناول الإفطار ؟ .

وهز مدحت رأسه بالنفي ، ثم قال :

— لا أريد إلا أن أستلقي على ظهري .

— ولكن لا بد أن تأكل .. سأمر « بيومي » أن يعد لنا إفطاراً .

وقبل أن يدق جاد الله الجرس أقبل ممرض يطلب الدكتور مدحت .. ونظر

إليه جاد الله قائلاً :

— قل لهم إنه عاجز عن الحركة ، وإنه يريد أن يستريح .

ولكن مدحت قال للمرض :

— لا تقل لهم شيئاً . انتظر .. سأأتى معك .. إن الراحة تستطيع أن تنتظر ..

ولكن الموت الذى يقف بباب غرفة العمليات لا ينتظر أبداً .

ثم وجه الحديث إلى جاد الله :

— لقد أجريت عمليات لعشرة جرحى .. ثلاثة منهم قد يموتون .. ولكن

السبعة قد أبعدت عنهم موتهم مؤكداً .

واتجه مدحت إلى غرف الجرحى .

وقبل أن يجتاز الباب أبصر جثة الجريح الذى استدعوه من أجله . وقد رقد على

النقالة وغطى بملاء بيضاء عليها بعض بقع الدماء .. وأبصر وجه الجريح ، وجهاً

وسيماً ، لم تشوّهه حروق .. ولم تمزقه شظايا .

ورفع إليه الوجه عينين مجهدتين بدت منهما نظرة صداقة وألفة . وابتسمت

الشفتان الجافتان ابتسامة باهتة .. وسمع مدحت من فم الجريح تحية خافتة :

— صباح الخير .

وأجاب مدحت نظرة الجريح بابتسامة رقيقة لم يألفها منه مرضاه .. ورد عليه

تحيته فى وداد قائلاً :

— صباح الخير .

وأحس مدحت أن الوجه الوسيم مألوف لذاكرته .. ولكنه لم يجد هناك من

وقته أو من فراغ ذهنه ما يساعده على التذكر .

واستقرت النقالة وسط الغرفة .. وعاد الجريح يرفع عينيه الذابلتين ويهمس

بصوته الخافت :

— أنا أعرفك يا دكتور مدحت .. أعرفك من نادى مصر الجديدة .

— أهلاً وسهلاً .. أنا أيضاً أحسست أننى قد رأيتك من قبل .

— أنا اليوزباشى عصام الشافعى من سلاح الفرسان .. لقد كنت فى القسيمة

عندما هاجمنا اليهود .

ورفع مدحت الملاعة البيضاء الملوثة بالدماء .. وبدت ساق عصام ، وقد
لفت بكوم من القطن والشاش .. وقد مَزَّقَ عنها « البنطلون الكاكي » .
وبدأ مدحت في فك الأربطة .. وعصام يعرض على نواجذه ويزدرد ريقه ..
ويقول في محاولة للتجلد :

— أظنها شظية مورتار . لقد أخطنا بالدائرية اليهودية ، وأوشكنا نفتك
بها .. عندما أحسست بانفجار قريب .. فاستلقيت على وجهي .. وظننت
نفسى تجنب الشظايا . ولكنى أحسست بشيء كالسكين يمزق ساقى ..
ووجدت الدم ينزف .. لقد نزف كثيراً .. حتى كدت أفقد وعيى .
وكشف مدحت عن جرح عميق طويل .. وأخذ عصام يلبل شفتيه ، وهو
يقول متسائلاً في نبراته الضعيفة :

— أظن الشظية ما زالت موجودة ؟

وهز مدحت رأسه ، وهو يقول :

— سنرى .

وعاد عصام يتساءل في شرود :

— هل .. هل .. هل ستعطينى بنجاً ؟

— طبعاً

ثم أردف مدحت ضاحكا :

— إني لست جزّاراً .

وابتسم عصام ابتسامته الباهتة .. وهو يقول :

— إنهم يدعونك كذلك .. لقد عرفت هذا من صبرى محمود .. إنه تلميذك

وهو صديقى جداً .

وأجاب مدحت :

— لقد رأيته مرة بالبذلة « الكاكي » .. لقد تطوَّع في الحرس الوطنى ..

وترك الطب .

وأعاد مدحت الغطاء على الجريح .. والتفت إلى طبيب البنج متسائلاً :

— جاهز ؟!

— أجل .

وقبل أن يقترب الطبيب بالحقنة المخدرة .. مد عصام ذراعه ودفع يده في جيب قميصه الكاكي .. وأخرج محفظة صغيرة .. وقال وهو يخرج منها بضع وريقات :

— لى عندك رجاء يا دكتور مدحت .. لو استطعت أن تبلغ النبأ إلى أمي بطريقة سهلة مخففة تكون قد أسديت إليّ جميلاً لن أنساه .. إني أخشى أن تبلغها بطريقة مفاجئة مزعجة ، والأمر كما ترى ليس به ما يزعج .. وهي مصابة بالذبحه .. وقد يقضى عليها .

وصمت برهة ثم قال :

— أنت تعرف الأمهات يا دكتور .

وأطرق مدحت .. وتذكر أمه وهي تضمه باكية عندما عاد .. تسأله ألا يتركها قبل أن يأخذها الله إلى جواره .
وقال مدحت في صوت خافت :

— أعرفهن جيداً .

— ليس لى في الحياة غيرها .. وغير خطيبي ، وخطيبي لحسن الحظ .. لا توجد الآن في مصر .. لأنها تقيم في « جبال الألب » بفرنسا .. ولا أظنها ستعود إلا بعد أن أكون قد استطعت السير .

ومد عصام يده ببطاقة وصورتين .. وأردف قائلاً :

— هذا هو عنواني .. إنه لا يبعد كثيراً عن منزلك .. في نفس المنطقة وراء

النادي .. وهذه صورة أمي ، وخطيبي إنهما سبب حرصى على الحياة .

وتناول مدحت الأوراق من عصام .. ولم يحس في نفسه رغبة للتطلع إلى

الأوراق والصور .. ولكنه ألقى عليها نظرة حتى يرضى الجريح المتطلع إليه في رجاء .

وكادت صرخة دهشة تفلت من شفثيه عندما أبصر صورة الخطيبة .. وأمسك بها كالمشدود ، فاغراً فاه ، جاحظاً عينيه .. وقبل أن ينطق حرفاً كانت إبرة المخدر قد دفعت في ذراع عصام .. وفي ثوان كان عصام قد أطبق عينيه وسقطت ذراعاه إلى جانبه .

وأحس مدحت بالمرضة وطبيب البنج يرقبان دهشته .. وحملته في الصورة .. فدهسها في صمت في جيب المريلة واتجه إلى غرفة العمليات .

ولم تغادر الصورة مخيلته .. وهو يجرى مبضعه في ساق الجريح .. كانت نفس الصورة الجانبيه التي صوّرتها « منى » أول مرة عند مصوّر « جاب » .. والتي أرسلتها ناديه لمدحت على أنها صورتها .. عندما سألتها أن تكف عن إرسال صور الطفولة التي تعودت إرسالها .

ولم يستطع مدحت أن يوقف تفكيره المدهول .
إنها هي « ناديه » بعينها .

« ناديه » التي كتبت إليه كل تلك الرسائل .

« ناديه » .. التي أرسلت إليه أول مرة لتقول إن حياتها معلقة برده .

هل كانت طوال ذلك الوقت ، خطيبة هذا الجريح الذي يعتبرها السبب الأول في حرصه على حياته ؟!

لماذا لم تخبره عنه ؟!

ترى أيهما المخدوع .. هو .. أم الخطيب ؟!
غير معقول أن تكون قد خدعته .

وغير معقول أيضاً أن تكون قد خدعت الآخر .. لأنه لا يتصور أن مثلها يمكن أن يبعث أو يخدع .

ولكن .. ما فائدة كل هذا ؟!

— ٦٠٦ —

ما قيمة أن يعرف من يكون المخدوع فيهما؟!
إذ كانت هي قد تركتهما وولت .
ولكن هذا الجريج الراقد .. لا يعرف أنها ماتت .
أجى .. إن أنباء موتها لم تبلغه بعد
وخرج مدحت من حجرة العمليات .. يسير في الردهة ذاهلاً مشدوهاً ..
ويده تتحسس الصورة في جيبه .
وعندما وصل إلى حجرته .. أخرج الصورة مرة أخرى ليتأكد من أن بصره
لم يخذله .. وأن الصورة الراسخة في ذهنه لم تفرض ملامحها على الصورة التي
سلمها إليه عصام .
وكانت الصورة هي . هي .. الشعر المعقوص .. والأنف الدقيق .. والوجه
الساحر .
وأمسك جيبه بأصبعه .. وضغط عليه كأنما يحاول منعه من الانفجار ..
وأقبل عليه جاد الله ، فروّع من منظره ، وسأله في فزع :
— ماذا بك ؟
— لا شيء :
— إنك مجهد جداً .. لا بد أن تستريح .
— لست مجهداً .
— ماذا بك إذن ؟
ومد مدحت يده بالصورة .. قائلاً :
— إني أكاد أجبن .
ودهش جاد الله من الصورة وتساءل :
— ما هذه ؟
— صورة نادية .
— ما الذي أحضرها ؟

— ٦٠٧ —

- وجدتُها في جيب الجريح الذى ذهبت لأنزع الشظية من ساقه .
 — في جيب الجريح ؟
 — أجل .. إنه يعرفنى من النادى .. وقد سلمها لى هى وصورة أمه ...
 وسألنى أن أبلغ نأ إصابته لأمه بطريقة مخففة .. خشية أن يصدمها النبأ .
 — وما دخل صورة نادىة بالموضوع ؟
 — إنها خطيبته .
 — خطيبة من ؟
 — خطيبة الجريح .. يوزباشى بسلام الفرسان .
 — غير معقول !!
 — لقد قال هو هذا .
 — ربما كان يهذى .. ألم يكن محموماً ؟
 — لا .. لقد كان فى وعيه .
 — ولو .. هل تستكثر على جريح فى معركة أن يهذى ، حتى ولو كان فى وعيه !
 — ولكن كيف وصلت إليه الصورة ؟
 — من أى طريق .. من صديقة لها .. أو من إحدى قريباتها .. هل تظن صورتها قد حرّمت إلا عليك ؟
 وهز مدحت رأسه فى تشكك .. قائلاً فى يأس ومرارة :
 — لا .. لا .. إن المسألة ..
 وقبل أن يتم قوله .. دفع الباب ، ودخل أحد الممرضين يحمل رسالة .. ومد بها يده إلى الدكتور مدحت .
 ونظر إليه مدحت فى ذهول .
 كان نفس الظرف اللبنى ذى الخطوط الزرق .. الذى تعود أن يتسلمه من « نادىة » .

وقرأ العنوان بنظرته الذاهلة .

فوجد نفس الخط الذى تعود أن يقرأه .

وهز جاد الله رأسه متسائلاً :

— ما بك ؟

— رسالة من « جاب » .

— وماذا فى ذلك ؟ لا شك أنها من أختها « منى » .. تشكر على

زيارتك .

وأطرق مدحت هامساً فى لهجة خذلان :

— أجل .. أجل .. كان يجب أن أتوقع ذلك .. ولكنى ظننتها رسالة منها

هى .. إن إعصائى لم تعد تختمل . إنى فى حالة غير طبيعية .

وأمسك بالرسالة بعد قراءة عنوانها .. وعاد يقول فى صوت خافت

متشكك :

— ولكنه .. أعنى أنه نفس الخط ؟

— ولم لا ؟! أليستا شقيقتين .. إن كل عائلتنا خطوطها متشابهة .

وصمت جاد الله ثم أردف متضحكا :

— عدا أُمى طبعاً .. لأنها لا تعرف الكتابة .

ولم يضحك مدحت ، فقد كان ينظر إلى الرسالة مشدوهاً ، وقال جاد الله :

— لماذا تنظر إليها كأن بها عفريتاً !. لماذا لا تفضيها ؟

وأمسك جاد الله بالرسالة .. وهم أن يفضيها .. ولكن مدحت أطبق عليها .

ونظر إليه جاد الله فى دهشة قاتلا :

— إن بك فعلاً شيئاً غير طبيعى ، فضيها يا أخى واسترح .

وأمسك مدحت بالظرف . فقطع حرفه .. ثم أخرج الرسالة الزرقاء الرقيقة

من داخله .. وهز رأسه وهو يلمح خطها .. وهمس قاتلاً :

— نفس الخط .

— ٦٠٩ —

ثم قرأ أول جملة « مدحت العزيز » .
وأحس برجفة تسرى في بدنه .
نفس النداء الذي كانت تبدأ به « نادية » رسالتها .
وقبل أن تفحص عيناه ما تلاها من كلمات ، قلب الرسالة وقرأ الإمضاء .
وهتف مشدوهاً :
— إنها من نادية .
وأجاب جاد الله وهو يهز رأسه :
— ربما أرسلتها لك قبل موتها .
وقرأ مدحت التاريخ . فإذا به ٢٦ أكتوبر .. نفس اليوم الذي غادر فيه
« جاب » .
وفي ذهول بدأ مدحت يقرأ الرسالة !

(٤٧)

في موضعها

مدحت العزيز ... آجل .. أنا « نادية » يا مدحت .
أعرف أني أذهلك بقولي .. كما لا شك قد أذهلك خطي على الظرف وتوقيعي
في نهاية الرسالة .

أنا نادية .
« نادية » الأصلية .
« نادية » التي كتبت إليك أول مرة تتلهف منك على كلمة ترد غربتها وتؤنس
وحشتها .

« نادية » التي أحبتك .
أقولها بلا تردد ، ولا حياء .
أقولها وأنا أجس بمتعة في ترديدها .
أقولها بلا خوف من لوم .. أو خشية من تأنيب .
أنا « نادية » التي أحبتك بكل جارحة ، وفي كل لحظة .
في يقظتها .. وفي أحلامها .
في أحلك ساعات يأسها ، وفي أبهى لحظات آمالها .
« نادية » التي أحبتك .. بأقصى ما يملك الإنسان من قدرة على الحب ،
وأشد ما يختلج بين جوانحه من أحاسيس .

« نادية » التي ركزت في شخصك كل آمانيها ، وأحلامها .
منذ أن بدأت تتمنى ، وتحلم ، وترجو .
« نادية » التي وضعتك دعامة .. لقصور أوهامها . وشيدت على حبها .

لك .. كل ما يأمل الإنسان في حياته .. من سعادة ، ونعيم
 « نادية » .. التي كانت ترقبك ، وهي قائمة في مقعدها في النادي .. في
 صمت جام وسكون ممتع .
 « نادية » .. التي مارس فيك قلبها .. أول تجارب حبه ، وآخرها ، والتي أطلق
 قلبها من أجلك .. أول خفقة ، وظل لا يخفق إلا لك ، ولا يهتف إلا باسمك ، ولا
 يهفو لغير طيفك .
 أنا « نادية » الحقيقية .
 أكتب إليك رسالتي الأخيرة .
 والتي كان مفروضاً علي ألا أكتبها .. لأنني بت في نظرك ميتة ، والموتى .. لا
 يتحدثون ، ولا يكتبون .
 أكتبها إليك .
 لم تدفعني إليها لهفة عليك .. رغم وجودها .
 ولا أمل في عودتك ، رغم تمنيه .
 وإنما .. أكتب .
 لأنصف نفسي ، ولأضعها في موضعها الحقيقي عندك ، ولأمنحها منك
 الإحساس الحقيقي الذي تستحقه .
 لست أدري من أين أبدأ !
 فلا أظن من السهل علي في جلستي هذه ، أن أركز ذهني ، وأهدئ
 مشاعري وأرتب أفكاري .. بحيث أشرح لك كل ما أود شرحه ، وأبرره لك
 التبرير الصادق الذي يقنعك به ، وينصفني منه .
 أتدري كيف أكتب إليك ؟!
 هل تعرف شاطئ البحيرة ؟!
 تعرفه بالطبع ، وتعرف البيت الخرب ، والكوخ المطل على الهاوية .. تعرف
 كل ذلك .. معرفة الرائي لأن معرفة المستمع .

وتعرف أيضاً .. ذلك المقعد الحجري .. القابع وراء الكوخ ، والذي
 جلست عليه بجوارى .
 أجل بجوارى أنا .
 أنا « نادية » ، ولست « منى » .
 جلست بجوارى .. وفي الحقيقة .. لا فى دعوة واهمة .
 من يصدق هذا ؟!
 من يصدق أنى جلست وإياك فعلا على هذا المقعد الحجري ؟!
 وأنا حدقتنا سوياً .. فى هذا الفراغ الهائل .. الذى تبدو فيه المرثيات كأنها
 الدمى ، والتي تصطف فى أسفله القبور كأنها رقعة شطرنج .
 ولكن لماذا أخلط فى كتابتى ؟!
 لماذا أبدو كالمجموعة المازية ؟!
 لماذا أتحدث إليك كأنك تعرف كل شيء ، وكأنك قد اقتنعت ببساطة .. أن
 التى صحبتك فى جونتلك البائسة بالجليل والتى ضممتها إلى صدرك فوق المقبرة ..
 هى « نادية » ؟!
 لماذا لا أتمهل وأشرح لك جلية الأمر فى سكينه وهدوء !!
 ترى من أين أبدأ ؟!
 من بعيد .. بعيد .
 مذكنت فى القاهرة .
 عندما قرر أبى السفر إلى « جاب » ، وحضرت مع « منى » إلى النادى ..
 لأودعك .. أودعك من بعيد ، وداعاً كما وصفته للعجوز « بيتر » .. بلا معالم ،
 ولا تفاصيل ولا ذكريات .
 وعدنا إلى البيت لنتم حزم الحقائق ، وتناول الغداء .
 وفى تلك الظهيرة .. وقع الحادث المشعوم .. حادث الحريق ، والذى كانت
 نتيجة .. تشويه عنقى ، وموت أبى .

هل تعرف .. أننى فى الليلة السابقة الحريق كنت أجلس مع « منى » ..
واتهمتنى بالعجز ، والسلبية .. وكادت تطلبك لكى تعودنى .. مدعية أنه قد
أصابتنى نوبة أعور !
وأنى تمنيت فى تلك الليلة لو أصبت فعلا « بالأعور » لكى تمنحنى العملية
فرصة رؤيتك والحديث إليك .

هل تعلم أننى فى اليوم التالى كنت أرقد فى إحدى حجرات المستشفى .. بعد
إصابتى فى الحريق، وكنت أنت تقف أمامى فى نفس الحجرة !! ومع ذلك لم أتمن
شيئا فى حياتى .. كما تمنيت أن يعيدك الله عنى .. واستجاب الله دعائى .. ولم
يطل بقاؤك أكثر من ثوان ، ثم استدعوك لتعود أحد مرضاك وتركنسى
لمساعدك .

وتنفست الصعداء يومذاك .. وأنا أرقد أمامك والأربطة البيض تحجبني
عنك .

لقد كنت أكره أن يقع على بصرى لأول مرة وأنا مسلوخة الوجه ، محروقة
الجلد .

وفى اليوم التالى هربت من المستشفى .

نجوت من الطامة الكبرى .. وهى رؤيتك لى .

ترى هل تذكرنى ؟

هل تذكر تلك الفتاة المحترقة الملفوفة بالقطن والشاش .. التى وقفت أمامها
بضع ثوان .. ثم تركتها ؟!

إذا كنت تذكر الفتاة .. فهى أنا. أنا « نادية » .

« نادية » التى كانت تتلهف على أن تتخلى عن نصف عمرها كى تراك
وتتحدث إليك .

وعدت إلى البيت .

ومات « أبى » .

وزالت آثار الحريق من وجهي .. بفضل عملية نزع الجلد التي أجراها لي .
مساعدك والتي كان مفروضاً أن تقوم بها أنت .

لولا أن أزاحك القدر .. أو أزاحني .. من طريقك .
زالت آثار الحريق من وجهي ، ولكنها بقيت في عنقي . وأخذت أرقب
نفسى في المرآة ، وأتخيل كيف يمكن أن أبدولك .

وخشيت نفورك مني .. من عنقي المحترق .. وجلدى المستوه .. ووضعت
الإيشارب حول عنقي أخفى ما به من تشويه ، وأحسست بأن خيط الأمل
الواهي .. الذى كنت أتعلق به قد قطع .. وأنه قد تحتم عليّ .. أن أجعل منك ..
مجرد طيف ، لا أمل فيه .. إلا كأمنية مستحيلة .. جل غابتي منها .. أن أعيش
بالتفكير فيها .. زمناً رغداً .

ورحلنا من القاهرة .
وكنت أول الراغبين فى الرحيل .
كانت بنفسى رغبة فى الفرار .. الفرار من أمنيى المستعصية .. وأملى
الضائع .

ووصلنا إلى « جاب » .
وبدأت أحياء حياتى المنطوية اليائسة ، حتى خطر لى ذات مرة أن أكتب
إليك .

وكتبت رسالتى الأولى .. دفعنى إلى كتابتها .. فرط الحنين ، وشدة اليأس ،
وطول الوحشة .

وكتبت إليك أقول إن حياتى معلقة برّدك .
ولقد كانت فعلاً كذلك .

ولو لم تكن لما جرؤت أن أكتب إليك .
ووصلنى ردك الأول .

وأحسنست بعد ذلك .. أنى بدأت مرحلة جديدة من عمري .. مرحلة

عشتها كالفراشة الطائزة .. أهيم بين أنضر ورود الأمانى ، وأعطر أزاهير الأحلام .

كنت أحيا .. فى أمل بلا حدود .
كنت أتوهم أنى يمكن أن أظل وإياك .. كما نحن .. بعلاقنا الهوائية الحاملة ..
التي لا تقف فى سبيلها عراقيل أو سدود ، وكنت أحس بأنى قد بت أعنى فى نفسك شيئاً .

أجل .. لقد أضحى لى .. مع الزمن .. موقع فى نفسك . فانطلقت أهيم فى نعيمى الجديد .. بلا أى تفكير فى نهايته ، أو تحديد لبغائتى منه .. أو أنلى فيه .
وكنت طوال تلك المدة .. صادقة مع نفسى .. صادقة فى كل ما يربطنى بك .

و لم يكن هناك ما يؤلمنى .. سوى الإحساس فى بعض الأوقات بأنى أحيا .. بطريقة الهيمان .. أو كما قلت لك أخلق كما تخلق الفراشة .
لم أحس أبداً .. أنى أقف على قدمى ، وأنى أستقر على أرض صلبة ، يمكن أن يحدد فيها طريق ، وأن يوصل الطريق إلى شىء .
أبدأ .. كانت كل حياتى .. هياماً وأحلاماً .
وفى معظم الأوقات لم أكن أضيع بحياتى .. بل كنت قانعة بها .. راضية عنها .

عدا هنيات متقطعات .. من اليأس .. أرتطم فيها بصخور الحقائق ..
فأفكر .. وأحزن .. ثم لا ألبث حتى أهيم مرة أخرى .
ثم خدعت أول خديعة
انسقت إليه .. بطريقتى .. الهادئة المتسللة .. التي تتجنب كل المقاومات ..
حتى تصل إلى غرضها .
لقد طلبت منى صورة حديثة لى .
أتذكر ؟ !

إذا كنت لا تذكر فأنا أذكر جيداً .

عندما قلت لى . هل بطلت موضة التصوير عندكم ؟!

لماذا لا تكفين عن صور الأطفال التى ترسلينها .. وترسلين لى صورة لأراك كما أنت .. حتى أستطيع أن أصحبك إلى الأوبرا دون أن أخشى أن تنامى منى وأن أعود بك على كنفى .

ولم أكن أستطيع أن أرفض طلبك .. لأنه لم يكن هناك فى رفضه عذر .

ولم أكن قد صوّرت منذ الحريق .

وكنت أكره أن أصوّر .

ووجدتها مشكلة فى بادئ الأمر .

ولكنى صبحت « منى » ، وصوّرت .

صوّرت بالإشارب الذى رأيتنى به .. والذى عدوت لأشد به عنقى عندما فوجئت بك على الباب .

وصوّرت « منى » يومذاك .

وعندما جلست لأرسل إليك الصورة .. كرهت منظر الإشارب .. وبدأ لى أنك ستسألنى .. عما وراءه .. إذا استمرت على ارتدائه فى كل صورة . بل لقد بدا لى كأنك ستكشف ما وراء الإشارب فى الصورة ، وأنك سترى عنقى المشوّه ..

وأنك قد لا تكتب إلّى .

وأحسست بأنى أوشك أن أختنق .

وببساطة .. مددت يدى وأمسكت بصورة « منى » .. ووضعتها مع رسالتى فى الظرف

ومن يومها .. بدأت خديعتى لك .. وبدأ شكوكى فى نفسى .

وكتبت لى بعدها لتقول لى إنى جميلة .

وساءنى هذا . وأحسست بالغيرة من « منى » .

ولكن لم يكن هناك بد من الاستمرار في الخديعة .. وابتعت آلة تصوير ..
وبدأت هوايتي في تصوير « منى » .
وكنت أكره كل مدح لك في شكلي .
لأنني كنت أعلم أنه لا يخصني .
وأني شيء ، وشكلي شيء آخر .
وأخذت تتصارع في نفسى كل الأحاسيس وأنا أحس أني دفعت بإنسان آخر
ليشاركني في حبك .
ومع ذلك فقد بدأت أعتاد المسألة .
وأقنعت نفسى بأني أنا .. في نظرك .. هو أنا .
وأنتك تحبني أنا .. صاحبة الرسالة .. التى تناجيك وتناجيه .. وأنى مادمت
لا آمل في لقاء .. فلن يكون هناك خوف من أن ينافسنى أحد .. لأننى سأظل
أمامك .. مجرد روح أو حلم .
وكان يمكن أن يستمر الحال .. كما هو .
فأنا نفسى قدر ضييت عنه ، ولم يعد به ما يقلقنى .
فما دمت قد استبعدت شكلي من أول الأمر .. فلا داعى لأن أدخله في
منافسة .. أو أجعله سبب غيرة .
حتى كتبت إلّى لتقول لى .. إنك قادم .
وهنا أحسست أن المسألة قد أضحت خطيرة .
وأنه قد بات على أن أواجه أحد أمرين :
إما أن أعترف بالخديعة .. وأريك شكلي الحقيقى .. وأفقدك .
وإما أن استمر في الخديعة .. فأجعل « منى » تلقاك .. وتقوم بنفس الدور
الذى قامت به صورتها .. وتمثل أمامك دور « نادية » ، حتى ترحل .
ثم نعاود بعد ذلك .. علاقتنا الأصلية معاً .. علاقة الكتابة .. والأحلام
والأوهام .

و كنت حمقاء فى تفكيرى .
ولكن الأناثىة أحياناً تدفعنا .. لأن نشكل كل شىء حسب رغباتنا . حتى
رغبات الغير .. ومشاعره .. وأمانيه .
كنت أتخيل أنك يمكن أن ترضى .. عن علاقتنا بالطريقة التى رضىت أنا بها .
كنت أتوهم أنه يمكن أن تأتى إلينا .. وترانى .. أعنى ترى « منى » ، ثم تعود
لتكتب إلّى ببساطة .. كما كنت تكتب :
لم أتصور قط .. أن العلاقة الهوائية كأتى علاقة فى الدنيا لا بد أن تنتهى إلى
شىء .

لا بد أن تنتهى .. إلى حقيقة .. أو تتبدد .
لم يخطر لى هذا ببال قط .
كنت أتعلق بك .
و كنت أعرف .. أن فى تحقيق الأوهام .. ضياعك منى
ولذلك .. كان على أن أشكلك حسب ما أهوى .
واتفقت مع « منى » على أن تلباك .. كأنها « نادية » .
ولكن خذلتنى .. وماتت .
وأظنك تعرف جلياً .. كيف أوجعنى موتها ، لقد كانت جزءاً منى .
أتدري كيف يحس الإنسان .. عندما يقتطعون نصفه .. ويتركونه نصف
إنسان ؟!

لقد أحسست بهذا الإحساس عندما رَحَلت .
ولست أريد مرة أخرى أن أحرك أشجانك .. وأهوى مآتيك .
لقد رحلت « منى » .
ووصلت أنت .
وكان على أن أواجهك .. وأواجه فيك .. خديعتى .. وحيدة .. بلا عون
من « منى » .

واضطربت في أول الأمر ، ولم أعرف كيف أواجهك ، ولا ماذا أقول لك ..
كانت مفاجأة .. مذهلة ، أن أستيقظ من النوم ، لأجدك تقف أمامي .
ومنحتني أنت .. فرصة للنجاة ، عندما سألتني :
— أين نادية ؟

وأحسست أنك لم تمر في « نادية » وأن « نادية » التي في ذهنك .. هي
« نادية » الصورة ، أو بمعنى أصح هي « منى » .
وكان علي أن أجاريك في تصورك .. وأن أخبرك بموت « نادية » التي هي في
ذهنك .. « نادية » الشكلية .
وقلت لك إنها ماتت .

وسرت معك .
وصحبتك في جولتك .
ولا أكتمك .. أتي — رغم كل ما أحاط بي من اليأس والفجعة — كنت
سعيدة .
أجل .

كنت سعيدة ، وأنت تمسك يدي وتسير بي على سفح الجبل ، وشاطئ
البحيرة .
كنت سعيدة ، وأنا أجلس معك ، وقد شرد كل منا ببصره من الشرفة
العريضة .

كنت سعيدة .. بيأسك ، ولوعتك .
وفي بعض اللحظات كانت تملكني .. نوبات غيرة .. من أختي « منى »
عندما أفكر في أن أحزانك .. تخصها هي
وأنا .. كمخلوقة على قيد الحياة .. ليس لها نصيب من مشاعرك .
وانتهت جولتنا .
وكان علي أن أودعك

أن أودّع .. نفسي .
 أن أودّع .. حياتي .
 أن أودّع .. كل ما بقى لى من أمل فيك .
 ومن العبث أن أشرح لك مشاعرى .
 وقد تكون أحسست ببعضها .
 فلا أظن وداعى لك ، كان الوداع الذى يمكن أن تؤذعك به « متى » .. لو
 كانت هى أنا .
 ووقفت أرقبك وأنت تلوح بيدك . والقطار يتباعد بك ، حتى اختفيت ،
 واختفى القطار .
 واختفى كل شيء من أمامى .
 وعدت إلى البيت ، وكأنى أسير فى ضباب كثيف .
 وأحسست وأنا أقبع فى حجرى ..
 أنى قد بت لا شيء .. بت جسداً ، بلا روح ، ومخلوقاً بلا كيان .
 وأنى قد حرمت نفسي .. من كل شيء .
 لقد فقدتك نهائياً .
 وأحسست أنى ظلمت نفسي .
 وأنى أصبت نفسي .. بنقمة الموت .. دون أن أستمتع بنعمته .
 حرمت نفسي أهم أسباب الحياة .. من صلتى بك .. وأصبحت إنسانة ميتة
 بالنسبة لأعز الناس عندى .
 وذقت .. مرارة فراقه .. ولوعة وذاعه .. بلا أمل فى عودة .. ولا رجاء فى
 لقاء .
 ومع ذلك .. فأنا ما زلت حية .
 أمارس كل متاعب الأحياء .. وأحرم كل نعم الموتى .
 أنا لا أنعم .. برفقة « متى » .

لا أنعم باستقرارها وراحتها .
 لا أنعم بالسكينة التى تنعم بها ، وتبعد عنها صخب الحياة ومرارة العيش .
 أنا ما زلت أفكر .
 لم ينعم الله علىّ براحة ذهن « منى » .
 وما زال علىّ أن أواجه الناس .. وأحدثهم ، وأن أذهب إلى المدرسة .. وأن
 أفعل كل ما يفعله الأحياء .
 ما زلت بى خصائص الأحياء ، التى لم يعد بى إليها حاجة .
 ما زلت .. مثلاً .. أحبك .. وأهفو إليك .
 وأنت لا تشعر بى إلا كمخلوقة ميتة .. لا تكن لى سوى الحزن ..
 والدموع .

وحتى حزنك ودموعك .
 حتى الشئ .. الذى بقى لى منك .
 لا أجسر على الاستمتاع به .
 لأنى لا أستحقه .
 ولأنى أحس إذا ما حاولت .. الاستمتاع ببعضه .. أنى مخادعة .. مخاتلة .
 لأنى .. ما زلت حيّة .
 لماذا إذاً .. أبقى .. بعد كل ذلك حيّة ؟
 ما فائدة حياتى ؟!
 من على وجه الأرض .. يمكن أن تفيده حياتى ؟!
 لماذا لا أضع نفسى موضعها ؟!
 أعنى موضعها الذى وضعتها فيه أنت .
 فى ذلك القبر الأبيض الذى تحيط به أعواد الزنبق البيض .. والذى وقفت
 أمامه ، والدمع يهيم من مآقبك .. فى صمت موجه جعلنى أكاد أنفتت .
 لماذا لا أضع نفسى موضعها ؟!

حتى يكون لى الحق .. فيما تبقى لى من مشاعرك .. وألا أحس .. أن
دموعك .. من أجلى .. لا تخصنى .. وأن لوعتك على .. لا أستحق منها شيئاً .
لماذا لا أضع نفسى موضعها ؟

حتى أنعم على الأقل .. بالزهرة التى سنضعها .. على « نادية » .
إن العملية لا تحتاج إلى جهد ولا مشقة .

يكفى أن أترك نفسى .. لهذا الشيء الذى يجذبنى من أعماق الهوة ..
وسأهوى معه .. إلى رقعة القبور البيض المتراصة كأنها حجارة الشطرنج .
أجل .. إن هذا هو موضعى .. وذلك هو مصرى .
وقبل أن ألقاه .

أحب أن أصدقك .. وأن أثبتك الحقيقة ، وأن أنصف نفسى عندك .
وأن أقول لك من أنا .

على الأقل حتى .. تذكرنى .. أنا .. « نادية » الفتاة التى لقيتها بالإيشارب
والتي ضممتها إليك أمام القبر .. والتي صعدت معها السفح ، وسرت بجوارها
على الشاطئ .

إن « نادية » هى أنا
أنا التى أحبتك .. وأنا التى .. منحتك أول خفقات قلبها .. وستمنحك آخر
خفقاته .

إنى أرجو بعد ذاك .. ألا أكون قد خذلتك .. وأن أستحق مشاعرك ،
وحزنك .

وأن تحببى أنا .

وإذا ما عدت مرة أخرى .. لتزور القبر الذى ضممتنى أمامه
فلتجعل . زهرتك .. زهرتين .. حتى أختص نفسى ، بواحدة منهما .

المخلصة « نادية » .

(٤٨)

إنذار ..

مضت برهة ومدحت يحملي في السطور الأخيرة من الرسالة مشدوهاً
 مأخوذاً ، وسقطت الرسالة من بين أصابعه وهو يتمتم في شبه هذيان :
 — كانت هي — كانت هي « نادية » !!
 ورفع كفه إلى جبينه يعتصره بأصابعه .. وهو مستمر في هجته المأدبة :
 — كان يجب أن أدرك ذلك .. كنت أحس بشيء يشدني إليها .. كان يجب
 ألا أتركها .

وعادت عيناه تحملقان في السطور الأخيرة :
 « يكفي أن أترك نفسي لهذا الشيء الذي يجذبني من أعماق الهاوية ..
 وسأهوى معه .. إلى رقعة القبور البيض المتراصة كأنها حجارة الشطرنج
 « هذا هو موضعي ، وذلك هو مصيري »
 وأحس مدحت بشيء يعتصر جوفه .. وهتف في حدة :
 — لا .. لن أتركها .. لن أدعها تموت ثانية .. إن مصيرها هنا .. بجواري
 ونهض من مقعده فجأة ونزع عنه « المريلة » البيضاء .. وهو يردف في
 حزم :

— سأذهب لأعود بها . لن أتركها تتركب هذا الجنون .
 وكان جاد الله قد مرّ بناظره عبر سطور الرسالة مرّاً سريعاً .. واستطاع أن
 يفهم ما تضمنته ، وبدت عليه دهشة شديدة ، وهتف بمدحت متسائلاً :
 — تذهب لتعود بها ؟
 — أجل سأذهب الآن ..

— ٦٢٤ —

- ونظر جاد الله إلى تاريخ الرسالة ، وهز رأسه في شبه يأس وقال :
- لقد مضت أربعة أيام على إرسالها .
- وعض مدحت على نواجذه .. وبدأت عروق جبينه نافرة وهو يهز رأسه كأنه يبعد عنها خاطراً بغيضاً ، وقال في إصرار وعناد :
- سأذهب إليها على أية حال .. لن أستطيع أن أجلس جلسة العاجز المستسلم .. إني أكاد أجن .
- واتجه مدحت إلى الباب في عصبية وشروء .. ولحق به جاد الله فأمسك بذراعه قائلاً وهو يحاول تهدئته :
- إلى أين ستذهب ؟
- إلى المطار .
- إنك لن تستطيع أن تفعل شيئاً بحالتك هذه .. اهدأ . ودعنا نفكر معاً .
- وصاح به مدحت في ضيق .
- أفكر ؟ أنا أستطيع أن أفكر ؟!
- إذن دعني أفكر لك .. إن المسألة تحتاج إلى تدبر وروية .
- وأجاب مدحت في عناد المجانين :
- سأسافر .. الآن .. لن تستطيع قوة أن تمنعني من السفر .
- ومن قال لك إنك لن تسافر .. اجلس واسترح ، ودعني أقوم لك بترتيبات السفر .
- ليس هناك ترتيبات .. سأذهب إلى المطار لأخذ أول طائرة .
- إلى أين .. ؟
- إلى جنيف .
- وبعدها .. ؟
- سأخذ القطار إلى « جاب » .
- إذن انتظر حتى أعرف لك موعد الطائرة ، ثم تحجز مكاناً بها .

- لا أستطيع أن أنتظر .
- لا تكن أحقر .. إن ذهابك إلى المطار لن يجديك نفعاً .. أنت تعرف أن الحالة مضطربة ، وقد نجد الخطوط الجوية توقفت .. فدعنا نسأل لتأكد من موعد الطائرة .. اللهم إلا إذا كنت تريد الإقامة بالمطار .
- ووقف مدحت وقد بدت عليه الحيرة والذهول .. وقال في لهجته المصرية :
- ولكنني لا أستطيع أن أتركها .. لن أدعها مرة أخرى .
- أجل .. أعرف ذلك .. وستسافر إليها .
- الآن ؟!
- أجل الآن .. ولكن دعني أدبر لك الأمر .. أنت تعرف أنه لا بد من الحصول لك على إجازة وتصريح بالسفر . إنك لم تعد الآن مديناً .
- سأسافر بلا تصريح .. مهما كانت النتائج .
- اسمع .. سنبدل كل ما في وسعنا .. تعال معي .. نسأل أولاً عن مواعيد الطائرات فهي أهم ما في المسألة .. تعال واهداً في حجرتك .. فإن منظرك مروّع .. تعال .
- وجذبه من ذراعه .. فانساق معه كالطفل .
- واستقر به في الحجرة مرة ثانية .. ورفع سماعة التليفون وبدأ يسأل عن مواعيد الطائرات .
- وقبل أن يأتيه الرد .. بدت إحدى الممرضات وقالت لمدحت :
- الدكتور رشاد يطلبك في غرفة العمليات .. لقد دخلت دفعة جديدة من الجرحى .
- ونظر إليها مدحت في شرود وياس ، ولم يجب .
- وعادت الممرضة تكرر قولها .
- وأجاب مدحت في حنق :
- قولي للدكتور رشاد أني مرهق .. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً .

— ٦٢٦ —

وهت الممرضة بالانصراف ، ولكن مدحت ضغط على نواجذه وهفض رأسه في ضيق ثم صاح بها :

— اسمعى .. لا تقولى له شيئاً .

ثم نهض وارتدى مريته مرة أخرى ، وقال لجاد الله في حزم وإصرار

— لا تترك السماعة حتى تعرف موعد الطائرة .. إني مسافر .. مسافر ..

سأقى إليك بعد الانتهاء من العمليات .

— لا تحملهما .. سأعد لك كل شيء .

ومضى الوقت ومدحت منهنك في غرفة العمليات ، وأحسن كل من حوله بتوتر أعصابه وارتجاف يديه .

وانتهى من العملية ، وهو يحس أنه يكاد يحنق .

واندفع من غرفة العمليات إلى حجراته .. وقبل أن يصل إليها التقى بجاد الله فصاح به :

— ماذا فعلت ؟ .

— وجدت طائرة على خطوط « السويس إير » ... وحجزت لك مكاناً عليها .

— متى ستقوم ؟

— الساعة الحادية عشرة مساء .

— الحادية عشرة !؟

— احمد الله أنى استطعت أن أجد لك بها مكاناً .. إنها قد تكون آخر طائرة تقوم من مصر .

— آخر أو أول طائرة .. المهم أن تسافر .

— وكيف تعود ؟

— يحلها ربنا

— ولكن يجب أن تعود بسرعة . إننا نحاول أن نحصل لك على تصريح خاص

— ٦٢٧ —

بالسفر .. لقد أفهمتهم أن الأمر حيوى بالنسبة لك ، قلت لهم إنك ستنقذ حياة .
وأطلق مدحت زفرة وقال كأنما يحدث نفسه :
— ليتنى أستطيع .

ونظر في قلق إلى ساعته وكانت قد جاوزت الثانية وقال في ضيق :

— ما زال أمامنا تسع ساعات .. إن كل دقيقة لها قيمة .

— لا تجزع .. إن شاء الله ستجدها ، وتعود بها .. إن من السهل علينا أن
نفكر في الانتحار ، ولكن من أشق الأمور أن نقدم عليه .
وهز مدحت رأسه في حزن وقال :

— إن رسالتها مفعمة باليأس .

— على النقيض .. إن مجرد كتابتها أمر يبعث على الأمل . لقد أقدمت على
مغامرة .. ولا بد أن تعيش على الأقل حتى تعرف نتائجها .. هل تتصور أنه من
السهل أن تغادر الحياة .. قبل أن تعرف وقع اعترافها في نفسك .. لا بد أن تمنح
نفسها فرصة .. إن الأمل أقوى من الموت .

وصمت برهة وهو يفكر في مدى إيمانه بما قال .

ثم جذب مدحت في ذراعه قائلاً له :

— هيا بنا .. نتناول « لقمة » وإلا سقطنا جوعاً .. إنك لا بد أن تعود إلى

البيت لتجهيز حقائبك . وتوديع والدتك ..

وهز مدحت رأسه في مرارة وقال :

— لست في حاجة إلى حقائب .. سأذهب كما أنا .

ورفع جاد الله بصره إليه قائلاً في غيظ :

— اسمع يا مدحت . كف عن هذا التذاعى . إذا كنت تنوى أن تسافر

فيحسن لك أن تتجلد ، وتتهالك قدرتك على تصريف شئون نفسك .. إنك في

حاجة إلى غيارات ، وفي حاجة إلى ملابس مدنية ، وفي حاجة إلى أشياء كثيرة تعد

بها نفسك للسفر .

— لقد سبق أن سافرت ، والسفر ليس معضلة ، ولست أريد أن أفزع « أمى » بوداع جديد .. إنها تعرف أنى أبيت فى المستشفى ، وأن هناك حالة الطوارئ ، وسأتحدث إليها قبل السفر ، وعليك أنت طمأنتها من وقت لآخر .. حتى أعود .

ومرت الساعات التسع بمدحت .. استطاع خلالها أن يسوى مشكلات صغيرة .. وبعد ما يلزمه . وقيل العاشرة كانت عربة جاد الله تنهب به الأرض فى طريقها إلى مطار القاهرة .

ووصلت العربة إلى المطار واجتاز مدحت الباب بحقيبته الصغيرة فى يده .. وبدأت الحركة فى مبنى المطار قلقلة مضطربة .. وأحس مدحت بعلامات دهشة ووجوم على وجوه الناس .

ووقف الموظف المختص بمراقبة الجوازات يهز رأسه قائلاً :

— إنه أمر خطير .. خطير جداً .

ولم يجد مدحت فى نفسه قابلية للثروة .. فقد كان يريد أن ينتهى فحص جوازه بسرعة ، ولكن جاد الله تساءل بطريقته المازحة :

— ما هو هذا الأمر الخطير ؟

— الإنذار البريطانى الفرنسى .

ورفع جاد الله حاجبيه فى دهشة ، وزم مدحت شفثيه .. فى انتظار مزيد من الشرح .

واستمر الرجل يقول :

— لقد أرسلت لإنجلترا وفرنسا إلينا إنذاراً .

— لماذا ؟

— للنزول فى موانئ القناة .

— أقصد لماذا أرسلت الإنذار ؟

— لأنها تخشى تعطيل الملاحة نتيجة القتال بيننا وبين إسرائيل .

— ولكن الملاحه لم تتعطل .. وقد ضربت طائراتنا القوات الإسرائيلية ضربة قاصمة ، ومدرعاتنا تحتشد لكى تقضى على البقية الباقية منها وتلقنها درساً قاسياً .

ورفع الرجل كتفيه وقلب شفتيه فى حيرة قائلاً :

— هكذا قال الإنذار .

وهز مدحت رأسه قائلاً :

— غير معقول .. لا بد أنها إشاعة .

ولكن الأمر لم يكن إشاعة .

وسرعان ما علا صوت الراديو ليعلن نص الإنذار البريطانى الفرنسى الذى وجهه إيدن إلى الحكومة المصرية والذى يطلب وقف القتال الدائر بين مصر وإسرائيل وسحب جميع قواتهما إلى مسافة ١٠ أميال من ضفاف القتال ، وأن توافق مصر على مرابطة القوات البريطانية والفرنسية فى المواقع الرئيسية ببور سعيد والإسماعيلية والسويس ، وحدد الإنذار مهلة قدرها اثنتا عشرة ساعة تالية لتقديمه ، تنتهى فى الساعة السادسة والنصف من صباح ٣١ أكتوبر .

وعض مدحت على نواجذه ، وهو يقول فى صوت مغيظ :

— غير معقول .. غير معقول أبداً .. لقد أعلنت بريطانيا أنها لن تستغل

الفرصة .

وهز جاد الله رأسه ، وقد بدا عليه الشرود والتفكير وقال ساخراً .

— لن تستغلها إذا استطاعت إسرائيل أن تحقق الغرض منها .. إذا استطاعت أن تصل إلى القناة وتعطل الملاحه بها .. أما وقد سيطرت مصر على أرض المعركة .. وسيطر سلاحنا الجوى على سمائها ، وبدأت إسرائيل عاجزة عن تحقيق مهمتها . فكيف يقف الطرفان الآخران مكتوفى الأيدى .. كيف لا يستغلان اللعبة ، وهما أصحابها .. إنها مؤامرة مدبرة .. لم أشك فى ذلك لحظة واحدة .

وتساءل موظف الجوازات قائلاً :

— ٦٣٠ —

— ولكن هل وصلت إسرائيل إلى القناة ؟

وهز مدحت رأسه مؤكداً :

— بالطبع .. لا .

— إذن .. كيف تبعد قواتها عشرة أميال عنه .. إذا كانت لم تصل إليه ؟!

وأجاب مدحت ساخراً :

— أظن يتحتم على مصر أن تجربها إلى القناة .. حتى يمكن تنفيذ الإنذار

وعاد الرجل يتساءل :

— ولكن لماذا تريد إنجلترا وفرنسا وضع قواتهما في بور سعيد والسويس

والإسماعيلية ؟!

— لماذا تريدان ؟ لأننا أئنا القنال ؟ لأنهما نادمتان على الجلاء الذى مكننا من

امتلاك أراضينا ، واسترجاع حقوقنا ، والتصرف بحرية في ممتلكاتنا .. لقد كان

المفروض أن يعقد اجتماع اليوم في جنيف لتسوية المشكلات الناتجة عن التأميم ..

ولكن يبدو أن إنجلترا وفرنسا .. وجدتا أن عودة قواتهما هي أفضل طريقة

للتسوية .

وهز الرجل رأسه في يأس وهو يمد يده بجواز السفر إلى مدحت قائلاً :

— ولكن ماذا يمكننا أن نفعل الآن ؟!

وأجاب مدحت ببساطة

— لا شيء .. نرفض الإنذار .. أم ترانا قد فعلنا كل هذا .. من أجل أن نعود

لنقبل ببساطة احتلال بريطانيا وفرنسا لقطعة من أرض مصر ؟!

وضحك جاد الله وهو يقول :

— إنه مجرد تهويز .. مجرد « هبة » .. على طريقة دبابات ٤ فبراير .

واتجه مدحت وجاد الله إلى البوفيه ، واستقر جاد الله على مقعده أمام المنضدة

وشرد ذهنه برهة ثم تساءل قائلاً :

— أما زلت مصرأ على السفر ؟

— ٦٣١ —

ورفع مدحت إليه عينيه في غيظ وأجاب ؟

— مصر .. طبعاً مُصرّ .

— بعد هذا الذي سمعت ؟

— ماذا سمعت ؟!

— الإنذار البريطاني .

— ألم تقل إنه مجرد « هبة » ؟

— هب أنه لم يكن .

— ليكن أو لا ليكن .. سأسافر .. سأسافر

— أتعلم أن الطريق قد يغلق ، وأنت لا تستطيع العودة ؟

ورفع مدحت كتفيه قائلاً :

— المهم ألا يغلق قبل أن أسافر

وعاد جاد الله إلى شروده برهة ، وما لبث أن رفع رأسه متسائلاً :

— اسمع .. أتعرف أنك قد لا تستطيع أن تدخل فرنسا ؟

وبدت الدهشة على وجه مدحت وتساءل قائلاً :

— كيف ؟!

— أليس المفروض أن تنتهى مدة الإنذار الساعة السادسة والنصف صباحاً ؟!

— أجل .

— هل تظن أن « جمال عبد الناصر » سيقبل الإنذار ؟!

— بالطبع .. لا

— والنتيجة ؟!

ورفع مدحت كتفيه قائلاً :

— لا أعرف !

— النتيجة .. أننا سنصبح في حالة حرب مع فرنسا وإنجلترا ، ومعنى ذلك

أنك لن تستطيع أن تدخل فرنسا .. أو إنجلترا .

— ٦٣٢ —

وبدا الوجوم على وجه مدحت ولكنه عاد يقول في إصرار :

— اسمع .. لن يثبني شيء عن السفر .

ورد عليه جاد الله في غيظ قائلاً :

— أيها الغبي .. لست أحاول أن أثبتيك ، ولكن لابد لنا أن نفكر في كل الاحتمالات .

وأجاب مدحت وهو يزفر في يأس :

— اسمع .. سأسافر ، ويحلها ربنا .

— على أية حال إذا احتجت إلى أي شيء في جنيف .. فاتصل بجمال .. أتذكره ؟!

وهز مدحت رأسه بالإيجاب ثم تساءل في غير اكتراث :

— وكيف أتصل به ؟

— في سفارتنا في برن .. اتصل به تليفونياً ، واذهب إليه .. أو اطلب منه أن يحضر إليك .. إنه إنسان خدوم جداً .

وأجاب مدحت وهو يلقي رأسه إلى الخلف في كلال :

— أرجو ألا تحوجني الظروف إلى خدماته .

ودوى صوت الميكروفون يستدعي ركاب الطائرة .

ووقف جاد الله يودع مدحت عند الحاجز الشبكي . وسمع أحد الطيارين

وهو يهرع من الباب ويشير إلى إحدى المضيفات قائلاً :

— وداعاً لك ، وللقاهرة .. قد تكون آخر مرة نعود إليكم .

وضحكت المضيفة قائلة :

— وقد تكونون آخر طائرة .. ترحل عنا .

وعلق جاد الله على قولها بقوله لمدحت :

— سامع ؟!

— لا يهمني .

— ٦٣٣ —

— طبعاً .. أنا شخصياً لو فى صحة هذه المضيضة .. لفضلت ألا أنزل إلى الأرض أبداً .

وسار مدحت متجهاً إلى الطائفة ، وجاد الله يهتف به :
— مع السلامة .. إذا حدث شىء فاكتب إلى .

وارتفعت الطائفة فى الظلمات .. وتباعدت حتى أضحت كأنها نجمة تتحرك فى بطن .

واستقر مدحت فى مقعده .. واسترخى .. وأغمض عينيه وبدأ ذهنه يغرق فى دوامة أفكاره .

وسط هذا الخضم من الأحداث .. كان مدحت يحس بشعور من الاستقرار والسكينة ..

كان أهم حدث فى كل هذا الخضم الحافل .. هو حياة .. « نادية » .
إن « نادية » لم تمت .

« نادية » الحبيبة .. العزيزة .. موجودة .
إنها هى نفسها التى رآها ، وأحس فى وجهها الحزين شيئاً حبيباً ودوداً .
إنها هى نفسها التى ضمها فوق القبور ، وصحبها إلى البحيرة وجلس وإياها فى شرفة النادى .

هى نفسها التى ودّعه .. باللوعة فى قسماتها .. والدمع فى مآقيا .
هى نفسها التى كتبت إليه .. لتقول له إنها تحبه .. وإنها تود أن يحبها هى
هى نفسها المخلوقة الرقيقة .. التى أحكمت الإيثار حول وجهها .
إنه يحبها بكل ما فيها .

ويحب أكثر .. ذلك الشىء الذى تخشاه فى نفسها .. ذلك الحرق فى عنقها
مهما كان منظره .. فهو جزء منها .
جزء من المخلوقة الرائعة .. التى أحس بروعتها منذ أول كلمة كتبها .. إلى
آخر حرف نطقته .

المخلوقة الرائعة .. التى أحبها .. لذاتها .. لشخصيتها .. وإحساسها .. والتى
يخس أنه قد أحبها أكثر .. عندما لقيها .. وودّعها .
المخلوقة .. الرائعة وهما ، وحقيقة ..
إن « نادية » كائنة .. وهو قد رآها ، وسيراها .
سيراها !

أيستطيع أن يجزم بهذا ؟!
أوافق هو أنها ما زالت تنتظر ؟! وأنها لن ترحل حتى تعرف نتيجة رسالتها
إليه ؟

من يدرى ؟!
واستمر مدحت فى هواجسه .. حتى غلبه النعاس .
وقبل الفجر هبطت الطائرة إلى مطار جنيف ، وغادر مدحت المطار بحقيقته
الصغيرة إلى ميدان المحطة ، وتوجه للسؤال عن أول قطار ليّجه إلى جرينوبل ثم إلى
« فين » ومنها إلى « جاب » نفس القطار الذى حملته آخر مرة عند عودته من
« جاب » .

وكان الوقت ما زال مبكراً .
واضطّر مدحت إلى الانتظار حتى يحين موعد القطار .
وتنفس مدحت الصعداء وهو يستقر على مقعد القطار .. وأحس بالسكينة
والقطار ينساب به من مبنى المحطة ، ويدفع بين السفوح الخضراء
وبعد فترة توقف القطار فى أول محطة على الحدود .. بين سويسرا وفرنسا ،
وأقبل البوليس الفرنسى يفحص جوازات الركاب ، وقد مدّ مدحت يده بالجواز
فى شىء من الإسترخاء .

ووقف الرجل يفحص الجواز ، ثم قلب شفتيه ورفع كتفيه وأجاب ببساطة :
— هذا جواز مصرى ؟ .

وأشار مدحت برأسه علامة الموافقة وأعاد الرجل الجواز إليه وهو يقول له

بنفس البساطة :

— ممنوع .

ورفع مدحت حاجبيه في دهشة متسائلا :

— ما هو هذا الممنوع ؟!

— دخولك إلى فرنسا

— له ؟!

— الأوامر .

— أية أوامر ؟!

— أوامر حكومتنا

— له ؟!

— سل حكومتك .. سل « عبد الناصر » .

ونفخ مدحت نفخة قصيرة من أنفه .

هذه سخرية جديدة !!

لقد بدا جاد الله مازحاً وهو يقول له إنه قد يمنع من دخول فرنسا .. وقد
أضحت مزحته جداً .

وها هو يقف على الحدود الفرنسية ، لا يستطيع تجاوزها .

وتذكر « جمال عبد السلام » .. الملحق الصحفي بسفارة سويسرا .. الذى
نصحه جاد الله بأن يلجأ إليه وقت الحاجة .

ونفخ نفخة ساخرة أخرى .

ماذا يملكه له « جمال عبد السلام » ؟

بل ماذا يملك له « جمال عبد الناصر » نفسه ؟!

وجذب مدحت حقييته .. وهبط من القطار ، وقد أثقل اليأس كاهله .

وأنقض الهم ظهره .

ماذا يفعل الآن ، وهو يقف على الحدود كاليهودى آلتائه .

ونادية ؟!

نادية العزيزة .

تجلس في انتظار ردّه .

إن كان ينوى أن يرد .

ولكن لماذا لا يرد ؟!

لماذا لا يُرسل لها تلغرافاً .. لتنتظره حتى يأتى إليها .. إن كان هناك أمل في مجيئه

إليها .

بل لماذا لم يرسل لها من القاهرة .. بمجرد أن وصلته رسالتها ؟!

لقد أعماه تصميمه على الذهاب إليها .. عن أى حل آخر .

ولو أنه أرسل إليها تلغرافاً من القاهرة .. لكان الآن في طمأنينة .

ولكن أتراها .. ما زلت تنتظر حتى الآن ؟!

إنه يتعلق بتعليل جاد الله .

وهو تعليل معقول .

ولو لم يكن معقولا .. لقضى يأساً وحرناً .

واتجه إلى مكتب التلغراف .

ووقف أمام المكتب وقد أمسك بالقلم وبدت عليه الحيرة .

ماذا يكتب لها ؟!

أيقول لها إنه يحبها ؟!

إنه يود أن يكتب إليها رسالة كرسالتها .

ولكن ليس هذا وقته .

يكفى أن يرجوها انتظاره .

وبدأ مدحت يخط البرقية :

« نادية .. إني أحبك .. حاولت أن آتى إليك .. ولكنى أوقفت على الحدود

وأنا في طريقى إليك من جنيف .. انتظرينى .. حتى أجد طريقة للقائنا » .

« مدحت »

(٤٩)

عملية تهريب ! ..

أرسل مدحت البرقية إلى « جاب » ثم عاد في أول قطار من الحدود إلى جنيف ، واتجه بحقيته إلى الفندق الذى كان يوشك أن ينزل به في المرة السابقة . وكان رغم ما به من قلق وتوتر .. يحس بالأمل يملأ جوانحه .. وبأن اليأس المظلم الذى أطبق عليه في المرة السابقة قد انقشع وتبدد . ووقف أمام مكتب الاستعلامات يحس نفس الرجل الذى حجز له مكاناً في الطائرة عند العودة إلى مصر . وردّ عليه الرجل التحية وقد بدت عليه علامات الدهشة وهو يسأله في أدب :

- لعل سيدى لا يكون في عجلة هذه المرة ؟!
- وأطلق مدحت ضحكته الساخرة من أنفه وأجاب :
- بل في عجلة أشد .
- أتريد العودة إلى القاهرة مرة أخرى . ؟
- ليس الآن .. إني أريد أن أتصل بسفارة مصر في برن .
- حالا يا سيدى .
- ورفع الرجل السماعه وطلب السفارة .
- بعد بضغ ثوان مد يده بالسماعة إلى مدحت قائلاً :
- السفارة المصرية معاك .
- وأمسك مدحت بالسماعة منادياً :
- آلو .. السفارة المصرية ؟!
- نعم .

— ٦٣٨ —

— الأستاذ « جمال عبد السلام » الملحق الصحفى .

— انتظر .

وبعد لحظة أجاب الصوت :

— الأستاذ جمال غير موجود .

وأحس مدحت بالضيق والحيرة وعاد يتساءل :

— أين أستطيع أن أجده ؟

— معك مكتبه .

وسمع مدحت صوتاً يجيب عليه :

— أفندم ؟

— أين الأستاذ جمال ؟ .

— فى جنيف .

— إنى أتكلم من جنيف .. أين أستطيع أن أجده ؟

— من الذى يتكلم . ؟

— أنا الدكتور مدحت .. وصلت الآن من القاهرة .. وأريده فى مسألة

هامة .

وصمت الصوت برهة ثم أجاب فى تردد :

— والله لا أعلم بالضبط .. ولكننى أعتقد أنك تستطيع الاستدلال على

مكانه من مكتب القنصلية .

— سأحاول أن أسأل عنه هناك .. وإذا حضر إليكم أو اتصل بكم قبل أن

أستطيع الاتصال به .. فأرجو أن تطلبنى فى فندق ..

ثم هز رأسه سائلاً موظف الاستعلامات عن اسم الفندق .. وأجاب الرجل :

— سافوى .

وأردف مدحت مردداً الاسم فى السماعه .

— فندق سافوى .. وسأمكنك هنا حتى أستطيع الاتصال به .

— ٦٣٩ —

ووضع مدحت السماعه ثم سأل الرجل الواقف أمامه ينتظر في أدب :

— هل أستطيع أن أتصل بالقنصلية المصرية ؟ .

— طبعاً .

وبعد لحظة كان مدحت يسأل عن جمال عبد السلام .

ولم يطل سؤاله هذه المرة . ففي اللحظة التالية كان صوت جمال يجيب

متسائلاً :

— هالوا .. أنا جمال .

— أنا الدكتور مدحت .

— من ؟ .

— الدكتور مدحت .. صديق جاد الله .

وهتف « جمال » مرحباً في دهشة :

— دكتور مدحت !؟ من أين تتحدث ؟

— من هنا .. من جنيف .

— متى وصلت ؟ .

— اليوم .

— كيف وصلت ؟

— بالطائرة .

— ألم تنقطع خطوط الطيران من القاهرة ؟ ألم تقفل المطارات بعد ؟!

— أظن أنها قد انقطعت بعد سفرى .. لقد سمعت وأنا أركب الطائرة أنها

آخر طائرة تقوم من مطار القاهرة .

— حمد الله على السلامة . كيف الحال عندكم في مصر ؟!

— الحمد لله .

وبدأ سيل من الأسئلة يتدفق من جمال .. ولكن مدحت أوقفه بقوله ..

متسائلاً :

— ألا أستطيع أن أراك ؟ ..
 — طبعاً .. من أين تتكلم ؟ ..
 — من فندق سافوى .. بجوار المحطة :
 — بعد بضع دقائق . سأكون عندك
 ووضع مدحت السماعة ، ووقف شارداً .
 لقد شعر ببعض الراحة عندما عثر على « جمال »
 ولكن ماذا يستطيع أن يفعل « جمال » .. إذا كانت الحدود مغلقة ؟ !
 أستطيع أن يجتازها .. بجواز دبلوماسي ؟ ..
 إنه لا يفهم في هذه الأمور .. بل هو لا يفهم حتى لماذا منعه أن يدخل ؟
 لقد انقضت مهلة الإنذار في الساعة السادسة والنصف .. ولكن هل معنى
 هذا .. إنذار بحالة حرب ؟ !
 وهل يستطيع « جمال » في هذه الحال أن يدخل ؟ !
 ولكن ما قيمة أن يدخل « جمال » وحده ؟
 إنه قد يستطيع أن يقنع « نادية » .. بحقيقة مشاعره .. وصدق نواياه وحرارة
 رغبته .
 ولكن أستطيع أن يقنعها بحيث تقبل أن تعود معه إلى القاهرة ؟ ! وإذا أقنعها !
 هل يستطيع أن يقنع أمها ؟ !
 إنه هو نفسه .. يستطيع .
 إنه يثق في قدرته .. وفي مشاعره .
 بشرط أن يجدها .
 وهو يعتقد أنه سيجدها .
 إنها لن ترتكب تلك الحماسة التي كتبت عنها في رسالتها ، أنها مجرد خواطر
 دفعها اليأس في نفسها .
 وهي لا بد من أن تنتظر نتيجة .. رسالتها .

وسيوكد لها التلغراف الذى أرسله الآن .. هذه النتيجة .. وسيمنحها من الأمل .. ما يبدد بأسها .. ويوقف أفكارها المظلمة .

لو أنه أرسل هذا التلغراف مبكراً !!

ولكنه كان عاجزاً عن التفكير .

كان كل ما يريده .. هو أن يطير إليها .

وطال شروده حتى بدأ الرجل الواقف أمامه يقلق .. وسأله موقظاً :

— سيدى . هل أحجز لك غرفة ؟

وأجاب مدحت معتذراً :

— أجل .. أجل .. سأصعد إليها الآن .. وعندما يحضر الأستاذ « جمال »

الذى كنت أتحدث معه .. اطلبنى كى أهبط إليه .

وصعد مدحت إلى الحجرة . وأراحته بساطتها ونظافتها .

ووقف مدحت فى الشرفة المطلّة على الميدان .. وأحس ببرودة الهواء .. وشم

فى نسماته .. عبير الجبال .. والبحيرات .. وأحس بأنه غير بعيد عن مواطن

أحلامه ومرتع أمانيه .. وبأن « نادية » .. باتت منه على قيد خطوات .. وأن

هذه القمم البيض التى تلوح فى الأفق .. هى نفسها التى تطل على بيتها .

واغتسل مدحت فى الحمام الملحق بالغرفة ، وأبدل ملابسه ولم يكذب يستلقى

على الفراش حتى دق جرس التليفون .. ثم سمع صوت « جمال » مباشرة

يصبح به :

— دكتور مدحت ؟

— سأهبط إليك حالا .

ووضع السماعة .. وأسرع إلى بهو الفندق .

وتعانق الرجلان فى شوق ولهفة .. رغم أن أحدهما لم ير الآخر إلا مرة

واحدة .

ولكن إحساس مدحت بالغربة والوحشة ، وإحساس « جمال » .. بأنه يرى

— ٦٤٢ —

مواطناً من بلده المكافح .. جعل كلا منهما .. يشعر نحو الآخر .. بألمة شديدة .

وروى مدحت لجمال خلاصة الحال فى مصر .. وحادثه عن الهجوم اليهودى والجرحى .. وعن الإنذار الذى تلقته مصر .
وهز جمال رأسه قائلاً :

— لقد سمعت الإنذار فى الساعة السابعة مساء أمس .

— لقد سمعته وأنا فى المطار .

— لقد رفض جمال الإنذار .

— كنا نعرف جميعاً ذلك .

— رفضه بقوة وحزم .. لقد أعلن أن مصر لا يمكن أن تسمح أو توافق على احتلال بور سعيد والإسماعيلية والسويس بقوات أجنبية بريطانية فرنسية .. لقد أعلن باسم مصر أن هناك انتهاكاً لحريتها .. واعتداء على سيادة الشعب المصرى وكرامته .. وقد أعلنت إسرائيل موافقتها على شروط الإنذار .

— طبعاً توافق .. كيف لا توافق على الانسحاب عن القنال عشرة أميال .. وهى بعيدة جداً عنه .. إنها توافق لأنها معتدية .. ولأن قواتنا منتصرة .. وهى ترغمها على الارتداد .

— وماذا تظن إن إنجلترا فاعلة ؟ هل ستقف مكتوفة اليدين أمام رفضنا للإنذار ؟

— أعتقد أنها يجب أن تفعل ذلك .. يجب أن تكف عن الاندفاع أبعد من هذا .

— لا أظن .. إنها لا تستطيع أن تراجع بعد هذا الإنذار .

— إذن عليها أن تخوض حرباً .. لأننا لن نسلم بلادنا أبداً .. إذا كان

« إيدن » لا يستطيع التراجع فى عملية اعتداء ، فلا أظن « جمال » يستطيع التراجع فى عملية دفاع .. عن سلامة الوطن .. وحرية الشعب .

— ٦٤٣ —

وأطلق جمال تنهيدة قلق .. قائلاً :

— ربنا يهديهم .. إن أى اعتداء يمكن أن يقوموا به .. قد يطلق الشرر في العالم كله .. ومن أجل هذا اعتقد أنهم لن يغامروا بتنفيذ الإنذار .

ورفع مدحت كتفيه قائلاً :

— أرجو ذلك .. ليس هناك من يتوق لإشعال حرب جديدة

ونظر جمال إلى مدحت ، وقد بدا عليه الشرود وتساءل :

— لم تخبرني بعد ؟ . ماذا أتى بك في هذه الظروف العصيبة .. ؟ لقد ألمانا الحديث .

وأحس مدحت بحيرة شديدة .

ماذا يمكن أن يقول له .. ؟

وسط هذه الأحاديث عن الإنذار .. والاعتداء .. والحرب الموشكة .. والموقف المتأزم ، والظروف العصيبة !

هل يجسر أن يقول له ، لماذا أتى ؟

أيقول له .. قد أتى .. ليأخذ فتاة تحبه .. ويمنعها من الانتحار .. من أجله ؟! وأحس بتفاهته .

وساد الصمت .. واستغرق في الشرود والتفكير .

وأخذ « جمال » يرقبه في شيء من الدهشة .. ثم تساءل في صوت خافت :

— ألا أستطيع أن أكون موضع ثقتك ؟

وهز مدحت رأسه قائلاً :

— بل يجب أن تكون كذلك .. إني في حاجة إليك .

— لماذا لا تتحدث إذن ؟ ماذا أتى بك هنا ؟! وماذا يقلقك ؟

وأطرق مدحت وقال في صوت خافت كأنما يحدث نفسه :

— المسألة في الواقع تحتاج إلى شرح طويل .. يجب أن تفهم كل الظروف

المحيطة بها .. والدوافع التي خلقتها .. حتى تلمس لي بعض العذر .. وحتى

لا أبديو أمامك مخلوقاً تافهاً .

وهز « جمال » رأسه وقال مؤكداً :

— إنك آخر من يتهم بالتفاهة . إني أعرفك من جاد الله جيداً .. وإني معجب بك جداً .. كل ما أرجوه أن تضع ثقتك في .. وسأفعل من أجلك كل ما أستطيع .

ورفع مدحت بصره وزم شفثيه .. ثم اعتصر جبينه .. وقال في صوته الخافت الذي يديه كأنما يحدث نفسه :

— إني أريد منك أن تجد لي سبيلاً للدخول إلى فرنسا .

ورفع « جمال » حاجبيه في دهشة وتساءل :

— وهل منعك أحد .. ؟

— أجل .. حاولت اليوم أن أعبر الحدود في القطار ، فمنعوني .

— وإلى أين تريد الذهاب ؟!

— إلى بلدة في جبال .. الألب العليا ، تسمى « جاب » .

وبدت الدهشة على وجهه وهتف متسائلاً :

— جاب .. ولماذا « جاب » بالذات ؟! من تعرف هناك . ؟

— فتاة مصرية تعيش هناك .

ونظر جمال إلى وجه مدحت نظرة طويلة فاحصة وتساءل في صوت خافت :

— مصرية في « جاب » !! لا أعتقد أن هناك غيرهما ، وترى من تكون منهما .. منى .. أو نادية .

ورفع مدحت رأسه مأخوذاً وتساءل وقد تلاحقت أنفاسه :

— هل تعرفهما ؟!

— عرفتهما على ظهر السفينة .. في طريقى إلى هنا .

وصمت « جمال » برهة وتساءل في لهجته المأخوذة الحائرة :

— ولكن كيف عرفتهما؟! وماذا يدفعك إلى الإصرار على زيارتهما ..
هذه الظروف العصبية ؟

وصمت مدحت برهة .. وقد بدا عليه الشروود واستبدت به الحيرة .
ومرة أخرى لا يدرى كيف يشرح !!

وهز رأسه في حيرة وقال في لهجته الخافتة :

— لست أعرف كيف أوضح لك .. إن المسألة تحتاج كما قلت لك .. إلى
شرح طويل .. فإن .. مجرد ذكرها لن يشعرك بمدى أهميتها وخطورتها في
نفسى .. ولكنى ...

وصمت مرة أخرى .

وعاد « جمال » يقول مستحثاً :

— ولكنك ماذا ؟ لماذا لا تتكلم ؟ إني أفهمك جيداً . قل كل ما تريد .. من
منهما تهتم بأمرها ؟.

وأطلق مدحت نفخته الساخرة وقال :

— الباقية منهما .. ألا تعرف أن « منى » قد ماتت ؟

وهتف « جمال » مرتاعاً وردد قوله كالماخوذ :

— منى .. ماتت .. ؟ غير معقول .. الفتاة المرححة اللطيفة التى لا تهدأ لحظة

ولا تكف عن المزاح والضحك .. ماتت .. لقد رأيتها هى ونادية على ...

وقاطعه مدحت في قلق وأسى :

— اسمع .. يجب أن أذهب الآن إلى « نادية » . إني أخشى ..

وصمت مدحت وعاد جمال متسائلاً :

— تخشى ماذا !. لماذا لا تنطق ؟.

— لا أدري كيف أشرح لك ، ولا من أين أبدأ .

وتوقف مدحت عن الحديث فجأة ومد يده إلى جيبه فأخرج رسالة

« نادية » . وأردف قائلاً وهو يتنهد فى يأس :

— ٦٤٦ —

— اقرأ هذه .. أعتقد أنها ستكون أقدر على إفهامك كل شيء .
وأمسك جمال الرسالة وانهمك في قراءتها .. وقد بدت عليه أقصى علامات
الدهشة .

وعندما انتهى من قراءتها طواها في رفق ، وهو يتمتم قائلاً :
— إذن فهو أنت ؟

وتساءل مدحت مردداً قوله :

— هو أنا .. ؟

— أجل .. أنت الوهم الكبير ، الذى وقف في سبيلى ، والذى وعدتنى بأن
أكون أول من تفكر فيه إذا ما زال ؟!

وصمت جمال ثم أخذ يطرق المنضدة بأصبعه قائلاً :

— لماذا تتوقع أن أسخر منك .. ؟ لقد أحببتها أنا كما لم أحب في حياتى ..
أحببتها بعنقها المقروح .. عنقها الذى أقامت منه حاجز يأس .. يقف في سبيلها
إليك .. وإلى كل أمل .. أحببتها .. بكل ما أملك من مشاعر .. أحببتها ، وهى
مستلقية على مقعدها فوق ظهر السفينة ، وقد أطارب الريح .. الإيشارب .
فكشف رأسها وعنقها .. ولم أجد به ما يستحق الإخفاء .. لم أجد بها ما
يشوّها قط .. وأصابها الجزع .. وظننت حبيبى لها شفقة بها .. وحاولت أن
أقنعها عبثاً .. لأنك كنت تقف في سبيلى .. وهما كبيراً يسيطر على مشاعرها ..
وسداً ضخماً يقوم بينها وبين كل طارق لقلبها .. وكنت أنتظر أن يزول الوهم ..
ولكنى أجدته الآن قد تجسد ليصبح حقيقة واقعة .. لا تزول .. ولا تقاوم .

وصمت جمال ثم مد يده بالرسالة إلى مدحت ، وهو يقول :

— إنى سعيد من أجلها .. شقى من أجل نفسى .

ثم نهض فجأة ، وهو يقول في حزم :

— قم .. سأفعل المستحيل .. لكى أوصلك إليها .

وخرج الاثنان من الفندق .. وتساءل مدحت قائلاً :

- إلى أين ؟ .
- سنحاول أن نعبّر الحدود بواسطة الترام .
- الترام !!
- أجل .. سنذهب إلى « أنماس » وسنعبّر الحدود بها في الترام .. وقد
- تستطيع أن تمر من الحراس الفرنسيين .
- بمثل هذه السهولة ؟!
- وذهب مدحت وجمال إلى « أنماس » .. وتحرك الترام بهما عبر الحدود ، وقد
- بدا القلق على وجه مدحت وأحس بأعصابه مشدودة متوترة .
- وقال جمال مستضحكا :
- لا تحمل هما .. أنا مسئول عن إدخالك الحدود .
- وإذا منعنا ؟.
- سنأخذ قارباً، ونهرب من البحيرة إلى « أفيان » .. وهناك نستطيع أن
- نأخذ القطار إلى « بلجاره » حتى جرينوبل . وأظنك تعرف طريقك بعد
- ذلك .
- أتظن العملية ممكنة ؟!
- جداً .. ليس أكثر من أصحاب القوارب المهربين في بحيرة ليمان .. المهم أن
- تعرف طريقك أنت بعد ذلك إلى « جاب » .. ولست أظن في ذلك مشقة ..
- كل ما عليك أن تذهب إلى المحطة وتأخذ القطار المتجه إلى جرينوبل .. وبعدها
- تهبط في الطريق في « فين » .
- وتوقف الترام .. وصعد جنديان فرنسيان .. وأحس مدحت بقلبه يرق في
- عنف .
- ومر الجنديان بصفوف الركاب وهما يلقيان نظرة عابرة على الجوازات .
- حتى وصلا إلى مدحت .
- ونظر أحدهما إلى « الباسورت » وهم يتجاوزوه ، ولكنه عاد وتوقف ثم ألقى

— ٦٤٨ —

عليه نظرة أخرى .. وحدث زميله .. ثم ناوله « الباسبورت » ونظر إلى مدحت قائلاً :

— ممنوع .

وهز جمال رأسه مستفسراً :

— ما هو ممنوع ؟.

— المرور .

— لماذا ؟.

— هذه هي الأوامر .

ولم يكن هناك جدوى من المناقشة فهبط الاثنان واتجها إلى الترام العائد وجمال يقول ضاحكاً :

— لم يبق أمامنا إلا البحيرة . سأهرب بك . كالممنوعات .. هل سبق لك أن قمت بعملية تهريب ؟.

وهز مدحت رأسه ، وهو شارد مهموم .

وأردف جمال يقول :

— علينا أن ننتظر حتى يسقط الظلام .. سأتركك في الفندق وأذهب للاتفاق مع أحد أصحاب القوارب .

ووصل إلى الفندق وقبل أن يفترقا تساءل مدحت قائلاً :

— أتعن العملية ستكون ممكنة ؟

— طبعاً ممكنة .

ولم يبد على مدحت الاقتناع فأردف جمال قائلاً :

— سأبقى معك حتى نصل إلى « جاب » . هل يريحك هذا ؟! وأحس

مدحت بشيء من الطمأنينة وتساءل :

— وعملك ؟

— لن يضيرهم أن أتركهم يوماً ! وأظننا لن نتأخر أكثر من ذلك . لأننا

— ٦٤٩ —

سنكون مرتبطين بموعد مع صاحب القارب لكى يعيدنا مرة أخرى .
وهز مدحت رأسه وقال مؤكداً :

— لا .. لا .. لن نتأخر أكثر من مسافة الطريق .

ومضى اليوم بمدحت وهو قابع فى حجرته بالفندق .. مستلق على الفراش
مفتوح الجفنين .. منطلق الذهن .. وقد أقدم بتفكيره .. على كل ما يحتمل أن
يقدم عليه .

وعندما بدأ الضوء يبهت .. وتسلسلت خيوط الليل .. سمع مدحت طرقات
على باب الحجرة ، ثم فتح الباب ودخل جمال وهو يقول فى عجلة :
— ها .. أجاهز أنت ؟ .

— جاهز منذ الصباح .

— لقد أعددت القارب .. إن الرجل ينتظر على الشاطئ فى طرف المدينة ..
هيا بنا .. خذ معطفك .. ارتد كل ما تملك من « بلوفرات » .. فبرودة الليل لا
تحتمل وسط البحيرة .

وارتدى مدحت معطفه وهبط مع جمال .

وفى الطريق قال جمال :

— أسمعت آخر الأخبار ؟

— لم أسمع شيئاً . إني مستلق فى الفراش منذ أن تركتني .

— لقد أذاع صوت بريطانيا أن قيادة بريطانية فرنسية مشتركة قد تكونت فى
نيقوسيا ، وأن الجنرال تشارلس كيتل البريطانى قد عين قائداً لها ، وأن الفيس
أميرال « باربو » الفرنسى قد عين نائباً له .

— وماذا يعنى هذا ؟ .

— يعنى أن إنجلترا وفرنسا مصرتان على السير فى حماقتهما حتى النهاية .. لقد
بدأت الغارات على القاهرة والإسكندرية والقنال .. وقد أبلغت مصر مجلس
الأمن .. وعقد مجلس الأمن جلسته ، ولكن بريطانيا وفرنسا استهانتا بجميع

القوانين الدولية واستهانتا بميثاق الأمم المتحدة . واستهانتا بالرأى العام العالمى .. واعترضتا على قرار وقف القتال .. وقال « إيدن » إن بريطانيا لا تعترف بقرارات مجلس الأمن وستعمل كل ما فى وسعها كى لا تعد إسرائيل معتدية، لأن عملها من أحسن الأعمال .. وأغلب الظن أن مجلس الأمن .. لن يستطيع الوصول إلى قرار .

— إنها إذن مؤامرة .. وإنجلترا وفرنسا .. تصرّان على أن تبلغا الهدف منها .. وهو احتلال القتال ؟

— طبعاً .. إن وزارة الدفاع البريطانية تقول إنها ستضرب المطارات المصرية لأن مصر رفضت سحب قواتها ..

ولكن يبدو أن الغرض هو إعجاز سلاح الطيران المصرى الذى تفوّق تفوقاً تاماً على إسرائيل .. وكذلك لعزل القوات المصرية التى تحشد لرد قوات إسرائيل .. إن بريطانيا وفرنسا لا يمكن أن تترك إسرائيل .. تتلقى الضربة وحدها .

— لست أظن هناك عملاً أحط من هذا ولا أحقر .. من كان يصدق أن إنجلترا وفرنسا .. الدولتين الكبيرتين .. تطعنان مصر .. الدولة الصغيرة .. فى ظهرها .. وهى تتوجه لحماية حدودها من عدوان إسرائيل .. إن هذا العمل سيكون سبة فى تاريخ إنجلترا .. كان أكرم لها .. أن تتجه رأساً لاحتلال القتال .. وتعلن أنها تدافع عن مصالحها .. بدل ذلك الغدر والختيال والخديعة التى لا تنطلى على أحد .

— على أية حال لا أظن المسألة يمكن أن تنتهى بسهولة . إن مصر ستقاوم .. ونحن لم نعد فى القرون المظلمة .. التى يمكن أن تغتال فيها الشعوب خفية .. عن أبصار العالم .

ووصل الاثنان إلى ساحة البحيرة .

وكانت الظلمة قد سادت ، وصقيع الليل وبرودة البحيرة ، تلسع الوجوه

والأطراف .

وبدا القارب تحت إحدى الأشجار .
وتحقق صاحبه من وجه « جمال » .
وفي صمت هبط الاثنان إلى القارب .
وأخذ القارب يشق طريقه في سكون الليل وسط البحيرة .
ولم ينبس واحد من الثلاثة بينت شفة .. حتى وصل القارب إلى الشاطئ مرة
أخرى .

وكانت أضواء مدينة « أفيان » تتلألأ من بعيد .
وهبط مدحت وجمال .
وقال جمال لصاحب القارب :
— سنعود إليك في مثل هذه الساعة غداً .
وهز الرجل رأسه .

وهبط مدحت وجمال يشقان طريقهما بين الأحرش .
وبعد نصف ساعة كان القطار يتجه بهما من « أفيان » إلى « بلجارد » .
وفرك جمال يده وهو مسترخ في مقعده قائلاً :
— ما رأيك في عملية التهريب هذه ؟

وقبل الصبح وصل الاثنان إلى « جاب » . واتجه مدحت بجمال إلى
النادى .. ثم تركه .. وسار إلى بيت « نادية » .. وقلبه يدق بين جوانحه ..
ورجفة القلق تسرى في كيانه .

(٥٠)

أحقاءً عدت؟! ..

هبطت « نادية » سفح الجبل بعد أن أتمت رسالتها الأخيرة إلى مدحت .. وقد عازمت على أن تلقى بها في البريد ثم تمر بالبيت لتودع أمها .. وتعود إلى الجبل مرة أخرى لتلقى بنفسها من الهاوية .. أو لتضع نفسها — كما قالت لمدحت — في موضعها حتى تستحق زهرته على قبرها .. وتنعم بحزنه عليها .
وعندما عادت إلى البيت تلقتها أمها بالبواب في لهفة وقد بدا عليها القلق وهتفت بها :

— أين كنت يا نادية؟! لقد أصابني القلق عليك .

— لقد صعدت فوق الجبل منذ الصباح .

— وحدك؟! ..

— أجل .

— ومكثت فيه حتى الآن؟! ..

وأطرقت « نادية » وهي تنظر إلى أمها في إشفاق وحزن .. وقد تجلت مدى

الفجعة التي يمكن أن تصيبها إذا ما أقدمت على تنفيذ خطتها .. ولحقت بأختها .

وضمتها الأم إليها وهي تقول :

— كدت أجن خوفاً غليك .

— لماذا؟! إلى لم أفعل شيئاً غير عادى .

— لم أعود منك هذه الغيبة وحدك .. وخشيت أن يكون قد أصابك

مكروه .

وكان الأب « رينو » يجلس أمام الجدة التي استرخت على مقعدها الكبير في

حجرتها .

وتتممت الجدة قائلة :

— إنى أخشى على الفتاة الصغيرة أن يصيبها شيء .. من فرط الحزن والوحدة ، لا بد لها أن تبدل هذا الجو القاتم .. ونخرج من هذه الوحشة المعتمة .
وتساءل الأب رينو :

— ولماذا لا تفعل ؟

— لقد حاول أصحابها أن يخرجوها من انطوائها .. وزاروها بضع مرات .. ولكنها كانت تضيق بهم ، وتصعد هاربة إلى حجرتها .

— إذن سأجرب أنا معها .. إن مدام كلود .. ستذهب إلى قريتها لبضعة أيام . وأعرف أنها لا يسعدها شيء كصحبة « نادية » . وأعرف أن « نادية » تحب كلود ، وتطمئن إلى صحتها .. وسأحاول إقناعها الآن بالذهاب معها .
ونهبض الرجل ليلقى « نادية » مرحباً :

— أهلاً بفتاتى الهاربة . لقد حضرت فى الوقت الملائم ، لقد كنت أتاأمر مع جدتك على خطفك .

وشدت « نادية » على يد الرجل مرحة وتساءلت :

— إلى أين ؟!

— إلى قرية مدام كلود .

— قرية مدام كلود ؟!

— أجل .. لقد قررنا أن بقاءك هنا .. وانطواءك فى حجرتك .. أمر غير معقول .. وستسر مدام كلود بصحبتك إلى قريتها .
— ولكن ..

وقاطعها مسيورينو قائلاً :

— ليس هناك لكن .. لقد قررنا أنا وجدتك أن تذهبي معها .. وأظن أملك لى

تعارض .

— ٦٥٤ —

وأجابت الأم في حماس :
— أبداً .. إني أتمنى أن تخرج من عزلتها .. لترى الناس .. وليس هناك أدعى
إلى الاطمئنان عليها من صحبة مدام كلود .
وأجابت نادية :

— ولكنى لم أشك لأحد . إني لم أعد أطيق صحبة الناس .
ورد مسيو « رينو » في شيء من الحدة :
— ومن أجل هذا يجب أن تخرجى إلى الناس .. يجب أن تكونى أكثر جلدأ
وأقوى تمحلاً .. يجب عليك ألا تفقدى إيمانك بالله .. وبالناس .. وبالحياة ..
لقد أصابتنى نفس الضربة التى نزلت بكم .. وكدت أقضى من اليأس وأفقد
الإيمان بكل شيء .. ولكنى تحاملت على نفسى وتجلدت .. وخرجت إلى
الحياة .. لأفعل شيئاً أفيد به الناس ، ونزلت من دارى فوق الجبل .. وشيدت
مدرسة لليتامى .. ورحت أبذل فيها كل ما أملك من جهد ومال .. حتى
استطعت أن أصل بها إلى ما ترينها الآن .. ولقد بدد العمل من نفسى اليأس ..
وأضاع الجهاد فى سبيل الناس والخير كل ما أحاط بى من وحشة وكآبة وحزن ..
وهأنذا الآن كما ترينى .. أحيأ وأعمل .

وصمت رينو برهة ثم ربت على ظهر نادية وأردف قائلاً .
— هيا يا بنيتى .. هيا .. جهزى حقيقتك وتعالى معى .. لن تغيبى أكثر من
بضعة أيام تغيرين خلالها ذلك الجو القاتم الذى تعيشين فيه .. وتكسرين ذلك
الملل الذى تجرى عليه حياتك .. هيا .. إني سأقدم بك إلى مدام كلود .. أجمل
مفاجأة .. هيا يا « نادية » .

ووقفت « نادية » مترددة .. وهى لا تدري بم ترد على إلحاح الرجل الذى
يوشك أن يعرقل خطتها المرسومة .
وهتفت بها الجدة قائلة :
— هيا يا نادية .. لا تكونى عنيدة .

— ٦٥٥ —

وربت الأم ظهرها في رقة راجية :
— هيا يا نادية . إني واثقة أنك ستكونين أحسن حالا .
وأحسنت « نادية » أنها لا بد أن تؤجل خطتها حتى تعود من صحبة كلود .
وتسلل إلى نفسها .. خيط رفيع من الأمل .
من يدري .. ربما تعود من القرية لتجد رداً على رسالتها .
ومن يدري أيضاً .. ربما يكون رداً جميلاً .. يبعد عنها تيار اليأس الذي يجرفها
إلى الدمار .

من يدري ؟! .. من يدري ؟!
ولكن أمعقول أن يحدث ؟
معقول أم غير معقول .. إنه مجرد أمل .. مجرد بصيص من أمل .. يضيء
الظلمات المكدسة في حناياها .

لماذا لا تنتظر ؟!
لماذا لا تمنح نفسها .. فرصة الأمل ؟
حتى ولو كانت فرصة كاذبة .. لا طائل تحتها ؟!
ما الذي يدفعها إلى التعجل ؟!
أهي الرغبة في الراحة .. والهروب من اليأس ؟!
ولكن .. إذا كان هناك بصيص من أمل .
فلماذا لا تنتظر من أجله ؟!
بصيص من أمل ؟
من الذي منحها هذا البصيص ؟!
أوهامها ؟

أما زالت تحاول مرة أخرى .. أن تتعلق بالأوهام ؟!
وهزت « نادية » رأسها في ضيق ثم اندفعت إلى أعلى .
وبعد لحظات كانت عربة المسير « رينو » تنطلق بها إلى بيت كلود .. ولم

— ٦٥٦ —

يطل بها الوقت هناك .. حتى رحلت الاثنتان إلى القرية .
واستقرت « نادية » مع كلود في قريتها .. ونجح تبديل المكان والخروج من
الوحدة .. في إزالة بعض ما بنفسها من يأس معتم ووحشة قاتلة .
ولكن لم تمض بضعة أيام .. حتى تملكها إحساس بالقلق والرغبة في العودة إلى
البيت .
وكان مبعث القلق .. ذلك الخيط الرفيع من الأمل .. الذى تسلسل إلى
نفسها .

والذى يجعلها .. تتوهم .. احتمال .. وصول رد من مدحت .
ردّ — إن وصل — سيكون الحاسم في أمرها .. المقرر لمصيرها .. وشيء
خفى في باطنها ، يمسك بذلك الخيط ويثبت ويؤيده .. شيء يجزم لها أن مدحت
لن يخذلها .. وأنه يحبها هي .. هي ..
لا الصورة ..
ولا القبر .

ولأنها هي . بكيانها . وشخصها . في أية صورة على أي وضع فإن كانت
واهمة .. وإن خذلها .. فهي تعرف مقرها
إن لها في رقدتها فيه ، خير راحة وأجمل عزاء .

وصل مدحت إلى البيت .
ومرة ثانية ، وجد نفسه . يقف بالباب ليطرقة ، وشتان ما بين طريقة
وطريقة .
كانت الأولى طريقة أمل .
وكانت الثانية : طريقة تردد وخوف .
وفتح الباب ..

وأطل منه وجه جانيت .
وأحس مدحت بشيء من الخيبة . كان يتمنى لو كان الوجه المثل . الوجه ذا
الإيشارب ، والملاح الرقيقة . وهز مدحت رأسه محياً .. ثم تساءل في لهجة
مترددة :

— أستطيع أن أرى نادية ؟
وهزت جانيت رأسها بالنفى ، وأحس مدحت بشيء يفرى أمعاءه . أترى
قد نفذت وعدّها ؟!

أترى الوقت قد فات ؟!
وأحس بأنه عاجز عن النطق .. عاجز عن الاستفسار .. لقد خشي مرة
أخرى أن يسمع .. ما سمعه أول مرة .. من « نادية » نفسها أن « نادية » قد
ماتت .

لقد روّعه أن يتلقى الصدمة ثانية .
ومضى الوقت به ، وهو يحملق في صمت ، وبدا القلق على الوجه المثل من
الباب .

وأحس أنه لا بد أن يسأل . فقال في لهجته المترددة الخائفة :
— هل .. هل .. أعنى .. هل أستطيع أن أعرف . أعنى ...
وضاقت جانيت بتردده وسأله في شيء من نفاد الصبر :
— هل أستطيع أن أعرف من أنت ؟
— أنا .. أنا .. الدكتور مدحت .. لقد أرسلت إليها تلغرافاً بالأمس .
وقاطعته جانيت لتسأله في شيء من الدهشة :
— أنت .. الدكتور مدحت .. لقد وصل التلغراف .. ولكنها لم تتسلمه
لأنها رحلت .. من بضعة أيام .
ومرة أخرى أحس بالشيء الذى يفرى أمعاءه .
رحلت ؟!

ما معنى رحلت ؟!
هل يمكن أن تكون المرأة البليدة ، تعنى برحلت ، أنها ماتت ؟ ولكن لماذا
تقولها بمثل هذه البساطة ، والبلادة ؟!
إنها لا يمكن أن تعنيها .
وكان عليه أن يلم أطراف شجاعته ويسأل ، ودقات قلبه تكاد تعلو على
نبرات صوته :

— رحلت .. إلى أين ؟
— إلى قرية مدام كلود .
وتنفس مدحت الصعداء .
الحمد لله . إنها ما زالت كائنة .. لم تخذله وتذهب .
ولم يستطع مدحت أن يمنع التهلل من الانبساط على أساريه ، وقال
متسائلا :

— ومتى ستعود ؟!
ورفعت جانيت كتفها قائلة :
— لا أعرف بالضبط ، وإن كنت أعتقد أنها لن تغيب . قد تعود غداً ، أو بعد
غد .

غداً .. أو بعد غد ؟!
ولكنها على أية حال أهون كثيراً .. من ألا تعود مطلقاً .
ماذا يفعل بجمال ؟ وبالقارب المنتظر ؟!
إن المفروض أن يعود هذا المساء .
إن الفرصة ضيقة أمامهما .
إن على جمال أن يعود إلى عمله .
وعليه هو أيضاً أن يعود إلى القاهرة . فليس مفروضاً — والمعرفة يستخدم
أوارها في مصر — أن يبقى هو متمسكاً في جبال الألب .

على أية حال . إنه يستطيع أن يترك لها رسالة يشرح فيها كل مشاعره ونواياه .
ثم هو أيضاً يستطيع أن يحدث أمها . ويقنعها .
وقبل أن يفتح شفتيه ليرد على التساؤل ملأ وجهه جانيت بالقلق ، سمع صوت
عربة تقف بالباب الخارجى للحديقة .

وفتح باب العربة ثم أغلق .

وسمع صوتاً يقول :

— إلى اللقاء .

واستدار ليواجه المفاجأة العجيبة .

يواجه « نادية » .. تعبر الممر في طريقها إلى الباب .

ورفعت « نادية » عينها .. لتجد مدحت يحملق فيها مشدوهاً ، فجمدت في
مكانها بلا حراك .

ودون أن ينبس بكلمة واحدة ، مَدَّ ذراعيه وضمها إليه .

ومضت برهة ، وهو يحيطها بصدرة وذراعيه ويمسح رأسها بشفتيه وأنفه
واستسلمت هي لضمته ، وهي تهتز مرتجفة ، كالصادية أهلكتها الظمأ ،
وأحرقها الهجير .

ووقفت جانيت ترقب المنظر مشدوهة . ثم هزت رأسها في حيرة ، ودلفت
إلى الداخل .

ونخفت ضمة ذراعى « مدحت » عن جسدها .. ورفعت « نادية »
رأسها ، والدموع الصامتة تهيم من مآقيها .

ومد مدحت يده فانتزع الإيشارب الذى تحيط به رأسها وعنقها ، وقذف به
بعيداً .

ثم انحنى على عنقها ، يمسح بشفتيه فى أقصى آيات الحنان والحب وهو يهمس
قائلاً :

— إني أحبك أنت . بكل ما فيك . على أية صورة ، وفى أى وضع . أحب

« نادية » التى أحببتى ، وكتبت إلى .

ومدت « نادية » يدها إلى عنقها لتحسسه فى خوف .

وهتف بها مدحت فى لهجة تأنيب :

— ماذا ظننتى « يا نادية » ؟! أظننتى نافها .. يضيع حبى .. مجرد آثار

أعتقد أنى أنا المسئول عنها ، فلو كنت قد بقيت معك حتى أجريت لك العملية لما تركت هذه الآثار التى تركها هذا الأحمق فى عنقك .

وكانت « نادية » تنظر إليه مشدوهة ، دون أن تنطق بكلمة . وعندما استطاعت أن تتحدث .. هتفت ، وهى تتحسس ذراعيه كأنما تحاول التأكد من أنه حقيقة واقعة :

— أحقاً عدت ؟!

وعاد مدحت يضمها إليه ضاحكاً ، وهو يقول :

— طبعاً عدت . ماذا كنت تظنينى فاعلا إزاء رسالتك العجيبة ؟ أكنت

أتركك تركيين حماقتك وأرسل تلغراف تعزية إلى « ماما » ؟

وضحكت « نادية » ، وقالت ، وهى تمسك بيده وتقوده إلى الداخل :

— ألا تنوى التعرف بماما هذه المرة .

— بل أنوى أخذك أنت وهى إلى مصر الآن ؟

— الآن ؟!

— أجل .

— غير معقول .

— ليس هناك شىء غير معقول ، ولا مستحيل ، بعد أن وجدتك .

— ولكن لماذا نرحل الآن ؟!

— لأن مصر قد أصبحت فى حالة حرب مع فرنسا ، وقد دخلت إلى الحدود

متسللا ، فى قارب مع صديق يعرفك .

— يعرفنى أنا ؟!

- أجل .. جمال عبد السلام .
- جمال . الملحق الصحفي في سويسرا ؟!
- أجل . لقد كان له الفضل في إدخالى عبر الحدود ، وقد أتى معى حتى « جاب » ، وهو ينتظرنى فى النادى .
- حقاً ؟ إنه مخلوق نبيل .
- لا تمديه أكثر من ذلك . لأنى أغار .
- ونظرت « نادية » إليه ضاحكة . ثم همست قائلة :
- لا أستطيع أن أصدق أنى أعيش فى الحقيقة .. أبداً . إن هذا فوق ما كنت أحلم به .
- ونظر إليها مدحت ضاحكا ، وهو يهز كتفها قائلا :
- دعينا الآن من الأحلام .. أفئتمى .. يجب أن نعود حالا إلى « إفيان »
- فالقارب ينتظرنا هناك .
- وبدا الشرود على وجه « نادية » وأجابت :
- ولكن .. ماما ؟!
- مالها ماما .. ستأتى معنا .
- غير معقول .
- دعى أمر ماما لى .. أين هى ؟
- ودخلت « نادية » إلى حجرة أمها هاتفه ، وقد بدا عليها القلق والحيرة :
- ماما . لدينا ضيف من مصر . .
- من مصر ؟
- وأطرقت « نادية » وأجابت فى حياء وتردد :
- أجل . الدكتور مدحت .. الذى .. أعنى .. أننا ..
- وتمتصت الأم قائلة :
- لا داعى للشرح .. لى أعرف كل شىء . لى أعرفه جيداً من أختك

« منى » .

وازدردت نادية ريقها وقالت :

— لقد عاد ليأخذنا .

— يأخذ من ؟

— أنا وأنت ..

وأطلقت الأم تهبدة حارة . وضمت « نادية » إلى صدرها وهمست قائلة :

— منذ سنوات طوال .. أخذنى أبوك أول مرة إلى مصر .. وكنت سعيدة ..

سعيدة .. كان ذلك منذ زمن سحيق .. أما الآن .. فأحس أن مكاني هنا .. إن

فرصتنا في الحياة لا تتكرر مرتين .. فعودى أنت معه .. أنا أعرف مدى سعادتك

بعودته .. وبعودتك معه .. وأحس من سعادتك .. عزاء لي عن فرقتك .. أين

هو ؟!

وخرجت الأم إلى القاعة .. ونظرت إلى مدحت نظرة عطف وحنان .. ثم

مدت يدها وضمته إليها .

وانحدرت الدموع من مآقيها .. وهى تهمس :

— خذ بالك من نادية .. ما كنت لأتركها .. لولا يقينى من حبك لها ..

وحبها لك .

وقال مدحت مؤكداً :

— ولكنك ستأتين معنا .

وهزت الأم رأسها فى صمت .

وتساءل مدحت فى دهشة :

— لماذا ؟!

— لقد فات العمر .. وهنا أرضى وأرض آباءى . وهنا ترقد حبيبتى

الأخرى .. إن فى هذا الوطن شيئاً يشدنى إليه ، نفس الشيء الذى يشدكم إلى

مصر ، أرضكم الحبيبة ، وموطنكم العزيز .

— ٦٦٣ —

وهتفت « نادية » راجية :

— ولكنى لن أتركك وحدك .

— بل ستركتينى الآن ، وتعودين إلّى .. تعودين إلّى مع مدحت .. ومع

أولادك .. وأدعو الله أن تكونى أحسن منى حالا .. وأسعد حظاً .. و ..

وقاطعها مدحت قائلاً :

— ولكن فرصة العودة قد لا تسنح .. إن الحرب قد نشبت بين فرنسا

ومصر .

وهزت الأم رأسها قائلة فى نبرات ملؤها الثقة والسكينة :

— الحرب أجلها محدود .. والسلام أبقى وأثبت .. إن شعور المودة بين البشر

أقوى من أحقاد الساسة .. الحب أقوى من كل شيء .. النيران ستخمد ..

والدوى سيتبدد ، وتهب نسائم السلام على الأرض دائماً .. وسنعود مرة أخرى

ليعانق بعضنا بعضاً .. إن فى أرضكم المحبة .. وفى أرضنا المحبة .. والمحبة أقوى من

كل مشاعر الحقد والضغينة .

ومد مدحت ذراعيه فضم المرأة الطيبة الوداعة .. وقد سرى إليه من روحها

الوداعة شعور فياض من السكينة والمحبة والسلام .

ولم تمض الساعة حتى كانت « نادية » قد أعدت حقيبتها ووقفت الأم تودع

ابنتها والدموع تنهمر من مآقيا .

وأشارت لها « نادية » وملء نفسها الحزن والأسى وهى تهتف :

— سنعود إليك قريباً .. قريباً جداً .

والتفتت إلى مدحت وهى تسأله مؤكدة :

— سنعود إليها قريباً .. أليس كذلك ؟

— بالطبع يا حبيبتي ، سنفعل كل ما يرضيك ويريحك .

وقبل أن يذهب إلى النادى لأخذ « جمال » .. مرّاً بالمقابر البيض المنضدة وسط

الخمائل ، ووضعها على أحدها عودين مكملين بأزهار الزنبق الأبيض .

وأخيراً أعادنا إلى المحطة مع جمال .. وحملهم القطار إلى « إفيان » .
 وفي الموعد المحدد ، سار بهم القارب يشق سطح البحيرة ، في سكون الليل .
 وأخيراً وصلنا إلى جنيف .
 ونزلت « نادية » في حجرة مجاورة لحجرة مدحت .
 وفي الصباح كانت إحدى الطائرات تقلهما إلى بيروت ، حيث يأخذان
 طائرة أخرى إلى الخرطوم ، ليعودا إلى القاهرة عن طريق سكة الحديد .
 ووقف مدحت ونادية يودعان جمال .
 وقالت « نادية » في صوت ملؤه الشكر والعرفان بالجميل :
 — لست أدري كيف أشكر لك .
 وهز جمال رأسه :

— تشكريني علام .. لقد سرّني أن استطعت أن أجعل من السد الوهمي
 الذى كان يحول بيني وبينك حقيقة واقعة .. إلى الآن أحس بشيء من الراحة ..
 راحة اليأس .. فقد كنت أكره أن يحول بيني وبين سعادتي .. حاجز من
 الأوهام .

وضحك مدحت قائلاً :
 — آسف جداً .. لم أكن أحب أبداً أن أحول بينك وبين سعادتك .
 والتفت مدحت إلى « نادية » فوجدها تحكم الإشارات حول عنقها .
 وقال لها فى حزم :
 — ارفعى هذا الإشارب .. لا أريد أن تضعيه على رأسك أبداً .
 وترددت « نادية » برهة .. ونظر إليها مدحت نظرة صارمة جعلتها تمد يدها
 فى سكون لتتزع الإشارب .
 وصاح بها جمال :
 — أجل .. هكذا أجمل .. مع السلامة .

(٥١)

معركة شعب ..!

بدأت الغارات الجوية على مصر بعد أن انتهت مدة الإنذار في يوم الأربعاء ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ ، وشهدت القاهرة أولى تلك الغارات في الساعة الخامسة بعد الظهر .

وكان أهل القاهرة قد تعودوا منذ يومين عويل صفارات الإنذار المتقطع . ثم سماع بضع طلقات من المدافع المضادة للطائرات .. ثم انطلاق الصفارات في عويل مستمر لتعلن انتهاء غارة بيضاء .. انقشعت من سماء القاهرة من غير سوء . وسمع الناس في تلك الغارة طرقات تدك الأرض .. واختلط عليهم أمرها .. فمن قائل إنها طلقات مدافع ، ومن مؤكد أنها دكات قنابل .. ثم غلب عليهم الاستخفاف بأمرها ليقينهم بأن طائرات إسرائيل .. لا يمكن أن تتناول إلى سماء القاهرة .

لم يكن هناك من يصدق .. بأن إنجلترا وفرنسا .. يمكنهما حقاً .. أن تقدما على ذلك الجرم الأحمق والخيانة الطائشة الرعناء .
لم يخطر ببال أحد .. أن إنجلترا وفرنسا .. الدولتين الكبيرتين .. يمكن أن تتآمرا مع إسرائيل .. بمثل هذه الطريقة المفضوحة .. المزدرة .
وكان بالناس .. بقايا حسن ظن بالدولتين الكبيرتين .
حتى أقبل المساء .

وأطلقت الصفارات المتقطعة مرة أخرى .
وأغمضت القاهرة عيونها المضيئة وسحبت على بدنها كساء الليل الأسود ،
وكتمت أنفاسها لترقب طارق الليل الجديد .

وخيمت الظلمة وساد السكون .. إلا من صيحات المراقبين « طفى النور »
ومن انطلاق بعض عربات الجيش المارقة .. ذات المصابيح الزرق .

ووسط الصمت المخيم .. سمع أزيز يخلق في الجو .
وفجأة .. أبصر سكان مصر الجديدة .. صوتاً يخطف الأبصار .. وحلقت
في السماء مصابيح يشع منها ضوء أغرق الحى .. وكشف عن ستار الظلمة ،
وبدا الحى كأن جلاداً قد حسر عنه ثوبه .. ثم هوى عليه بالسياط ، فلم يكد
يكشف الضوء الغامر .. بدن الحى .. حتى هوت الطرقات .. شديدة متتالية ،
تدك الأرض وتهز الجدران ، وترج القلوب .

وتعالت ألسنة اللهب .. وتصاعدت أعمدة الدخان .. وتوالت الضربات
العنيفة .. والأصوات المدوية .. وأحس الناس كأن السماء قد تحولت إلى قطعة
من جحيم .

واستمر جلاد الليل الأحمر يدق الأرض بطرقاته المحرقة وضربات الموجعة .
وقد حوّل سكون الليل .. إلى ظهر أحمر صاخب ضاج .. حتى أفرغ حمولة
الدمار .. تاركاً وراءه آثاره من خرائب وأطلال وأشلاء .

وأدرك الشعب المصرى ليلته .. أن معركته .. لم تعد هينة ، وأن القتال فيها لم
يعد مع إسرائيل وحدها ، وإنما مع دولتين كبيرتين أفقدتهما الحق صوابهما
فاندفعنا .. كمجنون ضاع رشده فجعل يدمر ويحطم .. بلا عقل ولا روية .
وأدرك الشعب أيضاً .. أنه يخوض معركة حياة أو موت . وأنه مقبل على
كفاح شاق مرير .. سيقمر مصيره ، ومصير حريته ، ومصير مستقبل أجياله
القادمة .

وفي اليوم التالى .. تتابعت الغارات .. وتوالى الضرب والدوى ، وفي عصر
ذلك اليوم .. فى إحدى حجرات مستشفى العجوزة .. رقد عصام على فراشه
مشدود الساق ، وجلس صبرى أمامه بجسده النحيل الطويل .. وحلته
« الكاكية » وعلى رأسه الصغير قد وضع « الكاسكتة الكاكية » تحجب جزءاً

من منظاره السميك وقد وضع بندقيته عمودية بين ساقيه ، وأسند مرفقيه إلى ركبتيه ، وكفيه إلى فوهة البندقية .. وأسند ذقنه إلى ظهر راحتيه وبدا واجماً شاردأ .

وامتدت أصابع عصام تدير مفتاح الراديو وهو ينظر إلى ساعته قائلاً :
— أظن جمال سيتحدث الآن .

وهز صبرى رأسه في أسف وقال كأنما يحدث نفسه :

— لم يخطر ببالي أن خلق الدول يمكن أن ينحط إلى هذا الدرك .

وضحك صبرى قائلاً :

— بل وينحط إلى أكثر من هذا .. إن المثل والأخلاق تنهار أمام المطامع .

— كانت هناك وسائل أخرى .. أكرم لهما .. لتحقيق مطامعهما .

— مثل ؟!

— مثل الغزو الصريح المباشر .. لو أنهما ..

وقطع حديث صبرى صوت « جمال عبد الناصر » يعلو من الراديو .

وأرهم صبرى وعصام .. أذنيهما .

كان الصوت ينطلق عميقاً ، متهدجاً .. كانت به رنة أسي .. ولأول مرة ..

يغلب حزنه .. ثورته ، وحماسه .

لأول مرة ، يبدو الثائر العميق .. في صوت الشاب الثائر الذى غير مجرى

التاريخ ، وقفز بأيمته إلى ذرا المجد .

وانطلق الصوت الهادئ الحزين يقول :

« بدأت المؤامرة بهجوم إسرائيل المفاجئ يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ، وأعلنت

إنجلترا في أول الأمر أنها لن تستغل الفرصة ، ولكن لم يكذبين لها أن قواتنا قد

سيطرت على أرض المعركة ، وأن سلاحنا الجوى قد سيطر على سمائها .. حتى

أرسلت إنذارها باحتلال القناة من أجل حماية الملاحة فيها .

« حدث هذا في وقت كانت الملاحة فيه مستمرة ولم تهدد إطلاقاً ، والقوات

المصرية تحتشد لمقاومة القوات الإسرائيلية المعتدية وتردها على أعقابها .
« ورفضنا الإنذار لأننا لا نقبل مطلقاً أن نوافق على احتلال جزء من أراضينا
بقوات أجنبية .

« وفي الساعة السابعة مساءً أمس أصدرت وزارة الدفاع البريطاني بلاغاً بأنها
ستضرب المطارات المصرية نتيجة لرفض مصر للإنذار .

« وبدأ الضرب فعلاً .. في القاهرة والقناة والإسكندرية .

« وكان الغرض هو تدمير السلاح الجوي المصري ، وسحب قواتنا إلى داخل
سيناء وعزلها وتدميرها .. ثم احتلال مصر بلا أية مقاومة .

« وكان لا بد من اتخاذ قرار خطير » .

وأحس عصام كأن يداً تقبض على عنقه وتكتم أنفاسه .

وخلع صبرى منظاره في حركة عصية ثم مد يده وأدار مفتاح الراديو ليعلى
صوته .

وعاد الصوت الهادئ الحزين يقول :

« كان لا بد من اتخاذ قرار حاسم حتى يمكن إحباط خطط إنجلترا وفرنسا
وإسرائيل والمحافظة على قواتنا الرئيسية .. حتى يمكن أن تبقى دائماً مساندة
للشعب .

« وكلفت القائد العام اللواء عبد الحكيم عامر بحماية قواته المسلحة والعمل
على أن ينضم أكبر جزء منها إلى الشعب حتى لا تتمكن القوات المعادية من عزلها
وتدميرها في صحراء سيناء .

« ولقد بدأ أمس تنفيذ هذه الخطة » .

ومد عصام يده فضغط على جبينه .

وشرد ذهنه فلم يستطع تمييزاً لصوت المتحدث إلى جواره .

أيمكن هذا ؟!

أحقاً .. سنسحب قواتنا من سيناء .. أمام قوات إسرائيل ؟!

أيمكن أن نترك أرضنا للكلاب النابحة؟!
 وتجمعت الدموع في مآقي الجريخ الراقد .. وعض على شفتيه حتى يرد عن نفسه نوبة بكاء .
 والتفت إلى صبرى ليجده شاردًا واجمأً وعاد يستمع إلى الصوت .. وقد أخذ يزول عنه الأسى .. وارتدت إليه قوته ، وحماسته وهو يقول :
 « لقد أعلنت مصر أنها ستقاتل دفاعاً عن سيادتها وعن حريتها وعن كرامتها .. سنقاتل كما كنا دائماً .. في حرب شاملة جنودها الشعب جنباً إلى جنب مع القوات المسلحة .
 « أيها الإخوة .
 « إن كل فرد منكم جندي في جيش التحرير الوطني .
 « لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح .. وعندنا منه الكثير ، وسنقاتل في معركة مريرة ، سنقاتل من قرية إلى قرية ومن مكان إلى مكان .
 « ليكن شعارنا أننا سنقاتل ولن نسلم .
 « إننا اليوم نكتب صفحة جديدة في تاريخنا .
 « إننا اليوم نريد الصبر والإيمان حتى نتتصر .
 « وأنا أعاهدكم أنني سأقاتل معكم من أجل حريتكم ، كما عاهدتكم من قبل لآخر قطرة من دمي » .
 وبدأت المعركة المريرة .
 معركة أحس فيها كل مصري بأنها معركة الشخصية .
 بدأت المعركة المريرة .. بلا مرارة .. وإنما بحماسة وحماس .
 وأمست مصر كلها كأنها معسكر مسلح .
 وشقت الخنادق في الحدائق الخضر .. وربضت الدبابات في زوايا الدور ، ومنحنيات الطرق .
 ولم تعد صفارات الإنذار تثير في النفوس ذعراً .

— ٦٧٠ —

لا .. ولا عاد الدوى .. الذى يزلزل الأرض .. يهدم الدور .. بقادر على أن
يزلزل الأفتدة أو يرج القلوب .

لم يكن الناس يسألون عن ضحايا الغارة من الشعب .. وإنما يتلهفون على
ضحايا الطائرات المغيرة .

كانت الرغبة فى القتال ، وفى صد العدو الظالم المعتدى المغير ، أقوى من كل
خوف .

لم يكن الناس ينزويون فى الخفاء ، خوفاً من الشظايا وإنما يتطلعون فى
الشرفات .. ليرقبوا الطائرات تنهاوى .

وواجهت مصر .. غارات العدو على مدنها .. ببسالة فائقة وإيمان عجيب .

واستمر جلالد الجو الأحمر .. ييذر الدمار فى الأرض الطيبة الخضراء .

ووسط هذا الجحيم وبين الحمم المتساقطة من السماء .. والأرض المزروعة
بالسلاح والجو الذى لا يهدأ فيه دوى .. ولا يصمت فيه عواء إنذار .

وصل قطار سكة الحديد من الخرطوم يحمل مدحت ونادية إلى محطة

القاهرة .. عقب رحلة شاقة طويلة .. وسارت بهما « عربة الأجرة » من

المحطة .. تشق طريقها بين المدافع المتناثرة .. فى الميادين .. والمركبات المتحركة
فى الطرقات .

ونظر مدحت إلى نادية متسائلا :

— إلى أين ؟

ورفعت نادية كتفها فى حيرة وأجابت :

— لست أدرى .. وأنا أكره الذهاب إلى بيت عمى .. ولا أعرف زوجة

عمى ، ولا أدرى هل مازال فى بيته .

وفكر مدحت برهة ثم قال لها :

— لماذا لا تذهبين لتقيمي مع والدتى .. سأمر الآن بالمستشفى ثم أذهب بك

إلى البيت .. وأعود إلى المستشفى مرة أخرى .

وتساءلت نادبة :
 — ولماذا لا أبقي معك في المستشفى ؟ ألا أستطيع أن أفعل شيئاً .. إن لدى
 فكرة عن التريض ؟!
 — أنت متعبة وتحتاجين إلى راحة .
 — لا أظننى أحتاج إلى راحة أكثر منك .. فإذا كنت ستذهب إلى المستشفى
 فإني أحب أن أكون بجوارك .
 ونظر إليها مدحت وقال ضاحكا :
 — أليدك فكرة عن طريقة معاملتى للممرضات .. أتعرفين أنى أضربهن !
 وأجابت نادبة ضاحكة :
 — ربما .. ولكننى أعتقد أنى سأرغمك على ترك هذه العادة السيئة ..
 وسأعلمك .. كيف تعامل الناس .. بطريقة أرق .
 ووصلت العربة إلى مستشفى العجوزة وهبط الاثنان ، واتجهتا إلى حجرة
 مدحت .
 وفى أحد ممرات المستشفى .. سمع مدحت صوتاً يصبح به :
 — مدحت .
 والتفت ليجد جاد الله مقبلاً عليه فى حماس ولهفة .
 وقبل أن يفتح ذراعيه ليضمه .. وقف ينظر إلى نادبة مآخوذاً مشلوهاً .
 وقال له مدحت ضاحكا :
 — ألا تنوى أن تسلم .. الآنسة نادبة .
 وهز جاد الله رأسه قائلاً وهو يطلق تنهيدة حارة :
 — أخيراً .. لقد دوختنا .
 وابتسمت « نادبة » فى حياء ، وأردف جاد الله ضاحكا :
 — لم يكن يخطر ببالى أننى سأراك حقيقة .. كنت أتوهمك عفرينة تسكن
 قعم الجبال .. كأنك « لولية بنت مرجان » .

— ٦٧٢ —

- ومدت « نادية » يدها مصافحة ولكنه فتح ذراعيه ضاحكا :
- بالحضن .. أقل ما فيها .
- ثم ضمها إليه فى لهفة .
- ومد مدحت يده ليجذب ذراعه قائلا فى صرامة :
- كفى . « لاتسق الهبالة على الشيطنة » .
- الحق على . لولاي ما كنت استطعت حتى رؤيتها . اسمع .. قص على ما حدث من « طقطق لسلامو عليكم » .
- ليس هذا وقته .. إني أريد أن تفرد إحدى حجرات الممرضات لنادية .
- هكذا مرة واحدة ؟
- أجل ستعمل معي .
- وستضربها ؟
- ليس لك بها شأن .
- ونظر مدحت إلى نادية قائلا :
- أظنك تستطيعين أن تذهبي الآن لتستريحى ؟!
- وترددت « نادية » برهة وتساءلت :
- أأستطيع أن أرى عصام ؟
- ستريه بعد .
- إني أحب أن أراه الآن .
- هل ستحدثينه عن « منى » ؟
- ما رأيك ؟!
- ورفع مدحت كفيه .. وقال :
- أظن أنه لا بد أن يعرف فى يوم ما .. لست أدري ما إذا كان يستطيع الآن احتمال الصدمة .
- وأجاب جاد الله :

— ٦٧٣ —

- إنه في تحسن .
- وهز مدحت رأسه قائلاً :
- على أية حال لا داعي لأن تخبره مرة واحدة .. قولي له إنها مريضة .. وبعد بضعة أيام .. يمكن أن نسوق له النبأ .
- واتجه مدحت إلى غرفة عصام .. وفتح الباب وأطل عليه .
- وبدت الدهشة على وجه عصام وهتف به :
- أهلاً دكتور مدحت .. لقد طال غيبتك عنا .. أين كنت ؟
- على سفر .
- في هذا الوقت ؟
- أجل .. لقد ذهبت في مهمة خطيرة .. وأحضرت معي أثمن ما يمكن الحصول عليه .. أحضرت معي شخصاً تعرفه .
- ورفع عصام حاجبه في دهشة وتساءل :
- أأعرفه أنا ؟
- أجل .
- وتنحى عن الباب ثم دفع نادية قائلاً :
- لقد أحضرت نادية .. خطيبتى .
- وهتف عصام مأخوذاً :
- نادية .. لا يمكن .. غير معقول .. كيف حدث هذا . ومتى عرفتها ؟
- ولماذا ذهبت إليها فجأة ؟ وكيف أحضرتها ؟
- وقال جاد الله :
- حيلك .. حيلك .. هذه أسئلة تحتاج إلى سنة للإجابة عليها .. المهم أنه قد أحضرها ، وخطبها .
- وصاح عصام فرحاً :
- إذن لقد أصبحنا عدايل .
- (نادية — ج ٢)

وأحسن الثلاثة بلسعة أسى ، وخيم على وجوههم صمت رهيب .. وعاد عصام يقول لمدحت :

— لقد قابلت « منى » طبعاً . لماذا لم تحضر معكما ؟

وأجابت نادية :

— لأنها مريضة .

— مريضة ؟ . بم ؟

وازدردت نادية ريقها وأردفت قائلة :

— لقد أصابها التهاب رئوى .

وبدا الفزع على وجه عصام :

— التهاب رئوى ، وكيف تركتها ؟

— أحسن .. أحسن .

— من أجل هذا لم تكتب إليّ ؟ .. كيف وجدتها يا دكتور مدحت ؟ .. قل

الحق .

وأحسن مدحت أنه من الخير أن ينهى الموقف فأجاب مردداً كلمات نادية :

— أحسن .. أحسن . هيا بنا الآن ، يجب أن تستريحى يا نادية .

وهمّ عصام بالسؤال ، ولكن مدحت أسكته بإشارة من يده قائلاً :

— انتهينا .. كفى هذا الآن .. يجب عليك أن تستريح أنت أيضاً .

— ولكن ...

— سنعود عندما نستريح كلنا .

واستدار مدحت ليخرج من الغرفة عندما بدا صبرى بالبواب .

وهتف صبرى مرحباً :

— دكتور مدحت .. أهلاً وسهلاً .

ومد يده يشد على يد مدحت فى شوق .

ولم يكن فى غمرة خماسه لمدحت قد أبصر نادية فأشار مدحت يعرفه بها :

— ٦٧٥ —

— نادية .. خطييتى .

وفغر صبرى فاه ، ووقف مكانه مشدوهاً ، ثم هتف متمتا :

— نادية .. نادية .

ومدت نادية يدها تصافحه قائلة :

— كيف حالك يا صبرى ؟

واستمر صبرى يردد فى ذهول ، وقد جثمت على وجهه سحابة أسى ولوعة

ويأس :

— نادية . نادية . خطييته !

وضحك مدحت متسائلا :

— خطييتى أنا . أية غرابة فى ذلك ؟!

وأجاب صبرى وهو يهز رأسه كأنما يحاول أن يفيق من صدمة :

— أبداً . أبداً .. إني لم أكن أتوقع .. أعنى

ثم مد يده يشد على الدكتور مدحت وهو يتم فى اضطرابه :

— مبروك . مبروك يا دكتور مدحت . مبروك يا نادية . متى أتيت ؟

— الآن .

— الآن ! وأين « منى » ؟

ومرة أخرى بدا الاضطراب على نادية ، وأجابت وهى تحاول أن تتمالك

أعصابها :

— فى جاب .

— ولماذا لم تحضر ؟

— لأنها مريضة .

وقبل أن يسترسل صبرى فى أسئلته ، سحب مدحت نادية من ذراعها قائلا :

— عن إذنكم الآن .. سنراكم مرة ثانية .

وخرج الثلاثة من باب الحجرة مخلفين صبرى وعصاماً مغرقين فى دهشتهم .

(٥٢)

متعة جزاء ...

فى فجر اليوم التالى .. يوم الاثنين ٥ نوفمبر ، بدأ غزو القوات المعادية لبورسعيد ، وركزت القوات الفرنسية والإنجليزية هجومها بالقنابل والصواريخ على المدينة الباسلة .. وحلقت الطائرات فى الشوارع لتصب رصاصها من ارتفاع خفيض على الأهالى الوداعين .

وفى السابعة والنصف بدأ هبوط أول موجة من موجات المظلات فى سماء بور سعيد ، وشاهد الشعب المكافح ، المعتدين يخلقون بمظلاتهم فوق مطار الجميل والجبانة وبور فؤاد .

واندفع الأهالى .. بكل ما يملكون من أسلحة .

اندفعوا « بأيدى الهون » .. وبالسواطير والسكاكين .

اندفعوا فى حماس جنونى .. ليدفعوا المعتدى .. عن أرضهم .. وعرضهم وكرامتهم .

اندفعوا ليخوضوا معركتهم المريعة .. إلى جانب القوات المسلحة .. فى عزم وحزم .. وشجاعة وإيمان ..

وفى أربع ساعات .. كانت الموجة الأولى .. قد قضى عليها ..

وقبيل الظهر عاد العدو إلى إنزال موجة أخرى استطاعت أن تعزز بعض المراكز فى بور توفيق ومطار الجميل .

وكان الهجوم من القوة بحيث أعلن إيدن فى مجلس العموم أن بور سعيد قد سقطت

وأقبل صبرى فى المساء على عصام وقد بدا متجههم الوجه .

وقال له عصام في أسي وحزن :

— أسمعت !؟ .. لقد أذاعت الإذاعة البريطانية أن بور سعيد سلمت ..

وصاح صبرى في حنق :

— أبداً .. لم تسلم .. لقد كذبت محطتنا هذا .. لقد حاولوا تدمير محطتنا ..

لإسكات صوتها .. حتى يستطيعوا نشر أكاذيبهم .. ولكن محطتنا تعلن في كل

مكان .. أن بور سعيد لم تسقط .. إننا سنقاوم حتى آخر رجل .. سنقاتل كما

قال « جمال عبد الناصر » .. من قرية إلى قرية ، ومن مكان إلى مكان .. سنقاتل

لآخر قطرة من دم كل مصرى .

وصمت برهة ثم أردف قائلاً :

— اسمع يا عصام .. سأذهب إلى بور سعيد .

وعلت الدهشة وجه عصام وتساءل :

— أنت !؟ .. له !؟

— إنهم في حاجة إلى كل سلاح ، وكل قطرة من عرق .

لا بد أن أقوم بواجبي في المعركة .

ولكنك تستطيع أن تقوم به هنا .

— أبداً .. إن جبهتنا في بور سعيد يجب ألا تتصدع .. سأذهب من الليلة .. إن

لدى موعداً مع بعض الفدائيين وسنحملنا عربة عن طريق المطرية .

وتهد عصام في أسي وقال :

— كما تشاء !

ونقل صبرى بندقيته إلى يده اليسرى ثم شد على يد عصام في حرارة قائلاً :

— لن نهزم أبداً .

وأجاب عصام والدموع تترقق في عينيه :

— أبداً .. أبداً .. إن شعبنا يستطيع أن يفعل المعجزات .

وخرج صبرى من الحجرة وهو يثبت منظاره على عينيه . ولم يتجه إلى

الخارج .. وإنما عرج في ممرات المستشفى حتى وصل إلى حجرة « نادية » ،
وطرق الباب .

ووصل إليه صوت « نادية » الرقيق يقول :
— ادخل .

ودخل صبرى .

ورفعت « نادية » عينها في دهشة وقالت مرحبة :
— أهلا صبرى .. تفضل .

وقال صبرى وهو يقف منتصب القائمة وقد ارتجفت شفتاه ، وسلاحه في
يده :

— إني آسف لإزعاجك .. ولكنى فقط أردت أن أودعك .
— له ؟

— لأنى سأسافر إلى بور سعيد الليلة .

— أنت ؟

— أجل .

وقبل أن ترد عليه « نادية » دفع يده في جيبه وأخرج ظرفاً مغلقاً وقال لها في
صوت خافت أشبه بالهمس :

— لقد كتبت لك رسالة .. وسأعطيها لك بشرط ...

وهزت « نادية » رأسها مستفسرة وقد بدا عليها التأثر والدهشة
وأجاب صبرى :

— بشرط ألا تفتحها .. الآن .

وصبمت ، برهة .. وعادت « نادية » تهز رأسها مستفسرة .
وأجاب صبرى في لهجته الهامسة :

— لا تفتحها إلا .. إذا .. سمعت نبأ استشهادى .

وأحست « نادية » برجفة وهتفت به :

— ٦٧٩ —

— لماذا تقول هذا ؟! إنك ستعود سالماً .

وأجاب صبرى قائلاً فى إصرار :

— إذا عدت سالماً .. فأرجوك ألا تفتحنيها .. عديني

وتساءلت « نادية » فى حزم :

— لماذا تقول هذا يا صبرى ؟! إنك ستعود سالماً .

— عدت سالماً أو لم أعد .. هذا لا يهم .. المهم أنك لا تفتحنيها إلا إذا عرفت

أنى استشهدت .

وأجابت « نادية » فى لهجة حزينة وصوت متهدج :

— أرجو ألا أفتحها أبداً .

ومد صبرى يده فسلمها الرسالة ، ثم شدد على يدها ورفعها فى رفق إلى شفتيه

قائلاً :

— أسمحين ؟!

وهزت « نادية » رأسها ، فمسها بشفتيه ثم استدار خارجاً .

وهتفت « نادية » من أعماقها :

— مع السلامة .. ستعود .. إن شاء الله .. لنقرأ الرسالة سوياً .. مع

السلامة .

واختفى صبرى .. فى ممرات المستشفى .

وفى صباح اليوم التالى عاود الطيران البريطانى والفرنسى هجومه العنيف على

بور سعيد .. ليترك المدينة حنماً وأطلالاً . وقبل الثامنة والنصف انطلقت مدافع

الأسطول تلك بيوت الأهالى ودمرت « حى المناخ » ومعظم المباني القائمة على

شاطئ بور سعيد فى ثلاثة صفوف تقريباً ، واستمر الضرب حتى الساعة

العاشرة .

وفى الساعة العاشرة بدأ العدو إنزال دباباته وعرباته المصفحة وقواته من

المشاة .. تحت ستار كثيف من الدخان .

وخاض شعب بور سعيد معركته المريعة من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت .. تحت قنابل الطيران ونيران الأسطول .. وأخيراً استطاعت القوات الهابطة على الشاطئ الاتصال بالقوات التي هبطت بالمظلات في اليوم السابق عند كوبرى الرسوة ...

وبرغم الطيران والأسطول والمدركات استمرت المقاومة الشعبية تزداد عنفاً .

وفي يوم وليلة تحوّل القطر كله إلى معسكر واحد كبير حتى بلغ عدد الذين يحملون بنادق خمسة ملايين ونصف مليون رجل وامرأة .

ووقف العالم يرقب الشعب الباسل المكافح في معركته ضد القرصنة والطفغان والظلم .

وأعلن الرأى العالمى سخطه على العدوان الآثم وتأييده للشعب المكافح .

وأرسل الروس إنذارهم .

ووقفت أمريكا فى الأمم المتحدة لتعلن معارضتها للاعتداء وتؤيد الشعب المناضل ضد قوى العدوان .

وفي يوم الأربعاء ٧ نوفمبر .. اضطر الباغى المعتدى للرضوخ لقرار الأمم المتحدة بوقف القتال .

وفي ٩ نوفمبر وقف « جمال عبد الناصر » .. فى الأزهر ليعلن للشعب :

« إن موقفنا بعد عشرة أيام من المعركة أقوى مما كان .. إن القومية العربية تحققت وأصبحت عملاً بعد أن كانت قولاً .

الشعب قوة متحدة .. الجيش والطيران والبحرية قوة متماسكة .

اثنتان من الدول الكبرى ضد العدوان .

روسيا هددت فعلاً أنها ستسحق هذا العدوان

وأمرىكا ستعمل على القضاء عليه .

هذا هو الموقف .

الأُم المتحدة قامت بعمل مستمر .. ووقف العالم كله ضد إنجلترا وفرنسا ،
وظهرت الحرب العالمية في الأفق .. وافقت إنجلترا وفرنسا على وقف إطلاق
النار .

ولكن المعركة لم تنته بعد .
إننا سنكون على حذر دائم حتى لا نؤخذ بالخدعة والغدر .
إننا نريد السلام .. ولن يفرض علينا الاستسلام .
إن العالم يساندنا في كل مكان .
سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل .. دفاعاً عن أراضينا ، وعن سيادتنا وعن
حريتنا » .

وهكذا أوقف العدوان .. وأحبطت المؤامرة .
وانتصر الشعب المصرى المكافح في سبيل كيانه وحريته .
ولم يكن النصر سهلاً .
ولم تكن المعركة هينة .
ووقفت المدينة الباسلة .. لتؤكد .. وجراحها تنزف .. ودخان الحرائق
يتصاعد من أطلالها ، وجثث ضحاياها تتكدس بين خرائبها .. ودماء شهدائها
تجرى في ميادينها .. أنها لن تكف عن المقاومة .. حتى تطهر أرضها .. بمن آخر
جندى .. من جنود الطغاة .. وأنها على استعداد لمزيد من البذل ومزيد من
التضحية .. ومزيد من عرق المكافحين .. ودماء الشهداء .
وبين هذا المزيد من الشهداء ، الذى قدمته المدينة الباسلة ، كان صبرى .
ووصل نبأ استشهادها في نفس الليلة .
وتلقته « نادية » في ذهول .

ومدت يدها لتحسس .. رسالته .. في صمت موجه .
وبدا لها طيفه ، بجسده النحيل الطويل . ورأسه الصغير الذى حجبته
« الكاسكتة الكاكية » وقد أمسك بالسلاح في يده .. وهمس بها في صوت رفيق

متوسل : « لا تفتحيها إلا إذا سمعت نبأ استشهادي . »

وبأصابع مرتجفة فتحت « نادية » الرسالة .

ومن خلال الدموع المرتجفة في مآقيها قرأت سطورهِ الأخيرة :

« حبيتي نادية .

« لأول مرة .. أجسر على أن أناديك مما أحس لك .. وبما أحب أن أناديك

به

« لأول مرة أجسر على أن أناديك .. بحبيتي .

« وأنت حبيتي .. منذ سنوات طوال .. منذ أن عرفت كيف أحس ..

وكيف أحب .

« ومع ذلك لم أجرؤ يوماً على أن أصارحك بشيء مما أحس .

« حتى بعد أن سافرت .. وظننت أني أستطيع في رسائلي أن أكتب لك في

بعدك ما عجزت عن قوله في مواجهتك .

« ولكنني لم أكن أجرؤ .

« كنت أحس بالخشية ..

« والتردد .. والعجز ..

« لست أدري له .

« الآنك كنت أول حبي .. وأول تجربتي !!

« الآن .. كنت أخشى ألا أكون كفئاً لك .. وألا يكون .. نصيبي

منك .. سوى الصد والسخرية !!

« جائز هذا .. وجائز ذاك .

« لقد ظلمت .. طيلة هذه السنين .. أتحدث إليك .. وأكتب لك .. دون

أن أجرؤ .. مرة واحدة .. على أن أقول لك .. إنني أحبك ..

« ولكنني أحس الآن ، وأنا أكتب إليك .. أن إحساساً جديداً في باطني ،

يمنحني الجرأة على قولها .. إحساساً يمنحني الشجاعة ، والقدرة ، على أن أهتف

بك .

« إني أحبك .. أحبك .. أحبك .

« أقولها ، وبنفسى جرأة عليها .. لأنى لن ألقاك بعد .. حتى أواجه ما قد ألقاه منك ، من إيلام صد ، ومرارة وسخرية .

« أقولها ، وبنفسى جرأة عليها .. لأنها لن تصل إليك .. إلا .. وأنا شهيد .. والإحساس بالاستشهاد يمنحنى إحساساً بالجرأة .

« ويملاً نفسى ثقة بأنى قد أصبحت كفتاً .. إن لم يكن لحبك .. فعلى الأقل لتقديرى .

« هل تدرين السعادة التى أحس بها .. عندما أتخيل أنى ساستشهد .. وأنت ستفتحين رسالتى ، وأنتك ستسمعين هتافى بك « إنى أحبك » ؟

« بل هبل تدرين المتعة التى أحس بها الآن .. وأنا أجد فى نفسى الجرأة على ترديدها .. والإحساس بأنها عندما تصل إليك .. لن تكون محل سخرية ، لأنها ليست من محب عابث ، بل من محب شهيد ؟

« الاستشهاد ؟؟

« ما تصوّرت قط أن يكون للاستشهاد .. مثل هذا الإحساس الممتع .

« إنى أحس له بمتعتين : متعة البذل .. ومتعة الجزاء .

« متعة البذل .. من أجل مصر .

« من أجل وطننا .. الجريح . المظلوم . المعتدى عليه .

« وطننا .. الذى استكثر عليه الطغاة حرّيته .. وكرهوا له أن يأخذ حقه فى الحياة ، وأن يسترد أرضه ، ويستعيد موارده .

« متعة البذل .. من أجل كفاح المعتدى . وصد الباغى

« البذل من أجل صيانة أرضنا ، وعرضنا ، ومستقبلنا ، من قيود استعمارهم ،

وذل طغيانه .

« وإذا لم نبذل نحن أبناءه .. فمن الذى يبذل من أجله ؟!

— ٦٨٤ —

« إن صد العدوان .. يحتاج عرقاً ، ودماء .
 « فإذا لم نبذل نحن من جباهنا العرق ، ومن عروقنا الدماء .
 « فمن الذى يبذل له ؟ ومن الذى يقيه الشر ويصد عنه الأذى ؟ !
 « هذه هى متعة البذل التى أحسن بها .
 « أما متعة الجزاء .. فهى جرائق على مناجاتك .. وعلى أن أقول لك : حبيبتى
 « نادية » ،
 « وإحساسى بأنى لن ألقى منك صداً ولا سخرية .
 « ولهفتى على تقديرى لى ، وثنائى على ، وحزنك من أجلى .
 « وطمعى فى عبرتين تسكينهما .. على قبرى إن كان لى قبر ، وعلى رسالتى
 « إن حرمته » .

« صبرى »

وتكاثفت طبقة الدمع فى مآقيها .. حتى حجبت رسالة الشهيد .. وانحدرت
 عبرتان . لتستقرا بين السطور وتمتزجا بالكلمات ، وتحملان لروح الشهيد ، متعة
 الجزاء ، بعد أن منح الوطن متعة البذل .

الخاتمة

أقبل مدحت على « نادية » يكفكف دمعها .. وضمها إلى صدره وهو
يتحسس شعرها وعنقها قائلاً في صوت رقيق :
— أظنك الآن تستطيعين العودة إلى البيت !
— أى بيت ؟!

— بيتنا .. لقد تركته أُمى خلال الغارات لأنه ملاصق للمطار وذهبت إلى
بيت أخيها في شبرا . وسنمر عليها اليوم لكي نعود بها إلى البيت . إنها في حاجة إلى
معونتك .

وصمت برهة ثم تَتم في حيرة :
— لست أعرف شيئاً عن إجراءات الزواج .. ولكن لا شك أن أُمى تعرف
كل شيء .. وسنتصل بعمك سليمان .. ليحضر إلينا .
وتنهدت « نادية » وانحدرت عبراتها من عينيها وكفكفها مدحت ضاحكا
وهو يقول :

— انتبهنا .. لا عبرات بعد الآن .. بل حياة .. وأمل .. وبسمات .. وسلام
لنا .. ولوطننا .. ولكل الناس .

(تمت)

فهرست الجزء الثانى

صفحة

٣٥١ ٢٩ — دعوة فى الأوهام
٣٦٥ ٣٠ — رد على دعوة
٣٧٩ ٣١ — لن يراها
٣٩٢ ٣٢ — إنه يجبها !!
٤٠٧ ٣٣ — فك قيد
٤٢٢ ٣٤ — تفكير فى زيارة
٤٣٦ ٣٥ — حق يسترد
٤٥٠ ٣٦ — لا يمانع
٤٦٤ ٣٧ — تدبير للقاء
٤٨٠ ٣٨ — محاولة هروب
٤٩٦ ٣٩ — لا ينساها
٥١٠ ٤٠ — ليل بلا عويل
٥٢٤ ٤١ — صلاة
٥٣٦ ٤٢ — لم يعد وهما
٥٥١ ٤٣ — ضمة على قبر
٥٦٦ ٤٤ — وداع له معالم
٥٨١ ٤٥ — أمر تكليف
٥٩٦ ٤٦ — جريح
٦١٠ ٤٧ — فى موضعها
٦٢٣ ٤٨ — انذار !

صفحة

٦٣٧	٤٩ — عملية تهريب
٦٥٢	٥٠ — أحقاً عدت ؟
٦٦٥	٥١ — معركة شعب
٦٧٦	٥٢ — متعة جزاء
٦٨٥	٥٣ — الخاتمة

رقم الإيداع ٤٠٦٩ / ٨٧

الترقيم الدولي ١ - ٠٣١٢ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



الشن ٨٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
معيد جودة السحار وشركاه